الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب: ٤١٢٣ بيروت - تلفون: ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B.P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

الادارة

شارع سوريا - راس الخندق الغميق - بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان: ١٢ ليرة ◘ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج: جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في اميركا: ١٠ دولارات ◘ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية: ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

الشورية ومصادرها عند مارون عبود

بقلم الدكتور علي سعد

عندما تسأل احد الذين مروا على مقاعد الدراسة في الجامعة الوطنية بعاليه في ربع القرن الذي انقضى بعد ١٩٣٠، اين تلقيت دروسك؟ تسمع دائما هذا الجواب، مرفقا بومضه زهو لا تخفى:

«لقد كنت من تلامذة مارون عبود».

فكأن اسم مارون عبود كان الشهادة على جودة الينبوع الذي استقى منه العلم، او لعله المرشد الاول الذي يدل بذيوعه وشهرته على موضع الينبوع.

وكم من الاف الطلبة الذين وردوا ذلك المعهد من اربعة جهات الدنيا العربية قد وردوه مدفوعين ببريق اسم مارون عبود الذي كان يضيء كالمنارة الهادية.

وايام كنا نتلقى دروسنا في الجامعة الوطنية، كنا نحسب اننا وحدنا نستأثر مجد الاستظلال بذلك الاسم الكبير. وحينما جاءت في احدى السنين بعثة من كبار علماء افريقيا الشمالية تقدم له عباءة مزركشة، دلالة على اعترافها باياديه على الثقافة العربية، بدأنا نحس بان مارون عبود لم يكن ملكنا وحدنا. وقد ازداد هذا الشعور عندما خرجنا الى العالم الكبير واصبحنا نرى المئات والالاف من اللبنانيين ومن ابناء الشعوب العربية الاخرى يزدحمون على ابواب او في رحاب عالم مارون عبود من خلال كتاباته او في الزيارات التي كانوا يحجون فيها الى عين كفاع.

وخلافا للعادة التي تجعل الاشخاص والاشياء التي يعرفها الانسان في سني صغره او صباه تتضاءل وتصغر مع الايام، على قدر اتساع تجربته ونمو شخصيته، كنا نرى ان مارون عبود الذي كان يملأ حياتنا ايام الدراسة، لا يزداد خياله الا كبرا ونموا في مخيلتنا، مع تقدم الايام ومع تقدمنا في شعاب العمر وفي تشابك التجارب والمعرفة. واستطيع التأكيد، فيما يتعلق بي، انني، على كثرة الاساتذة الذين عرفتهم في الدراسة الثانوية وفي الكليات الجامعية، لا ازال اعتبر ان استاذي الاول هو مارون عبود.

ما رايت مرة مارون عبود ولا مرت صورته امام عيني او في مخيلتي الا ورنت في اذني كلمة اطلقها في احد الايام احد رفاقنا في الجامعة الوطنية وهو يتامل باكبار واعجاب استاذنا مارون: «الا ترى معي ان استاذنا هو من فصيلة الاسود؟».

وبالطبع لم يسعني الا انا اوافق رفيقي على هذه التشبيه، ويومذاك لم أر في تلك الصورة الا صدقها في التعبير عن الجانب الحسي من مارون عبود. فهو حيث كان يبدو، ان

في صولاته على المنابر ، او في المدرسة ، او في جلساته في الصف او في ندواته الادبية ، كان ابدا يعطينا الانطباع بطلعة الاسد . وقد كان له منه وجهه الغضنفري وحاجباه الكثان ونظراته القاتمة وملامحه الفياضة ، وكان له منه ايضا الخطوة القصيرة المشدودة والقامة المربوعة والصدر الرحب الذي يقصر من حوله العنق والساعدان والساقان . كل هذا الجسد الململوم والمجموع على نفسه والذي لا يندرج الا في دوائر من كل جهاته ، كان يوحي بمعاني التحفز والقوة المخزونة التي تنتظر اقل محرض لتنطلق وتفترس . وما كان ينقص هذا الجسد الا اللبدة حتى يقال انه الاسد .

ومع مرور الايام بدأت ادرك ان لمارون عبود قرابة اخرى مع الاسود،هي القرب والشبه على صعيد الصفات المعنوية. فقد كان ، رحمه الله ، مولعا بخوض المعارك وممارسة الصراع الفكري . بل انني اكاد اقول انه اذا كان لنا ان نختصر خط القدر في حياة مارون عبود لقلنا : انه قضى عمره في النزال،وفي مقارعة الاحداث والمؤسسات والافكار والاساليب التي كان يرى فيها خطرا على التقدم الانساني وعلى جمال الحياة الانسانية .

فهو قد حارب على التوالي بالعنف والسخرية نفسهما اهمال اللبنانيين لعظماء تاريخهم (١) واستغلال رجال الدين للسذاجة والطيبة عند بسطاء الناس (٢) ، والتفاهة والقبح في العمل الادبي (٣) والغرور وروح التسلط عند بعض النافذين في الوسط الادبي الذين كانوا يفرضون نوعا من النظام الاقطاعي في الحياة الادبية والفكرية (٤) ووحشية الحكم الاقطاعي في لبنان الماضي (٥) وسوء التوزيع لخيرات الدولة اللبنانية الحديثة بين المناطق اللبنانية وتشويه الديموقراطية في اللعبة بين الناخب والنائب(٦)

كل هذه المساوىء وكل هذه البشاعات كانت القلاع التي افنى مارون عبود عمره في محاولة زلزلتها بكل ما اوتي من قوة عارضة وحلاوة لسان ولذع سخرية وعمق ملاحظه وسعة علم وحضور بديهة وقدرة على الضحك والاضحاك .

وقد كان في انطلاقاته المتلاحقة لدك قلاع الشر والقبح تلك او لزعزعتها يبدو احيانا كناطح صخرة لا تزيده صلابتها الا امعانا في الهجوم اللامجدي (من مثل هجماته على اهمال السلطات اللبنانية للمناطق المحرومة وعلى عفونة الجو السياسي في لبنان) واحيانا كاللاعب الذي ينزل الى الساحة اسلحة اقوى بكثير مما يحتمل الخصم او تستلزم المعركة (من مثل هجماته على الكثير من هزيل الشعر) .

وانني اراه في محاولاته تلك ما كان يبتغي الا تشغيل فضلة الطاقة التي يختزنها في عقله ويديه ، وتحويل فائض القوة الروحية والجسدية التي وهبته اياها الطبيعة دون تقتير ، تماما كما تفعل الوعول عندما تنطح الصخور او الاشجار لتشغيل قوة النماء الطاغية التي تندفع في ذرى قرونها .

وهو حين كان يحدثنا عن جده ، يوحنا عبود ، وهو معلمه الاول ، كان يصف لنا عنفه وشدته في مؤاخذة الناس على اهمالهم شؤون دينهم وخاصة على ميوعتهم . فيروى عنه قوله :

« كان رحمه الله يقول : قال الله لعبده : كن حارا او باردا ولا تكن فاترا » ثم يضيف . « وكذلك كان هو حارا وخاصة حين كان يضربنا بعكازه اذا قصرنا في واجباتنا الدينية » .

كانت هذه الحرارة ، وهي عنوان الفحولة الفكرية

(١) انظر مقالاته المتتابعة حول « اهمال تكريم الشدياق »

(٢) قصتنا « الارملة مارينا » « وبابا نويل » في احاديث القرية

(٣) « على المحك » (٤) «مجددون ومجترون» و « الرؤوس » و « دمقس وارجوان » (٥) « صقر لبنان » و « الامير الاحمر » (٦) « من الجراب »

والجسدية ، في رأس الخصائص التي تميز مارون عبود .
وظاهر من كتاباته العديدة ومن احاديثه لنا ايام كنا ندرس عليه ان هذه الخاصة قد تحدرت اليه بالوراثة الطبيعية من جده يوحنا عبود ووالدته ومن والده وعمه اجناديوس الذين عرفنا فيهم ملامح الشدة في الذود عن المبادىء الخلقيه والدينية التي كانوا يتمسكون بها او في مقاومه من يتنكب عنها دون هواده .

ولكن لعل هذه الخاصة قد نمت في نفسه اولا بفعل دراسته وتربيته على يدي جده في مطلع تفتح ذهنه ثم بتاثير قراءاته خلال دراسته ومن بعدها . ثم ترددو فعل لما شهد من احداث ومظالم ومساوىء خلال تجربته الطويلة .
لقد وجد الحوافز في نفسه لمصارعه القوى السوداء المختلفة من خلال هذه القراءات وهذا الاتصال المستمر بصور التمرد على الظلم والنضال ضد الطغيان والتعسف والفساد التي كان يراها مرسومة في حياة الكتاب والاشخاص الذين جعل منهم ابطاله المفضلين من لامنيه وفولتير الى احمد فارس الشدياق ، ومن المطران يوسف اسطفان بطل غامية لحفد ، الى فرح انطون وجبران خليل جبران وامين الريحاني .
وبوسعنا ان نتتبع مراحل التدرج الفكري التي مر بها مارون عبود ، ومصادر الاثارة لكثير من الافكار الرئيسيه التي كانت تسيطر على كتاباته لو اعدنا الترتيب لاجزاء هده الكتابات على اساس جديد ولو ربطنا بينها ربطا نفسيا جديدا لا يستند الى التسلسل الزمني لصدورها .
فلنقرأ في « صقر لبنان » الصفحات الملتهبة التي كتبها في وصف نضال اللبنانيين في سبيل الاحتفاظ بحريتهم ضد الغزاة الفاتحين وفي سبيل التخلص من عهد الافطاع « ابشع وصمة في جبهة تاريخ الانسانية » والتي نورد منها هذا المقطع :

« كانت الحرية ، في كل طور من اطوار الزمن ، غرض الجبلي ومثله الاعلى وكان الحكم اقطاعيا يقطع الكلى ويتقطع الاكباد . اما الرعية فصبرت على هذا وذاك تعض على جرحها وتفعل متى اجيعت بقول الشنفري :

واطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطة ماري تغار وتفتل

«صبر الشعب على الامه المريرة وجرحات نفسه الدامية»
« كانت الرعية في هذه النكبات جميعها تتمرد وتتوجع ولكنها لا تقنط ولا تستسلم ، لم يخل الوطن ، في اشد ظلمات تاريخه كثافة من متمردين ينغصون على المستبدين احلامهم بالسيادة الغاشمة ، ويقضون عليهم مضاجعهم الوثيرة ثم تختلف ذئاب الحكم وضباعه ، فيستريح الشعب هنيهة ويستعيد قواه ، مؤمنا بان كل حال يزول، وبان في السماء ربا طويل الروح شديد العقاب .
وقد طفح كيل هذا التعذيب في هذا الطور الذي نحاول تصويره الان للقاريء العزيز . لا اعني غير عصر الشهابين الجبارين الامير يوسف وابن اخيه الامير بشير الكبير ، لان « صقر لبنان » (اي احمد الشدياق) وجد في هذا العصر»

ثم لنذهب الى اقاصيصه وابحاثه التي وصف فيها قريته عين كفاع وما يحيط بها او يؤدي اليها من جرود جبيل . ولندع جانبا كل الحلاوات التي تكمن فيها وكل

ـ البقية على الصفحة ٦٥ ـ

الطريق

الى ثوار المغرب العربي

بين أخاديدِ الجباه التي
رقدتُ فيها مَيتاً ألف جيل
في النظرات السمرِ عطشي الى
أن تفجُر اليَنبوعَ .. في المستحيلْ
في الكلمات احترقتْ مرةً
على شفاه البُؤس ..
صرعَى غليل .
واشتعلت حمراءْ
تزدردُ الشقاء ..
تصنعه إرادةً كالقدر
شعباً تمطى من ظلام الحُفر
يقول للطغاة :
أناه.. أنا الحياة
من ألفِ فجرٍ .. في القبور اشتعلْ
من الزنود السمر .. بنتِ الأزَل ..
عرفتُ دربي ..
لا تقل : ما العَمل ؟ [1]

✶ ✶

أتعصرُ الغيبَ .. سؤالاً يرودْ ؟
يمزق الصمتَ .. يدقُ القيود
يُلقي علينا عبئه : ما الطريق ؟
مَن نحنُ ؟
والأفقُ ظلام صفيقْ
يلفنا .. ينذرنا بالفناء :
للموتِ .. أحلام الجياعِ الظماء
للموتِ .. هذي « الكُتَل » الباليه
تجرح عينَ الشُرفِ العاليه
من نحن ؟
هل تجهلنا يا سَحَرْ
نحن لُهاثُ الأرض .
نحن القدر ..
اكواخُنا .. عيون
ينتحر السكون
فيها على دمدمةٍ .. كالأجَل :
ألشعبُ باقٍ ..
لا تقل : ما العملْ

✶ ✶

طريقُنا هذي الجباهُ الصلابْ
تسمَّرت فيها قرونُ العذاب
يُلقى اليها بالفُتاتِ .. الفُتاتْ
من شرفةٍ في القصرِ ..
باسم الحياةْ
من شرفةٍ بيضاءَ تشكو الأرق
اذا أنينٌ في الصدور احترق
ويصمتُ الأنين
ألجائعُ الطعين
ويهدر الصمتُ .. بأذن الدهور :
للكوخ إرثُ الأرضِ .. لا للقصور .

✶ ✶

طريقُنا .
آمنت ان الطريق
وَعرٌ .. وأنّا حطبٌ في حريق
من نارنا ..
من حشرجاتِ الرماد
من شهقاتِ اليأسِ .. يُوري الزناد
يشدّنا فوق صخور الجهاد ..
من جائع ثارَ .. وعارٍ أراد
من الدماء .. اتصلت في عناد
ستكتبُ التاريخ
هذي البلاد ..

✶ ✶

هذي الملايين .. عبيدُ العصور
في قريتي منها .. بقايا قبور
رافقتها طفلاً .
أجرُّ العذاب
قصائداً .. أُحرق فيها الضباب
قصيدتي الكبرى .. غضون الألم
في وجه فلاحٍ .. سقاني النغمْ

[1] جواباً على سؤال أحد مناضلي المغرب للجماهير المحتشدة في مؤتمر القوى الشعبية في الدار البيضاء ، وفيه ألقيت هذه القصيدة .

وعاملٍ كلمّني بالجراح
وأطعمَ القيثارَ جمرَ الكفاح
وقال لي :
نحن رفاقُ السلاح .

★ ★

ستائر «المنصور» [1] .. لم تحجبِ
عني ملايينك .. يا مغربي
غنيتهم جرحي، بأقصى الشمال
في الشام .. في بغداد ..
جرحَ النضال ..
عشيرتي الثكلى .. وآهاتي
تعيش إعصاراً .. بأبياتي
في الريف .. في البيضاء .. في كل واد
ألبسة الحرمانُ ظلّ الحداد ..
ستائرُ « المنصور »
لم تحجب القبور
تلفظ من فيها .. حشوداً حشود
هازمةً كالرعد
دوسوا القيود .
ويهدر السيلُ .. وتهوي السدود .
آمنتُ بالشعبِ ..
طريقِ الخلودْ .

★ ★

آمنتُ أنَّ الموجةَ الهادره
في الأعينِ المرهقةِ الحائره
في أرضنا السمراءِ ..
أرضِ العرب .
تصافح البيضاءُ فيها حلب
في الموكب الطعين
يختصر السنين
يقول للأجيال :
طريقنا نضال ..
إن يحترق جيلٌ قذفنا بجيل
في لهب الثورة .. في المستحيل

(١) الفندق الفخم الذي أضيف فيه الشاعر .

حتى يدقّ الفجرُ بابَ الجياع
مجلجلاً :
ماتت عصورُ الضَّياع ..
ماتت .. على أقدامنا الثائره
لأهلها .. تربيتنا الطاهره
لمنبتيها .. أرضنا الصابره
لمن يروُّون الثرى بالعرق
بالدمع .. في لفح الشقاء احترق
آمنت أن الموجةَ الهادره
في أرضنا العطشى ..
هي الظافره ..

★ ★

يا مغربي الجبار مُدَّ الجناح
إنّا على الموعد .. تحت السلاح
ألصقرُ في « اوراس » دامي الحدَق
يقول للتاريخ :
تحتي الفلق ..
في مخلبي القدر
وفرحة الظفر
وترفع الجزائر الشراع
وينحني الصراع
لمعجزات القبضة المارده
لدمنا ..
للصيحة الخالده ..
أوراس .. إنا أمة واحده

★ ★

تمزّقت حيناً فكانت رقاع
منثورة عَبْرَ الدجى والضياع
بلى .. تمزّقنا ، فكنا حُطام
بلى .. مضغنا نيرنا ألفَ عا
وهزّت القبور
حشرجةُ العصورْ
هيهاتِ .. يَثنينا اللظى والرصاص .
هيهات . هذي دربنا .. لا مناص
الوحدة الكبرى
طريقُ الخلاص .

ويرتمي صوتٌ ندي ، رقيق
على يدي ..
أشربه كالرحيق ..
ثائرةٌ سمراءُ
من بلد الفداء
تسأل عن موضعها .. في الزحام
في الموكب الماضي ..
يشق الظلام .
أُختاه ! في عينيكِ عاش النهارَ
بوحيردٍ في الأفق نورٌ ونار
يا ألفَ نجم
في الصباح الندي
قافلة النصر به تهتدي
يا زهوةَ الأمسِ ..
وعرسَ الغدِ
يا أُختُ .. هذي دربنا لا مناص
يا أُخت .. أهلاً باللظى والرصاص
الوحدةُ الكبرى
طريقُ الخلاص ..

★ ★

لو زوّروا الشمسَ ، وغالوا النجوم
وبرقعوا الليلَ .. ببيضِ الغيوم
لو سرقوا حنجرةَ الثائرين
ليتخموا الآفاق بالصائحين
لو موّهوا القيدَ بذوبِ السَّحرْ
وقدموه متعةً للنظر ..
لو صنعوا « الدُّمى »
لو سخّروا السما
والأرضَ .. لن تصمد تحت السماء
إلا ملايينُ العيونِ الظِماء ..
إلا أخاديدُ الجباه الصلاب
إلا الذين اتحدوا .. في العذاب .

سليمان العيسى

الدار البيضاء في ٢٧ أيار ١٩٦٢

« يقظة العرب » كتاب قديم جديد

بقلم عبد اللطيف شرارة

كان هذا الكتاب (*) الذي وضعه مؤلفه العربي ـ وهو مسن ديسر القمر ـ بالانكليزية ، باكورة الحديث عن القومية العربية في الاوساط الاوروبية ، وحتى في بعض الاقطار العربية نفسها ، ولذلك حظي من بعد بشهرة ونجاح لم يحظ بهما غيره من المؤلفات التي تناولت الموضوع نفسه ، واصبح « المرجع الفصل » فيه ، كما يصف الدكتور نبيه فارس في المقدمة التي كتبها لهذه الترجمة العربية ، وكان بالفعل كما ذكر في عنوانه « تاريخ حركة العرب القومية » الحديثة .

غير أن كلمة « الحديثة » أضفتها من عندي ، فالكتاب لا يعرض الا للحركة العربية ذات المحتوى القومي التي قامت في ابان القرن الماضي ـ وكانت رد فعل للقومية الطورانية التي نادى بها الاتراك ـ مع أن الحركات ذات المحتوى القومي رافقت التاريخ العربي من اقدم العصور الى اليوم، فوقعة ذي قار الشهيرة قامت ولها محتوى قومي ، والنزاع بين العرب والموالي في الدولة الاموية كان ذا صبغة قومية ، والحركات الشعوبية عهد العباسيين كانت رد فعل للسيادة العربية .

ومعنى ذلك كله أن « قصة الحركة القومية للعرب » لم تبدأ في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ كما قرر المؤلف في فصله التمهيدي ، ولو أضاف الى هذه الجملة كلمة « الحديثة » لما عدا الصواب . صحيح أن تلك الحركات لا تتسم بالطابع العصري المعروف للقومية ، ولكنها كانت منسجمة مع الروح ، مع الجو الفكري العام ، ان في الجاهلية ، وان في العصور التي توالت من بعدها . وجذور اليقظة العربية تمتد ـ فيما نحسب ـ الى أواخر القرن الاول قبل الميلاد ، يوم غزا الرومان الجزيرة العربية عن طريق مصر ، واخفقوا في حملتهم تلك ، كما أن اليقظة العربية الحديثة بدأت منذ غزا نابليون مصر .

بيد أن جورج أنطونيوس لم يكن حين ألف كتابه يتتبع الجذور ، ولا كان معنيا بالتحليل ، وانما صرف كل همه واهتمامه الى عرض الوقائع التاريخية وتعزيز هذاك العرض بالوثائق والمستندات ثم انه اقتصر حتى في سرده التاريخي على فترة من الزمن لا تتجاوز ثلاثة أرباع القرن ، اذ يقف عند سنة ١٩٣٦ ، وما كانت الدراسات القومية حتى ذلك الحين على ما هي عليه اليوم من سعة وعمق ، ولا كانت الحفريات والآثار التي كشفت لتلقي الضوء الذي ألقته من بعد على التاريخ العربي برمته .

واقتصر كذلك على الشطر الشرقي من دنيا العروبة أو الاسيوي ، وهما شطران لا ينفصلان تاريخيا وان صح التفريق بينهما جغرافيا في التسمية أو الواقع المكاني ، فان أفريقيا أخذت اسمها من أحد تبابعة اليمن في الاعصر القديمة ، وهو ، افريقس ، وقرطاجة (تونس) كانت حلقة في سلسلة المدن الفينيقية ، والحاميون امتزجوا بالساميين منذ أقدم العصور ، فالاقتصار على « التاريخ للفكرة العربية الحديثة في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب » يتنافى مع واقع القومية العربية وجذورها ولا يعطي صورة شاملة كاملة عن التيارات القومية التي أخذت تعصف بالعالم العربي منذ بدأ يحتك احتكاكا سياسيا وعسكريا بدول اوروبا القومية ، فقد رأينا الامير عبد القادر الجزائري ينتهي بعد اخفاق ثورته ، في دمشق ، ورأينا مصر منذ غزاها نابليون الى اليوم وهي تؤثر تأثيرا مباشرا في مصائر عرب المشرق وتتأثر بهم ، ناهيك عن تاريخها القديم الذي لم يكن في صلب الموضوع الذي قصد المؤلف الى بحثه .

ولكن الدكتور نبيه فارس الذي وضع مقدمة الترجمة العربية حاول أن يقوم بعرض تاريخي أيضا يتمم البحث في اليقظة العربية بادئا منذ عام ١٩٣٦ ، أي حيث انتهى أنطونيوس ، وواقفا عند الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وأضاف « وادي النيل » الى الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ، في درس الحركة العربية .

ولقد كانت بريطانيا الحريصة كل الحرص ، منذ أصبحت ذات مصالح في الشرق العربي ، على فصل أفريقيا العربية عن آسيا العربية ، ولا يبعد أن يكون المؤلف متأثرا بهذا الاتجاه في الفصل بين شطري العالم العربي ، اذ نجده في كثير من المواقف يدفع بعض التهم عن بريطانيا : « وكثيرا ما تتهم بريطانيا في الدوائر العربية بأنها بعد أن استغلت العرب لتحقيق غايتها تحولت عامدة ضدهم حين حققت النصر . غير أن هذه التهمة في حاجة الى جلاء . لقد كان في صفوف الحكومة وفي خارجها رجال أحسوا أن عليهم دينا ، وكانوا يتشوقون الى أن يروه مقضيا بشرف » (ص ٤٢٤) . ويقول في مقام آخر ، دفاعا عن لويد جورج : « ويدل موقف المستر لويد جورج في ذلك الاجتماع (السري الذي عقده الاربعة الكبار في آذار عام ١٩١٩) على أن الحكومة البريطانية كانت تعترف بعدالة حق العرب في الإستقلال في سوريا وأنها منحته تأييدها الكامل في مؤتمر الصلح ، وهذا يبعد التهمة التي تقول : ان بريطانيا العظمى لم تبذل جهدا لتنجز وعودها للعرب ، خارج الجزيرة العربية » (ص ٤٢٧) .

هذه المواقف التي يقفها المؤلف عند سرد الوقائع وذكر الوثائق ، تلقي النور على تأثره أو أخذه ـ الى حد ـ بوجهات النظر البريطانية في فهم التاريخ العربي الحديث ، وأعني هذه الوجهات التي يبثها أنصار بريطانيا ودعاتها في الشرق العربي ، تضليلا للرأي العام فيه ، لا التي يعرفها المسؤولون البريطانيون وغيرهم ممن اشتركوا في توجيه الحوادث ، وكانوا على علاقة وثيقة بمجراها . فأيا كان الجلاء الذي يقدمه أنطونيوس للتهمة القائلة بأن بريطانيا خدعت العرب ، وتحولت ضدهم بعد أن ربحت الحرب ، تظل سيرة بريطانيا أجلى من كل بيان ، فهي لا تهتم الا بما لها من مصالح في هذه البلاد العربية ، واذا تحققت هذه المصالح عن طريق معاداة العرب سلكت ذلك الطريق وتحالفت مع أعدائهم . وهذا هو شأنها بالامس واليوم وهو ما سيكون شأنها غدا .

وأما دفاع أنطونيوس عن لويد جورج فينفيه موقف الملك حسين منه ونقمته عليه التي أوضحها أنطونيوس نفسه في الكتاب ، وأشار اليها بالتفصيل عند الحديث عن نهاية ملك الحجاز في عمان . وقد كشف النائب العمالي اليهودي ر.هـ.س. كروسمان المعروف موقف لويد جورج في محاضرة القاها في مستعمرة « رحبوت » عام ١٩٦٠ حول زعيم الصهيونية ويزمن في ذلك الوقت ، ونشرتها مجلة « انكاونتر » في

(*) « يقظة العرب » تأليف جورج انطونيوس ، ترجمة الدكتورين ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ٦٥٣ ص ـ نشر دار العلم للملايين بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ـ بيروت ١٩٦٢ .

عددها رقم ٨١ عن حزيران . قال فيها : « ما هي الدوافع التي حملت الحكومة البريطانية على اصدار وعد بلفور ؟ » ثم يعرض مختلف الشروح والتفسيرات ، ويذكر في جملة ما يذكر أن ويزمن نفسه قرر أن لويد جورج كان « المحرك الاول » على ذلك الوعد ، وأنه انما أصدره مكافأة منه لويزمن على الخدمات التي أداها لمجهود بريطانيا في الحرب ، وينهي كروسمان عرضه بهذه العبارة : « لقد انتهيت الى الاستنتاج ان أوضح تفسير - كما هو الشأن غالبا في السياسة - هو أقرب ما يكون الى الحقيقة . ولاسباب تتباين بعض الشيء شعر كل من بلفور ولويد جورج وملنر انهم ملزمون بعمل شيء « تجاه اليهود المضطهدين ... » . وأيا كان التفسير فان لويد جورج يتحمل في جميع الاحوال ، تبعة كبرى ، ان لم تكن أكبر التبعات في تأييد الحركة الصهيونية وايصالها الى أهدافها الاجرامية . ونجد أنطونيوس مع ذلك يقول ما قاله في بشأن لويد جورج وموقف الحكومة البريطانية !

ويقع أنطونيوس في الخطأ نفسه - أي الاخذ بوجهة النظر البريطانية - حتى عند تفسير بعض الاحداث التاريخية ، فهو يقرر مثلا أن انتشار العنصر العربي انحصر في مجال أضيق من المجال الذي انتشرت به اللغة العربية « فمن بين البلاد المتاخمة لحدود شبه الجزيرة العربية استوعب القسمان المعروفان اليوم باسم فلسطين وشرق الاردن أكبر نسبة من العنصر العربي ، وكان حظ بلاد الشام والعراق دون ذلك ، وحظ مصر أقل منهما » .

ان من يقرأ هذا الكلام يحسب أن عروبة هذه البلاد موضع شك من الناحية العنصرية ، وأن تعريبها حادث طاريء عليها ، وأنه طرأ بعد انتشار الحركة الاسلامية ، وواقع الامر أن الشام والعراق وفلسطين وشرق الاردن كانت عربية قبل الاسلام ، والموجات التي توالت عليها من الجزيرة العربية تضرب في أبعاد الماضي السحيق ، وكذلك هو الشأن في مصر وسائر شمال أفريقيا ، وانحسار اللغة العربية عن الاندلس وصقلية كانحسار العنصر العربي عنهما ، نتيجة عدم وجود جذور لهما في ذينك البلدين ، ولكن صمود العروبة في شمال أفريقيا ، رغم كل ما لقيت من عوامل الابادة والضغط ، يؤيد اصالة العنصر العربي فيها ، وعمق جذوره في تربتها . ولم يكن الاسلام سوى عامل « مساعد » على ترسيخ الجذور التي سبقته في الوجود ، ولدينا في التاريخ الراهن ظاهرة واضحة الدلالة ، وهو أن مصر لم تظهر بوجهها العربي الاصيل - والحقيقي من جهة ثانية - الا بعد أن تحررت من القيود الاجنبية ، وخلصت من حكم الاجانب لها ، والانسان كالشعب لا يظهر على حقيقته الا بعد أن يصبح حرا . وما يقال في مصر ، يقال في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان ... ولم يكن من مصلحة الحكم الاجنبي - عهد وضع أنطونيوس كتابه - الا أن يخلق مثل ذلك الجو الفكري الذي يستهدف ايجاد التفرقة بين شتى الاقطار العربية ويشكك أبناءها في أصولهم واتجاهاتهم القومية .

على أن هذا التشكيك ، وتلك التفرقة أخذا سبيلهما الى هذه البلاد ، الى العالم العربي برمته ، منذ أخذت البعثات التبشيرية تفد عليه ، اذ كان هم هذه البعثات - ولا يزال - منحصرا في تأييد اتجاهات سياسية معينة ، ولكن من خلال المواعظ الدينية والتبشير بمبادىء ومذاهب معينة ، وهذا ما أوضحه المؤرخ الهندي بانيكار في كتابه «آسيا والسيطرة الغربية » كما جلاه الدكتوران : مصطفى خالدي وعمر فروخ في سفرهما المعروف : « التبشير والاستعمار » . واذا أنت رجعت اليوم الى الدراسات التاريخية والادبية والفكرية التي وضعها بعض أقطاب التبشير مثل الاب لامنس ولويس شيخو ، رأيت فيها توجيها سياسيا - لا دينيا - معينا ، وأدركت أن الاهداف لم تكن تقتصر على نشر المبادىء الدينية خالصة لوجه الايمان والعقيدة . ومع ذلك نجد جورج أنطونيوس يقرر في كتابه هذا أن تسامح ابراهيم باشا « فتح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك أتاح مجال العمل لقوتين : احداهما فرنسية والاخرى امريكية ، قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعياه » .

صحيح أن البعثات التبشيرية أسهمت الى حد بعيد في نشر الثقافة الحديثة ، وفتحت الاذهان في هذه البلاد على العصر وما يدور فيه من شؤون الفكر والعلم والادب ، وأيقظت كثيرا من الهمم في نبش كنوز الماضي وكشف ما تخبأ منها أو دفن ، ولكن القول بأنها « حضنت البعث العربي ورعته » ينطوي على كثير من الغلو في تقدير أثرها أو نياتها . ودليلنا على « الغلو » في هذا التقدير ما أفضى اليه التبشير في فلسطين ، والمواقف الاخيرة التي وقفتها البلاد الغربية التي تصدر المبشرين ، من قضايا التحرر في البلاد العربية . واذا جاز لنا أن نفصل بين المواقف السياسية والبعثات التبشيرية ، كما يريدنا المبشرون أنفسهم على أن نفعل ، فان من المؤكد الذي لا يرقى اليه ريب ، أن هذه البعثات كانت تلاقي في مستهل قدومها الى الاقطار العربية ، كل عون وتأييد من ساسة بلادها . وهذا وحده كاف لان يبين مدى ما في كلام أنطونيوس من غلو - وهو يعرض أحداث الماضي - عن « رعاية » البعث العربي من قبل البعثات التبشيرية !

ذلك هو المأخذ الاساسي العام الذي يصح أن نأخذه على انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » . وهو مأخذ - أي التأثر بوجهات النظر البريطانية في فهم الاحداث وعرض التاريخ - ينبث في الكتاب على نحو خفي ، ولا يسطع سطوعا ، ولكنه يتضح لمن يتتبعه ويؤكد نفسه في معظم الخطوط الكبرى للكتاب ، وان ظهر في بعض التفاصيل ما يناقضه (الحديث عن فلسطين في خاتمة الكتاب)

غير أن الكتاب يظل مع ذلك ، يتمتع بقيمة نادرة في موضوعه ، ولا سيما من الناحية التاريخية فقد عني المؤلف بجمع الوثائق ، واتصل بعدد من الشخصيات الذين أسهموا في الاحداث خلال فترة ما بين الحربين ، وسرد من الوقائع ما لا يجده الباحث في غيره من كتب التاريخ المتداولة .

وكان أفضل ما أعجبني فيه حسن تبويبه ، فالكتاب يحوي ستة عشر فصلا تتسلسل فيما بينها وتترابط على نحو يكاد يكون روائيا ،

وهذه لائحة بها : ١ ـ تمهيد : الموقع الجغرافي ، وتحديد العالم العربي . ٢ ـ حركة محمد علي في مصر وأحداث الجزيرة العربية (الوهابية) ٣ ـ التبشير في البلاد العربية والنهضة الثقافية . ٤ ـ الاستبداد الحميدي . ٥ ـ الحركة العربية الوليدة : ١٨٦٨ ـ ١٩٠٨ . ٦ ـ الشبان العرب والشبان الاتراك . ٧ ـ الحرب والجهاد ١٩١٤ . ٨ ـ الخطة : ١٩١٥ . ٩ ـ عهد بريطانيا العظمى : ١٩١٥ . ١٠ ـ الثورة ١٩١٦ . ١١ ـ نتائج فورية (للثورة) . ١٢ ـ العرب في الحرب . ١٣ ـ عهود ونقيضاتها . ١٤ ـ تسويات تمت بعد الحرب . ١٥ ـ الجزيرة العربية بعد الحرب . ١٦ ـ العراق وسوريا وفلسطين بعد الحرب .

ويحتوي الكتاب أيضا ثمانية ملاحق على جانب كبير من الاهمية ، لكل من يريد اعادة النظر في تاريخ العرب قبل الحرب الاولى بقليل وبعدها ، من مراسلات مكماهون الى اتفاق سايكس ـ بيكو ، الى اتفاقية فيصل ـ ويزمن ، الى توصيات لجنة كنغ ـ كراين ، الى غيرها ... وكلها وثائق يمكن من خلالها تحديد التبعات ، والقاء ضوء على ما جرى من بعدها .

ويبدو لي أن الحركة الصهيونية وما ساندها من حركات استعمارية في ثلاثينيات هذا القرن وأربعينياته ، استطاعت أن تفيد من هذا الكتاب ـ وهو الذي وضع بالانكليزية ـ في توجيه سيرها نحو أهدافها ، ووضع خططها المقبلة انطلاقا من بعض النقاط التي عرضها المؤلف في الفصل الاخير . فهو يدافع عن ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، بهذه العبارات :

« لا يرجى لقضية فلسطين حل دائم الا حتى يزال الظلم . أما العنف سواء كان ماديا أو معنويا فانه لا يكفل حلا . وهو في ذاته يستثير اللوم ، كما يجعل التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود أصعب تحققا على مر الايام . نعم ان العرب حين لجأوا اليه قد لفتوا الى مظالمهم انتباها جديا ، وهذا أمر عجزت عن أن تحققه لهم جهودهم السلمية في القدس ولندن وجنيف على مدى عشرين عاما . الا ان العنف يعدو طوره، ويحطم غاياته نفسها ، والضرر الذي لا ينفك عنه ، ينقص من قيمة الارباح العاجلة التي يكسبها ، ولن يتولد الا الضرر عن الارهاب الذي يكتسح اليوم فلسطين الا أن الطريق السديد لانهائه هو ازالة الاسباب التي أوجدته . تلك حقيقة لا بد من مواجهتها وهي أن عنف العرب نتيجة حتمية للعنف المعنوي الذي أخذوا به ، ولن يكف عنفهم ، مهما تتذرع الدولة بوحشية القمع والاذلال ، الا اذا كف العنف المعنوي نفسه ! »

هذا الكلام يبدو لنا اليوم أفلاطونيا بعد أن جرى ما جرى في فلسطين ، او ان فيه تأثرا : بالجو الفكري الذي حمله غاندي الى فضاء ذلك الجيل ، وأشبع به آفاق السياسة الدولية ، وقد استطاعت مكيافيلية الصهاينة والاستعماريين أن تستغل يومذاك جميع ما في العالم من أفكار لبلوغ مآربها ...

ولكن الظاهر من كلام أنطونيوس أنه كان يواجه أحداث جيله بروح خاصة ، هي الى التسامي الفكري أقرب ، فهو يتحدث ، وفي قضايا سياسية على جانب كبير من الخطورة ، كمن ينصح او يعظ ، من « استثارة اللوم » الى « التفاهم » بين العرب والبريطانيين واليهود، الى « ضرر العنف » .

وهذه المحاولة في التسامي تمنع المؤلف ـ فيما أرى ـ من التقاط الدوافع والحوافز الكامنة وراء التيارات السياسية ، ولاسيما في الحقبة التي أرخها .

المهم أنك تجد في هذا الكتاب ما لا تجده في غيره من الكتب التي تناولت التاريخ السياسي في الشرق العربي ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

وأراني في غنى عن الاشادة ببيان الدكتورين : الاسد وعباس ـ وهما اللذان ترجما الكتاب ـ فهما من المجلين في هذه الحلبة ، ولهما فيها اكثر من سبق ، كما أن لهما فضلا في اغناء المكتبة العربية بما سبق أن ألفا وترجما وحققا من كتب ...

عبد اللطيف شراره

مذكرات الصوفي بشر الحافي

« يروى ان أبا نصر ، بشر الحافي ، كان قد طلب الحديث ، وسمع سماعا كثيرا . ونزل السوق يوما ، ففوجىء بما أزعج نفسه ، فخلع نعليه ، ووضعهما تحت ابطيه ، وانطلق في هجير الشمس ، على مدى الصحراء الواسعة ، فلم يدركه احد ، ولم يسمع عنه نبأ ، من ذلك اليوم ، وكان ذلك في سنة سبع وعشرين ومائتين ..

وهذه صفحة من مذكراته »

— ١ —

حين فقدنـــا الرضا
بمـــا يريـــد القضا
لـــم تنزل الامطـــار
لـــم تورق الاشجار
لـــم تلمع الاثمـــار
حين فقدنـــا الرضا

حين فقدنا الضحكا
تفجـرت عيوننا بكا
حين فقدنا هـدأة الجنب
على فراش الرضا الرحب
نـــام علـــى الوسائـــد
شيطان بغض راقـــد
معانقي ، شريك مضجعي ، كأنمـــا
قرونه عـــلى يـــدي

حين فقدنا جوهر اليقين
تشوهت أجنة الحبالى في البطون
الشعر ينمو في مغاور العيون
والذقن معقود على الجبين
جيل من الشياطين !
جيل من الشياطين

— ٢ —

احرص ألا تسمـــع
احرص ألا تنظـــر
احرص ألا تلمس
احرص ألا تتكلـــم

قــف !
وتعلــق في حبل الصمت المبرم
ينبوع القول عميق
لكن الكف صغيره
من بين الوسطى والسبابة والابهام
يتسرب في الرمل كــلام ...

— ٣ —

ولانك لاتدري معنى الالفاظ فانت تناجزني بالالفاظ
اللفظ حجر
فاذا ركبت كلاما فوق كــلام
اللفظ منيه
فاذا ركبت كلاما فوق كلام
من بينهما استولدت كــلام
غدت الدنيا مولودا بشعا
وتمنيت المــوت
أرجوك ... الصمت ... الصمت

— ٤ —

تظل حقيقة في القلب توجعه وتضنيه
ولو جفت بحار القول لــم يبحر بها خاطر
ولم ينشر قــلاع الظن فوق مياهها مــلاح
وذلك ان مانلقاه لانبغيه
وما نبغيه لانلقاه
وهل يرضيك ان ادعوك ياضيفي لمائدتي
فلا تلقى يسوى جيفه
تعالى الله ، انت وهبتنا هذا العذاب وهذه الآلام
تعالى الله ، هذا الكون موبوء ، ولا برء
لانك حينما أبصرتنا لم نحل في عينيك
ولو ينصفنا الرحمن عجل نحونا بالموت
تعالى الله ، هذا الكون لايصلحه شيء
فأين الموت .. أين الموت .. أين الموت ؟

— ٥ —

شيخي بسام الدين يقول :
« يابشر اصبر
دنيانا أجمل مما تذكر
بل انت ترى الدنيا من قمة وجدك
لا تبصر الا الانقاض السوداء »
ونزلنا نحو السوق انا والشيخ
كان الانسان الافعى يجهد ان يلتف على الانسان الكركي
فمشى من بينهما الانسان الثعلب
عجبا ، زور الانسان الكركي في فك الانسان الثعلب
نزل السوق الانسان الكلب
كي يفقأ عين الانسان الثعلب
ويدوس دماغ الانسان الافعى
واهتز السوق بخطوات الانسان الفهد
قد جاء ليبقر بطن الانسان الكلب
ويمص نخاع الانسان الثعلب
ياشيخي بسام الدين ...
قل لي ... أين الانسان الانسان ؟
شيخي بسام الدين يقول :
اصبر سيجيء
سيهل على الدنيا يوما ركبه .
يا شيخي الطيب
هل تدري في أي الايام نعيش ؟
هذا اليوم الموبوء هــو اليوم الثامن
مــن أيام الاسبوع الخامس
في الشهر الثالث عشر
الانسان الانسان عبر
مــن أعــوام
ومضى لم يعرفه بشر
حفر الحصباء ونــام
وتغطى بالآلام ...

القاهـرة

صلاح عبد الصبور



ابك يا بلدي الحبيب!

بقلم محمد حيدر

سمعنا بالكتاب (*) قبل ان يظهر ، فقد سبقته ضجة ورافقته. وقيل انه في طليعة الروايات العالمية ، كما تحدث عنه كتاب كثيرون .

قال عنه الفيلسوف الوجودي غابرييل مارسيل : « ان طابع السمو في هذه القصة يرجع الى نقاوتها وبساطة الحوار المطلقة فيها ، مما يمنحني الجرأة على ان ادعوه كتابا نموذجيا لا يراعي فيه كاتبه شيئا على الاطلاق . »

وقال عنه اندريه سيففريد : « ان افريقيا الجنوبية تشهد مشكلة عنصرية عنيفة لا نعرف عنها الا القليل . وان هذه الرواية تحمل لنا عن هذه المشكلة شهادة مثيرة . وانا لم اقترب قط من هذه المشكلة الا واعتراني شعور باني اطل على هاوية . ولا بد ان يداخل هذا الشعور بصورة مؤلمة كل قارىء لهذه الرواية التي تتميز ببساطة وعظمة كبيرتين».

ولكنني، رغم هذه المغريات، لم يجذبني الكتاب اليه، ولم يثر شوقي لقراءته . ذلك انني ، دون التواء ، قليل الثقة بالادب الذي يأخذ على نفسه معالجة قضايا اجتماعية معينة . ذلك الادب الذي دعي يوما بالهادف او الملتزم . كما انني ، بالوقت نفسه ، ضعيف الحماسة له والاستمتاع به . فأنا شديد الايثار لادب يتناول النفس الانسانية والسلوك الانساني .. لادب يتناول الفرد لا المجتمع . ولا استثني من هذا الا القليل . لذلك ما كان لي ان اقرأ الكتاب ، لولا ان صديقنا مطاع الصفدي (وانا اثق بفهمه واحترم رأيه) سألني بعد ظهور الكتاب باسابيع : ما رأيك في « ابك يا بلدي الحبيب » ؟ وكم كانت دهشته عظيمة عندما اجبته : لم اقرأه ، ولا احب قراءة كتب كهذه .

وطبعا ، فطنت الى جانب التسرع في الحكم . لذلك سارعت للكتاب فقرأته . وقد تبين لي الان ، لا التسرع فحسب ، بل فداحة الخطأ الذي وقعت فيه . فقداستمتعت بالكتاب الى حد بعيد ، وهزني بشكل عنيف انه ، بحق ، في طليعة روايات هذا العصر .

•••

والمشكلة التي يتناولها الكتاب ، مشكلة القارة السوداء كما تسمى اليوم . هذا البلد العريق الذي استيقظ اليوم مؤذنا ببزوغ حضارة جديدة على العالم . انه يتناول بالضبط : التمييز العنصري الذي يسود اتحاد افريقيا الجنوبية ، حيث يتحكم مليونان ونصف من الدخلاء البيض في مقدرات ثمانية ملايين من السود اصحاب البلاد منذ الاف السنين . وهكذا فالمصيبة مزدوجة في القارة السوداء : حل فيها الاستعمار ، فنهب واغتصب وقتل .. ليتخم على حساب شقاء الاسود! وكأن المصيبة لا تكفي ، حتى تبتلى القارة بالتمييز العنصري ، وهو في رأينا اشد فجورا من الاستعمار نفسه ، بل لطخة عار في تقدم حضارة هذا القرن ، ان كان لها ان توصف بالتقدم في مجالها الانساني.

ولكن تأمل الحضارة يؤكد لنا هذا التقدم : وعلى سبيل المثال - ان قتل العبد في الحضارة اليونانية ، لم يكن جريمة اذ كان القاتل من اليونان . ولكن الانسانية ، وبفضل الاديان والمصلحين والفلاسفة ، تخلت ، وبالتدريج ، عن هذه النظرة ، لتحل مكانها فكرة الكرامة الانسانية ، فالبشر كما يقول الفيلسوف الالماني كانت : متساوون في الجوهر الانساني ، بغض النظر عن سائر الفروق ، كاللون او المواهب والصفات ، وهكذا اصبح القتل جريمة ، على اي انسان كان .

ثم ، والى عهد قريب ، كانت الصلات الانسانية واهية بين الشعوب ، ولكننا نلاحظ اليوم ، ان الظلم الذي يقع على شعب ما .. وفي اية بقعة من الارض، تهب لدفعه سائر الشعوب . والجزائر والكونغو وبور سعيد ، اقرب مثال . ان هذا يدل ايضا بوضوح ، على التضامن الانساني - وعلى انه هدف الانسانية اليوم ، نشدان الحرية والسعادة للبشرية جمعاء . وهو هدف قائم في الطبيعة الانسانية منذ وجود الانسان ، ولكنه يطرح في هذا العصر بعمق ، وترسخ دعائمه باستمرار .

وعودا على حديثنا السابق : ان التمييز العنصري الذي يسود جنوبي افريقيا اليوم ، يعود بنا الى العصور السابقة ، حاذفين كل المكتسبات المتعلقة بالكرامة الانسانية والحرية والاخلاق . والابيض الاوروبي ، بممارسته هذه التفرقة البشعة القائمة على اللون ، يعبر عن انحدار الاخلاقي ، وعن تراجع حضاري بعيد الشوط .

لقد وفد على افريقيا الجنوبية ، خليط من المهاجرين الاوروبيين، فاغتصبوا خيرات البلاد واستعبدوا السكان ، واقتطعوا لانفسهم مساحات واسعة خصبة من الارض ، ووضعوا ايديهم على منابع الثروة الرئيسية كالذهب والمعادن والماس ، وهكذا حوصر الاسود في بقاع محدودة من الارض الجرداء ، وسدت امامه منافذ العيش . هذا بالاضافة الى الانظمة التي اخذت اسم « القانون » ، وطبقا لها غدا الابيض الاوروبي المالك الحقيقي لكل شيء ، بينما يعامل الاسود كالكلاب !! ونتيجة لهذا الوضع، تدفق سيل هائل من السود الى المدن ، للعمل في المصانع والمناجم ، متخلين بذلك عن نظامهم القبلي، وما يفرضه من تقاليد وعادات ، ومكتسبين بالوقت ذاته عادات جديدة وافكارا جديدة ، بتأثير التماس الدائم بالحضارة الصناعية والعقل الاوربي والدين المسيحي.

هذا الوضع الهجين ، المزعزع بالنسبة للاسود ، الى جانب قلة الاجور وسوء المعاملة والبطالة ، دفع الكثير من السود الى السلب والسرقة والاغتصاب والدعارة والاجرام . وهكذا وقع الطرفان ، الابيض والاسود ، بين فكي الفخ : الابيض القليل العدد في القارة السوداء ، وقد ركبه الخوف . والاسود البائس ، الذي اقتلع من جذوره ودفع به الى عالم جديد لا يريد منه سوى كده وعرق جبينه.

ذلك هو المناخ الانساني الذي يخيم على جنوبي افريقيا ، وهو المناخ الذي اخذ المؤلف على نفسه مهمة التعبير عنه ، كما جاء في مقدمة الكتاب . وكأساس لذلك ، اعتمد المؤلف ، وهو افريقي اسود ، حياة اسرة من السود ، هي اسرة ستيفن كومالو ، متتبعا مصيرها بانارة واضحة ، مع انارة جانبية لحياة اشخاص اخرين من البيض والسود ، بحيث يقدم لنا صورة شاملة عن المأساة .

ستيفن كومالو ، الراعي الديني لابرشية القديس مرقص في « ندوتشيني » اسود من قبائل الزولو

اخوه جون ، ذهب الى جوهانسبرغ ولم يعد. اخته جرترود، ذهبت الى جوهانسبرغ للبحث عن زوجها الذي سافر للعمل في المناجم ، فلم يعد الزوج ، ولم تعد الاخت . ابنه ابشالوم ذهب ايضا الى جوهانسبرغ ولم يعد ، تلك هي الاسرة ، وقد امتصت معظم افرادها

(*) « ابك يا بلدي الحبيب » تأليف الان بيتون ، ترجمة خليل الخوري ، منشورات دار الاداب - بيروت

مدينة جوهانسبرغ ، كآلاف الاسر من القبائل السود ، ولم يبق منها في ندوتشيني سوى الراعي كومالو وزوجه .

وتبدأ الحوادث برسالة تصل الى الراعي من الاب تيوفيل مسيمنغي في جوهانسبرغ . وفيها ينبئه بانه تعرف على اخته جرترود ، وهي مريضة جدا ويطلب اليه الحضور ! ويقرر الراعي الذهاب الى جوهانسبرغ ، تاركا زوجه وحيدة في ندوتشيني . وعندما تبدأ الرحلة ، يسيطر الخوف على الراعي ، خوف الرجل الاسود من هذا العالم الجديد الذي يـراه لاول مرة ، خوف الانسان البسيط العفوي ، الذي يغادر بيته . «الخوف من المجهول ، الخوف من المدينة الكبيرة حيث ينسحق الاطفال وهـم يجتازون الشوارع ، الخوف من مرض جرترود ، والخوف الاكثر عمقا في نفسه ، الخوف على ابنه . الخوف المغروس عميقا في نفسه . خوف رجل يعيش في عالم لم يصنع له ، ويرى عالمه الخاص يهرب منه ، يموت يذهب بلا رجعة – ٢١ – »

وهكذا يقتلع الراعي الاسود من جذوره ، وتتحطم سكينة نفسه ، ليواجه ، هو الاخر ، مصير افراد العائلة الذين امتصتهم جوهانسبرغ. ولا يجد الراعي طمأنينة الا في الكتاب المقدس ، فراح يقرأ فيه : هنا العالم الوحيد الذي يجد فيه الانسان الطمأنينة .

وسنتتبع افراد الاسرة بدءا من جرترود :

وفي جوهانسبرغ يقابل الاب مسيمنغي ، فيسأله بقلق زائد عن اخته ، وعما اذا كانت شديدة المرض . ويخبره الاب بان مرضها يختلف عن امراض الاخرين ، بل هو اسوأ من بقية الامراض المعروفة : انها تسكن في كلارمون ، اشد احياء المدينة في الفجور . وقد قتل في بيتها رجل ، وفوق ذلك بلا زواج ، بل الاصح ان لها عديدا من الازواج. ويذهل الراعي كومالو لهذه الانباء ، فيردد : ايها الروح الفائق . ايها الروح الفائق ! وفي اليوم التالي يدله مسيمنغي على بيت اخته ، فيذهب اليها ، وهـو الكاهن ، في مكانها الموبوء ، حيث تتصاعد وتنتشر رائحة الخمـور ، وتتعالى قهقهات الرجال : نوع معين من الضحك ... الضحك الوقـح الذي يبعث الخوف في النفس . ولكنه يتقدم ويطرق الباب . وعنـدما تلاقت النظرات ، كانت فزعة ، وكان قلقا لاقصى حد . ومدت له يدها ، وكانت باردة وكأنها خلت من الحياة . ويسألها عن السبب في عـدم الكتابة ، وعن زوجها .. ثم يقول لها :

انك تسببين لنا العار ، تاجرة كحول . عاهرة ، لك طفل ولا تعرفين اين هو . انت اخت كاهن . كيف فعلت بنا كل هذا ؟

ولا تقدم لها اي تبرير سوى الحاجة للنقود من اجل الطفل ، ثم ارتمت على الارض واغرقت في النحيب . فرفعها عن الارض وقال : فليغفر لنا الله . وطلب منها ان تعود معه الى البيت ، فذلك افضل لها وللطفل. فتوافق ، وتخرج معه ويذهبان الى بيت السيدة ليتيبي حيث ينزل . وشعر الكاهن بقلبه يخفق من السرور ، وعندما رأى صديقه الاب مسيمنغي قال له : هوذا احد احمالي الثقيلة نزل عن ظهري يا اخي . وعسى أن يوفقني الله في الامور الاتية . ثم قال لنفسه : يوم واحد في جوهاسبرغ وها هي القبيلة قد بدأت تتجمع ، والبيت يبنى والروح تقوى .

هكذا ظن كومالو .. ولكن الامور لم تتضح بعد !!

اما اخوه جون ، فقد فتح مخزنا ، وهجر زوجته ليستبدلهـا بعشيقة ، وهجر الكنيسة ايضا ليشتغل بالسياسة . وله ابن اسمه « ماتيو » كان رفيقا لابن عمه ابشالوم .

بقي ابشالوم . وقد مارس مهنا كثيرة ، ولكنه لم يستقر في عمل. احترف السرقة والنهب ، ودخل الاصلاحية ثم خرج منها لتحسن في سلوكه ، ولان له عشيقة ، وهي حامل منه ، بعد ان وعد بالزواج منهـا . واشتغل بعد خروجه من الاصلاحية ، ولكنه ما لبث ان انحرف ، وانتهى به الامر الى ارتكاب جريمة قتل . فقد ذهب الى بيت مهندس من البيض اسمه « ارثورجارفس » ومعه ابن عمه ماتيو ، وشخص اخر اسمه بافيري ، بقصد السرقة ، وهم يحسبون ان البيت خال . ولكنهم فوجئوا بصاحب البيت ، فاطلق عليه ابشالوم الرصاص ، وحكم عليه بعد ذلك بالشنق .

ذلك هو مصير اسرة كومالو : اخوه هجر زوجته وطلق الدين . اخته عاهرة وتاجرة كحول . ابنه قاتل . وهو نفسه ، كاد ان يصبح جدا لابن زنا .

تعقيب عام

من الملاحظ ان المؤلف اختار اسرتين : اسرة كومالو من السـود ، واسرة جارفس من البيض ، واتخذهما مجالا للتعبير عن هدفه الرئيسي لذي اشرنا اليه في بداية المقال . هذا الى جانب الشخصيات الاخرى ، لفرعية ، التي اغنت الفكرة وكانت متمما فعليا للاحداث .

اسرة كومالو ، كانت وسيلة لتجسيد مشاكل السود : بؤس الاسود وانهيار نظامه القبلي ، واخلاقه ، وانسحاقه تحت وطأة نظام لا يرحم .. في عالم جديد عليه.

اسرة جارفس ، لتجسيد خوف البيض القليلي العدد ، من ثورة السود.

ما هو مدى خط المؤلف من النجاح ، وما هي الافكار ، او الاسباب التي جعلت هذه القيمة الكبرى للرواية ؟

اول ما يتجلى شقاء الاسود ، في تخليه عن موطنه الاصلي ، وهجرته الى المدن حيث المناجم والمصانع والعمل . وهذا ما حدث لاسرة كومالو التي اجتذبتها مدينة جوهانسبرغ ببريقها الوهاج وهذه الهجرة ، نتيجة طبيعية وحتمية لنظام البيض ، القائم على تركيز اقتصاديات البلاد في ايديهم من جهة ، وعلى سياسة التمييز العنصري من جهة ثانية . حيث سلبت اراضي القبائل الخصبة واصبحت ملكا للابيض الدخيل . ولكن الاسود ، من طرف اخر ، مستعبد حتى في العمل الذي هجر وطنه من اجله . فهو لا يتناول الا اجرا قليلا ، ويعيش في الزرائب والاكواخ ، عيشة لا تليق بالحيوان . الامر الذي دفع بالسود الى النقمة ، والى ممارسة الاجرام بشتى صوره ، مما ادى الى اشاعة الذعر في نفوس البيض . والاسود الذي تخلى عن عاداته وتقاليده لم يستطع ان يتبنى او يؤمن بعقائد اخرى ، لذلك فقد سلوكه الضابط ، وغدا متحللا من كل شيء :

لقد تحولت جرترود الى عاهرة، وقطعت صلتها ببيتها القديم. وجون تخلى عن دينه وعن زوجته ، وحتى عن شعور الاخوة ، وهو اعمق رابطة بين كائنين . فقد عاش في جوهانسبرغ ، ورأى اخته جرترود ، وعلم انها تمارس الدعارة ، ومع ذلك لم تثر نخوته هذه الامور ، ولم تحرك فيه اي حس من ناحية المسؤولية العائلية ، او الاخلاق :

الراعي ، لاخيه جون : علي قبل ذلك ان اخبرك ان جرترود تقيم معي ، وستعود معي الى ندوتشيني .

جون : ليس هذا بالامر السيء . جوهانسبرغ ليست مكانا صالحا لامرأة بلا زوج . وقد حاولت بنفسي ان اقنعها ، لكنها لم توافقني وعندئذ لم نعد نلتقي – ٥١ –

لقد كان جو عارفا بسلوك اخته ، وكل ما فعل ، انه حاول ان يقنعها . هذا كل مايجب عليه ، وبعد ذلك لا شيء !! وتلك نهاية الانحلال والانحطاط . ولقد تخلى ايضا عـن عاطفته نحو اخيه ، فقد طرده من

مخزنه وتآمر على ابنه ابشالوم ، وكأنه لا يمت بصلة للاثنين.

واذا كان جون وجرترود ، يمثلان تحلل الاسود وانهيار نظامه القبلي، وعاداته وتقاليده ، فان ابشالوم ، يمثل شقاء الاسود ، الضائع في العالم الجديد ، المدفوع الى الجريمة بلا تعمد ، ودون محيد . ان نمـــوذج ابشالوم ، يمثل الاكثرية العظمى من الشبان السود . لذلك اولاه المؤلف اهمية واضحة ، والح الحاحا عنيفا على شقائه : فهو ابدا متنقل من عمل لعمل ، ومتشرد لا يستقر. وكانت جريمته خاتمة المطاف . وهي جريمة لم تحدث بدافع من الشر ، بل كانت حصيلة طبيعية للظروف ، ولا اثـر فيها للارادة على الاطلاق . لذلك لم نشعر ، كقاريء ، باية ضغينـة ازاءه ، بل العكس ، كنا اقرب الى الشعور بانسحاقه ، بانه ضحية نظام جائر .. بانه بريء..

الشخصية الاخيرة من الاسرة ، الراعي نفسه : ستيفن كومالو . وفي رأينا انه اعمق وانبل الشخصيات بلا استثناء . فهو بالنسبة للرواية ، كالعمود الفقري للجسم ، لا يستقيم بدونه . ان له خصوصية مستقـلة ليست لاي من الشخصيات الاخرى . وفي رأينا ايضا ان عبقرية المؤلف تجلت في خلق هذه الشخصية الرفيعة الطراز . فهو الذي اعطـى الرواية قيمتها الانسانية الشاملة ، ومغزاها العميق :

هو الذي حمل العبء نيابة عن الاسرة ، ومن اجل افراد هجر موطنه وعليه انصبت الاحداث . فقد كان شقيا بمشاكل اخته واخيه وابنه ، اكثر من شقائهم بانفسهم . والميزة الفريدة لهذه الشخصية : الصبـر على الشقاء ، والقبول الكلي للقدر . وهو صبر المؤمن المطمئن ، لا صبر القصور او العجز .. ودون اي تململ او شكاة . ولقد اعاد الى خيـالي صورة الدكتور جيفاكو ـ بطل باسترناك ... وقد رأيته وتذكرته في كل صفحة من صفحات الكتاب . فهو شبيه باحتمال الالم ، والصبر .. وروح المسيح التي تشع من دون انقطاع .

الشخصية الاخرى المتألقة في الرواية ، شخصية ارثور تريفليـان جارفس : القتيل ، فقد كرس جهوده كلها من اجل خدمة السود . فكتب وحاضر وتعرض لنقمة ابناء جنسه البيض ، ولكنه مضى في طريقه دون اكتراث .

تلي هذه الشخصية ، شخصية ابيه ، جيمس جارفس ، الـــذي تحول عن سيره الاول وآمن بأفكار ابنه المقتول . وبدلا من النقمة عليهم، وخاصة على أبي القاتل : الراعي كومالو ، فانه عقد صداقة معه ، ووزع الحليب على اطفال ندوتشيني المحرومين ، وجلب لهم مهندسا زراعيـا لاصلاح الارض ، وبنى لهم كنيسة جديدة .. وفعل ، ضمن مجاله ، كـل مايستطيع.

وهي نزعة تفاؤلية من المؤلف ، وايمان بالخير الكامن في طبيعـة الانسان ، وامتثال للمثل الاعلى في المسيحية : الغفران .

وهناك ايضا الاب تيوفيل مسيمنغي ، الذي بذل كل مايملك ، وضحى براحته ووقته من اجل مساعدة الراعي كومالو ، وكان خير معز لـه ، وخير صديـق .

واذا كانت الرواية مدينة بنجاحها لما ذكرنا ، فانها ايضا مدينة والى حد كبير ، لفكرة دينية سامية بثها المؤلف في الرواية بشكل غير منظـور الا وهي « المحبة » جوهر الديانة المسيحية ، والمثل الاعلى لها . فقد كانت هذه الفكرة ، الناظم الخفي للاحداث .

الان .. اذ اعود الى ماقاله غابرييل مارسيل في الرواية ، ومـا قاله اندريه سيغفريد ، أجد انهما قالا كل كلمة بصدق وبحق . بـل ان الكتاب فوق ماقيل . وتلك خاصة الاعمال العظيمة : تجل عـن الوصـف .

وقد كان بودي ان اتحدث عن الموهبة الادبية للمؤلف ، ولكنـي اؤثر ان يتحدث الكتاب عن نفسه ، فذلك افضل برهان . واخيرا ، اجدني مدفوعا ، بالحب والاعجاب ، لايراد مقاطع من الكتاب ، رغم انه اسلـوب نادر الاستعمال :

ـ التتمة على الصفحة ٦٨ ـ

خمرة الذات

لي عالم ملء ذاتي
أعيش فيه حياتي !
فيه اعانق وحدي
اسراري الغائمات
مسلسلا ما تخبي
من حمرة الذكريات !
وملء ذاتي دنيا
غريبة الرعشات
ومض ... وخضرة نور
مشعشع الهمسات
والف أفق جميل
معطر النسمات
وفيه النجوم زهور
ترش بالحفنات !

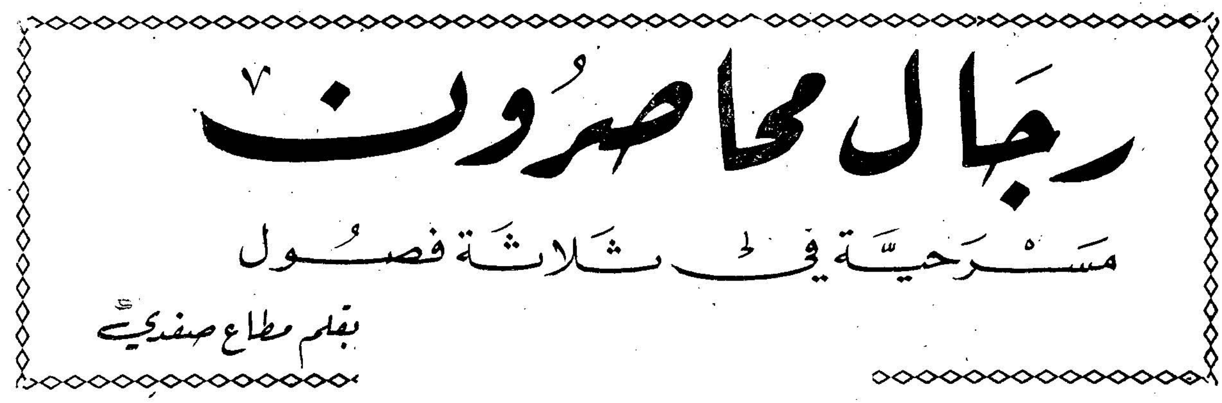
*

تقيد ! ... وحدود !
بقية الترهـات !
حريتي وانطلاقي
من واقع لا يؤاتي
وسكرتي وانطلاقي
اشهى أماني الحياة
لا تحبس النور عني
والانسم المنعشات
دعني بربك انسى
نهاية الظلمات
واصرف السمع حينا
عن ضجة الهاويات

*

دعني فنفسي مدام
من أضلع الداليات
أعب منها وأهذي
بأجمل التمتمـات
فينتشي كل عرق
للاحرف الملهمـات !

فؤاد الخشن



شخصيات المسرحية

منيب
خديجة
ابراهيم
حسين
منصور
سعيد بك
نهلة
حارس

الفصل الاول

غرفة في المدينة

(بعض مقاعد متناثرة ، الى اليمين مكتب صغير عليه بعض الكتب ، ثياب معلقة الى جانب الحائط ، قرب المكتب سرير حديدي غير مرتب ، والى اليسار نافذة والى جانبها مقعد ، وعلى طرفها ابريق ماء)

منيب ــ انتظرت أن أراك كل مساء في الساعة الخامسة حسب موعدنا منذ عشرة أيام ..

خديجة ــ ولماذا لم تبرح غرفتك هذه، وتفعل شيئا آخر غير الانتظار؟ كان الاحرى بك أن تسأل عني أن تكف عن تأمل الجدران .. هذه النافذة هي كل شيء بالنسبة لك ، تجلس خلفها ، وتظل ترقب لساعات طوال... كل شبح ، مهما كان غريبا عن هيئتي الاصلية ، تقنع نفسك بانه خديجة .. خديجة لا بد أن تأتي كما فعلت منذ سنتين ، لن تستطيع أن تحتمل ضجر الساعات الطوال بدون حوار خفي في غرفة شبه مظلمة ، تحبس صمتها في قلب المدينة الصاخبة .. دعني أتمم .. لم يخطر ببالك اني قد أكون مثلا هجرتك الى الابد أو أنه أصابتني علة ما ، أو أن قريتنا قد حبست علي أخيرا دون درب المدينة ..

منيب ــ ماذا حدث يا خديجة ؟ اتركيني لحظة أتكلم فيها عن شيء آخر ، لم أرك يوما على مثل هذا الانفعال ، انك كمن أصيب فعلا بعلة ما ، ماذا دهاك ؟ لقد أصبحت مخيفة ، فقدت أناقتك دفعة واحدة .. وهذا شعرك ..

خديجة ــ ها .. وهل كانت لي أناقة حقا ، أنا ابنة القرية ؟ كفاك أوهاما تطعم بها غرورك وكبرياءك .. أنا لم أكن في أحد الايام الا خديجة بنت السيد صالح .. ايه .. ربما كنت أزيد في أناقتي كي أنسيك قليلا حقيقتي ..

منيب ــ ما عنيت هذا .. كنت أريد ان أقول ان انفعالك يشوه جمالك .. يبدد من سحرك الهادىء .

خديجة ــ لو كنت تدري على الاقل كم كلفتني هذه الاناقة ، أنا خديجة بنت السيد صالح راعي البيك في ضيعة الجرفة .. مسكين محمود بك ، هل كان يحلم في حياته أن حوشه المدهون سيصبح مسكنا لصالح وعائلته .. كان طيبا اذ أوصى لابي ببيته وقطعانه ، واتقن ابي فيما بعد صنعة البيك ، فتملك أراضي جديدة .. و

منيب ــ وماذا يهمنا هذا الآن ، أود لو تكفين لحظة فقط ، وتضعين حدا لهذا الغضب الذي لم أعرف له سببا بعد .. كنت أسألك .. أين قضيت كل تلك المدة بعيدة عني ؟ .

خديجة ــ (بسخرية) وأنا كنت أود أن أسألك كيف استطعت أن تتحمل الابتعاد عن جمالي وأناقتي عشرة أيام ؟

منيب ــ كنت قلقا عليك أنت ، ليس على جمالك وأناقتك ..

خديجة ــ دعك من هذه الكلمات البراقة .. لو كنت تعلم كيف صنعت هذا الجمال وهذه الأناقة ! كيف علي أن أتمرن على ارتداء الحذاء ذي الكعب العالي ، وأسير به في أرض الطين والغبار ، كيف كنت أحفظ تسريحتي من عصف الرياح في البراري حتى اصل الى موقف الاوتوبيس .. كيف كنت أرتدي الازار القروي الاسود على طول قامتي ، وأخفي تحته ثوب المدينة .. كل ذلك من أجل ألا أخجل أخي ابراهيم أمام أصدقائه في الحفلات التي كانوا يقيمونها هناك ..

منيب ــ ومع ذلك ما كان أحد يعرف فيك القروية يا خديجة .. كنت دائما أجمل فتيات ((الفريق)) أحاديثك وتصرفاتك وسلوكك الرشيق المهذب ، كل هذا كان يجعل منك دائما محط أنظارنا جميعا .. ولم تمنحيني ثقتك الا بعد ان اصطنعت جميع وسائل التقرب منك والتودد اليك حتى ..

خديجة ــ (بسخرية وحرقة) حتى اوقعتني في شركك .. لا .. لا .. أنا لا أتهمك ، لو لم تكن أنت لكان غيرك ، كنت أنتظر دائما أحدهم ، أحد أولئك الذين أحاطوا بي من كل جانب ، وأشبعوني غزلا وتملقا .. كان أخي ابراهيم يقول لي في كل مناسبة بعد أن أثبت نجاحي في دروسي التي أتلقاها منه ((حسنا فعلت يا خديجة ، ان المدينة ليست هي الثقافة فحسب بل هي السلوك ، السلوك الذي يعبر عن انسانيتك ، السلوك الذي يبرز حريتك وكرامتك .

منيب ــ ولماذا تسخرين ؟ اولا تصدقين هذه الحقائق ؟

خديجة ــ (بحنق مكتوم) نعم ، هذه الحقائق ، هذه الحقائق ، لو أن أحدكم مرة طالب نفسه بأن يدفع ثمن حقيقة واحدة ينشرها لسانه الا الاجرب هنا وهناك ..

ان احدكم مرة طالب نفسه بان يدفع ثمن حقيقة واحدة ينشرها لسانه
هل وقع حادث لك يا خديجة جعلك تنكرين حياتك الماضية فجاة ؟

خديجة ــ (صائحة) وكيف أدركت أنني أنكر هذه الحياة .. اواه .. أنا لم أصنع أتفه حادث من حوادثها الا وكأنني أقلب الارض عاليها سافلها . فاذا كان أتيح لفتاة أخرى من شوارع مدينتكم النظيفة أن تتنزه مع صديقاتها ، وأن ترتدي الاثواب القصيرة وتسرح شعرها بالطريقة التي تريد ، وأن يكون لها أصدقاء من الشباب وغيرهم ، وأن تدخل السينما وتشتري الكتب وتناقش في شتى الموضوعات الادبية والسياسية ، اذا أتيح لها أن تفعل كل هذا ، وكأنها تقوم بأبسط حركة طبيعية من جسدها ، فأنا كان علي أن أشعل ثورة بعد كل خطوة أقوم بها من أجل أن أكون ما أنا عليه الآن .... من أجل ان اكون مثل أية فتاة طبيعية أخرى هنا ..

(فترة صمت ، تجول خديجة بعينيها في أرجاء الغرفة كمن تبحث عن شيء ، تخفت أشعة المغيب ، وتحل على الجدار الجانبي مقابل النافذة في الزاوية المقابلة ظلال شبه معتمة ـ تصدح موسيقا تزيد في جو الابهام ، وينقطع حوار مقطوع الصلة ، يتحدث كل منهما بلسان داخلي. تظل خديجة تحوم بأنظارها ثم تتحرك بصورة تلقائية بفعل جاذبية غريبة .. تقف في منطقة شبه الظل ، الظلال الشاحبة تنعكس على وجهها من النافذة ، يتحرك منيب جهة النافذة ، يسد بحجمه بقية الضوء، يحاول أن يغلق النافذة) .

خديجة ـ (بصوت ملسوع مختنق) لا تفعل هذا ..

منيب ـ ماذا ؟ ...

خديجة ـ لا تغلق النافذة ، لا أريد ، لا أريد ، احب أن أطل هكذا من بعيد على موت الشمس .. من هنا ، من هذه الغرفة العالية في الجبل ، أطل كذلك على موت المدينة .. اواه السقوف البيضاء ، والاشعة الصفراء ، وغمام الانفاس ، انفاس الشوارع المكتظة هناك حيث تنعقد فوق المدينة كغيمة زرقاء ، تمتص الضجيج ، تبخر قذارة الانفاس ، ولكنها تظل رابضة على صدر الساحات والشوارع السوداء ..

منيب ـ (يتحرك لصق جدار النافذة ، يلصق ظهره بالجدار ، ينبعث صوته جافا) لقد انجزت الكتاب . كتبته كله .. ثلاثمئة صفحة .. ملأت الصفحات البيضاء ، كم كانت تتحداني بفراغها الصقيعي ذاك .. وهي تحملق بي أن أكتب .. أكتب .!

خديجة ـ الشوارع لا أرض لها ، أرى رؤوس بعضها صلعاء ، بعضها سوداء السقف ، شقراء السقف ، كل الناس في المدينة مسقوفة رؤوسهم جيدا ، قد تميع في النهار تحت شمس آب ، وقد تبرد في الليل ، ولكن الرؤوس تظل محمية جدا ، الافكار في سجنها دائما والآمال مكورة في الداخل ، والعيون منخفضة نحو اسفل ... اوه، سئمت جحوظك .

منيب ـ ينبغي أن أحملق أكثر .. لم اعد اراك ، أريد ان اغلق النافذة ، سأوقد مصباح المنضدة .

خديجة ـ لا ضوء هذا المساء ..

منيب ـ لن أضيع مصباحي ، انه ينتظرني فوق مكتبي .. هناك ، أترينه .. لا بد أن أجلس أخيرا وراءه ، وأسحب أوراقي ، وأبحث عن قلمي .. آه قلمي محطم منذ زمان ، لم أجد من يصلحه لي في دمشق كلها .. أنا لا أكتب ، لا أكتب ، لا أعرف الكتابة بغير قلمي ، قلم تحطمت ريشته ..

خديجة ـ اوه .. أنت لن تستطيع أن تفعل شيئا ، لست ادري كيف التقيت بك .. ومع ذلك ، انك ادانتني اليوم ، أنت تهمتي الكبرى..

منيب ـ (يبحث في أوراق مكتبه بحركة عشوائية) سوف ابحث عن قلمي ، لا بد أن أنجز كتابي .. لقد مزقت آلاف الصفحات بعد أن عرفتك .. ليتك تدركين يا خديجة .. بل أنت وحدك من كان ينبغي أن يفهمني .. كنت بدون آخرين قبل أن تقبلي نحوي في زاوية من الصخب .. كانوا يلهون .. بعضهم يشرب ، والآخر يضحك ، وأخوك ، يدير حفلة ماتعة .. حفلت بكل الناس الا بمن كنت أتمناه ، بكل الضحك ، الا بالضحكة التي تجعلني أفرح حقا ، بكل الرقصات ، الا برقصتي الصامتة الشاحبة رقصتي أنا .. فجاة رأيتك .

(أنوار المسرح تظلم بالتدريج ، وتعلو بالتدريج أيضا ألحان راقصة وصخب احتفال ، عودة الى الماضي ، منظر جانبي لحلبة رقص .. وان أمكن عكس بعض خيالات الراقصين من جانب المسرح المخفي، تعود الاضواء الى انارة موزعة تكشف عن منيب وخديجة ـ الحوار كالصدى البعيد ـ يظل الجو مغلفا بشبه عتمة) .

منيب ـ من أنت ؟ ..

خديجة ـ لا تقترب اكثر .. اخشى وجهك الغريب ..

منيب ـ ابتسامتك ملأت ظلمة هذا الليل بالوداعة ..

خديجة ـ أمض عني .. اوه .. انك لا تعرفني ..

منيب ـ ما اسمك ...

خديجة ـ لا شأن لي بك .. أمض عني ..

منيب ـ وهذه الابتسامة .. يا للصفاء ! كنت أحسب أن الارض أتفه من أن تشرق فيها مثل ابتسامتك هذه ..

خديجة ـ سيراك الناس .. أخي يراقبك ..

منيب ـ قولي له كفاك ! لقد اكتشفت دربي ..

خديجة ـ وهل يمكنك أن تكون أنت دربي ؟ دربي ، الى أين ؟ أنا فقيرة ..

منيب ـ أحب أن أنظر الى عينيك .. أحب أن أغرق في هذا الاتساع .. أي سهل غبت عيناك ..

خديجة ـ سهل أبي .. سهل قريتي .. انه بعيد ، أخضر رهيب ، لا تستطيع أنت أن تحيط به ، مهما حدقت به . انه الدنيا الخضراء ..

منيب ـ آه أنا لا أرى الا البشر ، الجبين المغضن ، والعيون المتعبة ، المليئة النظرات بالشك ، والافواه التي لا تنفتح الا عن أقبية .. فيها كل الوجود معتق النتن ... من أين جبينك هذا ؟ .. كيف يسطع ، كيف تقبل عيناك على الارض .. الارض المخيفة بمثل هذه البراءة ، من اين أنت ؟

خديجة ـ أنت تخيفني ، لن تعرفني ، لن تستطيع أن تمسك بي ، بربك دعني منك ، انك تخيفني ، هل يعرفك أخي ؟ قال لي ان جميع اصدقائه في المدينة مثل ابو حمدو رجال طيبون في قلوبهم ، وان كانت ملابسهم ملونة ، وحركاتهم معقدة .. مثل أبطال مسرح العرائس يتحركون بخيوط تأتيهم من عل ، من أيد ماهرة ، خفية غريبة .. ما هو مسرح العرائس ، أتعرفه أنت ؟

منيب ـ أيمكنك هذا حقا ؟ أيمكنك .. قولي بحق الشيطان !

خديجة ـ لست أدري ما الذي يخيفك بي .. انك تربكني بهذه النظرات .. اولم تر فتاة قبلي ؟

منيب ـ آ .. صحيح .. ربما ... اعتقد انني لم أر انسانا قبلك ..

خديجة ـ انهم يرقصون .. اتعرف ..

منيب ـ ماذا ؟ الرقص ؟ لا بد أنه محاولة مصطنعة لكي يصاب الناس بالدوار .. لست أفهم لماذا نحب في هذا الزمان أن ندوخ ؟ كل شيء أفجع ما يمكن في التحديد في الانوار ، في الخطوط والاشكال ، ومع ذلك ندور ، ندور نود لو نقضي على النور .. نهدم الاشكال ، نقطع جسور الحوار بيننا ، ونغرق هكذا في زوبعة الدوار ..

(يحاول أن يحيطها بذراعه) ..

خديجة ـ لا تمسك بي هكذا أرجوك .. لا اود .. أخشى أن اتقدم هكذا بقدمي المتعثرتين ، انني لا أتقن ، لا أتقن الدوار ..

منيب ـ أما نزلت الى المدينة ؟ فلا بد لك اذن من دوار .. دوار دوار .. كلهم يرقصون ويفقدون حس المكان .. ويهدمون الخطوط والمسافات والالوان ، ويعدمون هكذا كل الارض مدى دورة مع خصر من حنان وموت ورعب ..

خديجة ـ أنا أتيت المدينة حديثا .. أخبرني كيف يكون الرقص .. نحن في البراري نرقص جميعا وأيدينا متشابكة .. أنتم هنا اثنان اثنان .. مسافات من الظل والصمت والغربة البكماء تفصل بين كل اثنين .. اثنين .. اثنين .. نحن نرقص جميعا .. ولذلك لا نصمت ولا نخاف ..

منيب ـ ضعي يدك على يدي ..

خديجة ـ كلا .. أود لو أننا جميعا تتلامس أيدينا .. تنعقد اجسامنا في حلقة واحدة ..

منيب ـ للاسف .. هنا .. ينبغي أن تفصلي يدك عن الآخرين .. لا بد لك من واحد ... من وحدة .. من رقصة مظلمة في فضاء الايقاع الاجرب .. ينبغي أن تحزني .. اوه او تعرفين الدمع ؟ كلا ليس هكذا يا صديقة .. ينبغي أن تبكي كذلك في المدينة لوحدك ، برعب ، بصمت ، كما لو أنك غريبة ..

خديجة ـ صحيح أنا أحس انني غريبة هنا ، او تحس أنت كذلك ؟

هذا عجيب ، أنت ابن المدينة تحس معي أنك لست في ارضك ..

منيب ـ في المدينة .. يا .. آه ما اسمك ، فليكن اينها الصديقة .. دعيني أسميك هكذا .. ماذا كنت أقول ؟ حقا .. حقا .. ان في المدينة غرباء ، شعبا من الغرباء .. ثم اتمنى لو تنقضي هذه الحفلة ، أترقصين ، بربك هيا بنا .. لا تخشي شيئا .. سوف نضيع في زحام الراقصين .. ولن يعرف أحد ما اذا كان أحد منا يعرف أو لا يعرف الرقص .. هيا الى الزحام ..

خديجة ـ لا تمسك بي هكذا .. أتعرف أخي ؟ انه يملك كل الحقائق ، يعرف الشوارع .. وأسماء الحانات ، ودور اللهو ومواعيد الافلام .. وأوقات الحفلات الخاصة . انه يفتنني وهو يحدثني عنكم ، أود لو أن اكون مثلكم .. هذا الصخب يخيفني ، يجعلني أتيه بين كل الوجوه ، كل البسمات ، كل الايدي المتحركة حول القامات .. من انت؟..

منيب ـ لا تسأليني .. انني أبحث عن شيء ...

خديجة ـ ما هو ؟ ..

منيب ـ قد لا أوفق بأن أشرحه لك .. ان له مثل ابتسامتك على الافق ..

خديجة ـ أو ابتسم أنا حقا ؟

منيب ـ آه .. بل انك تشعين على العالم نورا كاشفا بهذه الابتسامة ..

خديجة ـ كنت أظن نفسي قبيحة .. مقفولة الفم .. لا تعرف كيف تتكلم ، كيف تبتسم .... أأتكلم جيدا ؟

منيب ـ عن أي شيء ؟

خديجة ـ عن أي شيء .. عن الرقص ، عن السخرية .. اوه عن سخافتي أنا ، أحس انك تهزأ بي ..

منيب ـ أهزأ .. هذا واضح ولا ريب ، ولكن ممن أهزأ ؟ تلك هي مشكلتي .. أنت مثلا .. تدفعينني الى الهزء .. ولكن أأسخر منك ؟ أوه .. ما أصفى هذه النظرة .. انها شارع بدون منعطف .. ،

خديجة ـ أو قل انها خضرة آذار ..

منيب ـ لا أعرف الخضرة .. لم أذهب الى الريف .. عشت محاصرا دائما بالاحجار الشاهقة ..

خديجة ـ انك تعس .. تعس .. لا تعرف كيف تخضر الارض ، وكيف يدر الموسم ، وكيف تموت الارض .

منيب ـ حقا .. انني أهتم بالانسان ، وأطأ التراب ، والارض الخضرة والصخرة ، الجدب او الخصب .. أشياء ، اشياء ابتدائية لم أعد أهتم بها ..

خديجة ـ بل لم تعد تفهمها .. انفك وعيناك وأذناك .. كل هذه القطع من اللحم المشقوقة الى خارج ، لم تعد تصلك بأي شيء آخر .. غير نفسك .. أواه .. لكم أخافتني هيئتك ، وأنت مقبل نحوي ، وبيدك كأس لا تنتهي أبدا من سائلها .. كانت عيناك مغمضتين الى داخل ، وقدماك تجران جثتك النحيلة نحوي بثقل الجبال حول سهلنا .. اتدري .. أتدري .. كنت كلما انطلقت في السهل تلقاء الجبل .. أحسست أن الجبل هو الذي يقترب مني .. أوليس هذا مضحكا ، ولكنني عندما فوجئت بك وأنت تدب نحوي بخطى ثقيلة أشبه بخطى الجبال حول سهلي وهي تلتهم أفقي الاشهب حول عيوني ، شعرت أن الامر ليس مما يدعو الى الضحك . لقد كنت أنت الذي تقترب مني فعلا ، ولم يكن ذلك وهما .. لقد أرعبتني ـ تبدو أشد عبوسا من الجبال .. كنت صغيرا ، ولكن ظلك في نفسي هو ظل الجبل .. كم كنت أختنق في هذا الضجيج !

منيب ـ المرأة كالعقرب .. تود أن تشق طريقها ولا بد ان تلسع من يقف في طريقها ..

خديجة ـ لن ألسعك .. هكذا تقول الاغنية ، لا لا أود أن ارقص .. أنا لا أعرف هذا الايقاع .. انه أشبه بزئير الذئاب الجافة في أوقات الشتاء .. أكرهها .. أكرهها ..

(صوت جاز عنيف) ..

منيب ـ أحب ابتسامتك ، ما زالت أصدق حادثة في هذه الليلة ، هل تثقين بي ؟

خديجة ـ أنا لا أعرفك .. ولكنك حزين ومرتبك مثلي .

منيب ـ هل سأراك دائما في هذه الحفلات ؟

خديجة ـ هذا يتوقف على ارادة أخي .. أنا لا أعرف بعد كيف أقرر أن اجيء ، أو أبقى هناك ..

منيب ـ أين .. هناك ؟

خديجة ـ انتصف الليل .. ولا بد أن أعود الآن .. الى .. هناك ..

منيب ـ انتصف الليل .. ها هو مبدأ الحياة ، كل شيء يموت ويحيا في ذروته .. أحب منتصف الليل ....

خديجة ـ منتصف الليل .. الناس ينامون فيه ملء جفونهم ..

منيب ـ هاهاها .. أعرف ذلك .. ولكن ما رأيك اذا لم يكن الناس يعرفون أخيرا كيف يلقون أقل سانحة من النوم .. حتى في منتصف الليل ؟

(تتلاشى الظلال الراقصة من على الجدران ، يعود المنظر الى غرفة منيب، خديجة واقفة تنظر بين قدميها ، ومنيب جالس قرب مكتبه الصغير يحملق في الفراغ ، تعود موسيقى هادئة توحي بالغروب الحزين ..)

خديجة ـ هذا لم يعد له وجود الآن .. انك تفيظني عندما أراك جد رومانسي في هذه اللحظة ، انظر الى شبه صلعة تكشف سقف رأسك .. أتذكر .. ما زلت مغرمة بالبحث عن أنواع سقوف الرؤوس.. لم يعد ثمة ما يؤذن ببداية ليل او منتصف ليل أو نهاية ليل . كل ما أدركه الآن انني أواجه رجلا جبانا ..

منيب ـ (يمسك بوريقات بيضاء) سأكتب عن أشياء كثيرة ..

خديجة ـ (تلتفت بسرعة مفاجئة نحو ساعة معلقة) سوف أنذرك : الآن .. انني على وشك أن اقتل ..

منيب ـ سوف أجد النهاية قريبا .. أتدرين يا حبيبتي ، ان عظمة

كل قصة في الحياة الواقعية هي البداية .. وأما في الادب ، فان هـذه العظمة تكمن كلها في النهاية .. ما زلت أبحث عن نهاية ..

خديجة ـ لن تجدها .. القصة الواقعية هي التي تظل تحتاج الـى بداية .. انني أنا نفسي بداية وجودك على أرض التـراب والظـلم والسـواد ..

منيب ـ ماذا تقولين يا حبيبتي..سوف أكتب لك روايتي الاولى..

خديجة ـ اكتبها الآن .. هيا أسرع .. لن تلقاني بعد ساعات .. تعرف كيف تجز رقبة البقرة المستكينة : هكذا سوف يفصلون رأسي عـن جسـدي ..

منيب ـ الموت... ان يموت انسان .. ان يختفي شخص وحيـد من عالم وحيد آخر ؟ .. معنى هذا أن الحقيقة قد ابتدأت فعلا .. أيـن ابتسامة السذاجة يا خديجة ؟

خديجة ـ قلت لك انني مقتولة ..

منيب ـ (يقفز خطوتين للامام كمن يرقص) ومن منا ليس بالمقتول؟ أنا مثلا ، مقتول قديم قديم .. لا أعرف سفاحي .. ولكنني أحس دائما بالنصل الابيض الرشيق يحز رقبتي من داخلها .. سكين نبتت مع لحمي .. نمت وشبت مع لحمي ...

خديجة ـ لقد حكموا علي بالذبح أيها المأفون ...

منيب ـ ما كنت تعرفين مثل هذه الالفاظ .. اواه .. أريني هكذا وجهك أفضل .. دعيني أشعل الضوء الكبير ..

خديجة ـ (بذعر صارخة) كلا لن تفعل هذا ..

منيب ـ أين أضعت طمأنينتك ؟ الخوف قضى على براءة عينيك ، انك تشكين في كل شيء يتحرك حولك ، لا تخشي شيئا مني .. أنا لـن اقتل ذبابة ..

خديجة ـ أنت .. أنت .. ان قدر ان تكون قاتلي ، فسوف أنتحر قبل أن تلمسني يداك .. استمع الي جيدا .. انهم يتهمونني بك ..

منيب ـ وأنا أتهم الانسانية كلها بالشيطان ..

خديجة ـ نعم نعم .. لا بد أن الآلهة قد تنصلت من مسؤولية كل هـذا ..

منيب ـ ماذا تقولين ؟ ...

خديجة ـ لا شيء .. تابعت فكرتك فقط .. أتممت ثرثرتـك .. انك أضعف من أن تحتمل حتى ثقل أفكارك الشخصية .. لست أدري مـا الذي يجعلني ألجأ اليك في محنتي ، وأنا واثقة حقا أنك لن تزيد محنتي الا سوادا .. أيها المتشرد ، عشت حياتك متبطلا .. وأغريتني أن أحب التشرد معك .. كنت تقول « لست أدري لماذا لا أنتحر ، انني أسلـك سلوك المنتحرين غير أن قلبي يظل يضرب .. ضربات الحياة بين جنبي ، أنا لا أكره الحياة .. ولكن ما أروع الموت في بعض اللحظات ، في بعض اللحظات أحس أنني من شدة ما أحيـا لم يعد يرضيني غير الموت نفسه » أما زلت تذكر ذلك ، انك تدهشني .. بل ان حبي لك لم يكن الا دهشة بدأت ولما تنته .. انك تحيطني من كل جانب بوجهك الاصفر . لـولا عيناك لحسبت أنك مومياء .. بل ما أشد ما أرعبتني هيئتك وأنت نائم احيانـا .. تغمض عينيك .. وعندئذ لا يبقى غير جلدك الاصفر ، مشدودا على جمجمتك .. وأنفاسي خافتة ، لا تحرك من سكون الهواء حولهـا أبـدا ..

منيب ـ (يجول بين الباب والنافذة بحركة عابثة) أنا جمجمـة إذن .. جمجمة مغطاة جيدا بجلد أصفر .. سوف أكتب هذا ، سـوف أخلع هذه الصفات على بطلي الاول ، تصوري أنه سوف يطل على حبيبته الضائعة من كوة الحمام ، وعندئذ لا بد أن تقع مغشيا عليها سيتولـد الحب من الخوف ، هذا حق .. سيتولد الحب من خوف ..

(يدور منيب بحركة مفاجئة نحوها ، ويأخذ وجهها بيديه)

منيب ـ قولي لي ... هل أنا مخيف ؟ هل تخافينني يا خديجة ؟

(خديجة مستسلمة للحظات ، ثم تنتفض متحررة من يديه ، وتقف قرب المنضدة)

خديجة ـ كنت اشك أنك سوف تفتديني يوما من الايام ، وها أنا الآن .. اوه .. ماذا أقول ؟ لقد ألقيت بي وحيدة الى أنيابهم ..

منيب ـ من هم ؟ ...

(يسمع طرقات على الباب) ..

منيب ـ (وهو ينطلق نحو الباب) لا تخشي شيئا ، انه أخوك ، وقد دعوته منذ ليلة الحفلة الماضية أن يشاركنا عشاءنا .. لا تحتجي .. انه يفهم .. يفهمنا ..

(يفتح الباب ـ يدخل ابراهيم في حركة عجماء لا معنى لهـا .. وتمضي خديجة نحو الكرسي فتجلس عليه ، وتتلهى بالنظر الى جريدة ـ يتمشى ابراهيم جيئة وذهابا . منيب يراقبه بلامبالاة .. تمضي لحظات ثقيلة . يقف ابراهيم فجأة ، يتوجه اليهما معا) .

ابراهيم ـ حسنا ، قولا لي اذن ماذا قررتما ، ها أنا بينكم الآن ، انني أعجب كيف تصبح أمورنا فجأة على مثل هذا التعقيد .. لقد قامت الدنيا فجأة ، والعالم في الخارج يطاردنا جميعا ..

(تهب خديجة بعنف وتقف بين الرجلين ، تخاطب أخاها ..)

خديجة ـ كلا .. لن تستطيع أن تزيف الحقائق بهذه السهولة .. أنت لست منا ، ومنيب ، منيب هذا الفتى الرقيق الحزين ، لا يعـرف كيف يدافع عن أحد الا عن عزلته وصمته .. فاذن لم يتبـق نتيجـة الحساب الا أنا .. أنا وحدي ..

منيب ـ ومن نحن اذن ؟

خديجة ـ أنتما .. عبارة عن متفرجين .. متفرجين .. كل حادثة لا بد من متفرج عليها .. وأنتما ساقتكما الاقدار لان تكونا الشاهديـن الوحيدين على قصتي ..

(ابراهيم ومنيب يتبادلان النظر فترة ، ثم يكسو الجد الحازم وجه ابراهيم ويمسك بيد اخته ، يأخذها الى الكرسي)

ابراهيم ـ هكذا أفضل ، يحسن بك أن تتحدثي وأنت جالسة هناك، سأقول أنا شيئا .. هل لديك كأس ما .. اذن ائتيني بها بسرعة .. اوه ، يا لهذا الحر .. أتى الخريف ولم يرحمنا الطقس بعد .. لماذا لا تفتـح النافـذة ؟

(ينطلق ابراهيم الى ركن في الغرفة ، يملأ كأسا بالماء من ابريـق رملي مغطى بقطعة من القماش ..)

خديجة ـ (دون أن ترفع أنظارها عن الجريدة) الحر في الخارج أشد ، ستدخل علينا هبة من الجحيم .

ابراهيم ـ (بحركة عصبية بعد ان شرب الكأس) لا .. انـنـي ابغض جو الظلال ، بينما ما زال نور الغروب في الخارج يمـلأ الشوارع.. ما هذا الصمت ؟ لا شيء .. لا شيء .. كل ما هنالك أنني متعب قليلا، لقد خرجت توا من اجتماع العائلة ، كان شيخ الضيعة معنا كذلك ، وكان حسين ابن عمك ، وكان سعيد بك .. الى جانب أولاد العموم والخؤولة وأولاد أولادهم .. وأولاد الـ ... لست أدري من أين هبت هذه الرؤوس دفعة واحدة ، من أية جحور سحبت عيونها المظلمة ، وتحلقت كلهـا حولي .. وتلك الالسنة .. لعنها الله . تلك الالسنة كانت كالسيـاط النحيلة الحمراء ، تخرج من أقبية افواههم المنتنة .. وتلسعني ، تلتف حول عنقي ، تنعقد في الهواء الف عقدة .. يتطاير سمها هنا وهناك .. انهم مجتمعون ... مجتمعون .. الاقارب وأصدقاء الاقارب والعشـير وحتى الاقطاعي .. مجتمعون .. وهذا ما يعطيهم كل قوتهم .. انـهـم صخرة واحدة من العنف والطغيان .. انهم موجودون .. موجودون .. بثقل الارض على قرني ثور .. وبعد .. لم يبق لي الا أن أفر.. أتبدد مع الصخب ، بين العيون ..

خديجة ـ (رمت الجريدة ببطء ، قامت ووقفت قبالة ابراهيم) « اذن لقد حكموا علي .. يا صديقي أليس كذلك ، وأنت .. أنت لم تأت الى هنا الا لكي تلقي علينا بيأسك .. بقي أن أعلم الآن من سيكون المنفذ .. لا تقل شيئا ، انك أنت ، أنت ومن غيرك .. انك رب العائلة .. ورب العائلة وحده مسؤول عن شرف نسائه أليس هكذا تقول شرائعنا ؟ ..

(تصمت برهة ، ترفع رأسها ، تلقي بيدها الى ظهرها) »

خديجة ـ (صارخة) هيا .. اكشف عن نصل سكينك .. اخرجها

من بين ثيابك ، لا بد أن لهامكانها هناك .. لا يمكنك أن تختلف عن الآخرين .. عن آبائك وجدودك .. ألرجل منكم يأتي بعد صلاة العشاء ، يلقي التحية على زوجته ، وهو ينتشل سكينه من بين ثيابه ، يخفيها وراء ظهره ، يقبض على جدائل زوجته يجمعها بين يديه .. ويجرها الى الدار ، الى الفسحة تحت السماء .. وهناك يرمي بها الى التراب ، يضع ثقل ركبتيه على كتفيها ... ويصرخ باسم الله .. ويجز رقبتها .. ويفصل في ثوان رأسها عن جذعها .. ونساء البيت الاخريات ، يلمحن نافورة الدم على ضوء النجوم ، ويسمعن صرخة الرجل باسم الله . فيطلقن من مخابئهن الزغاريد .. والقرية الصماء تستحيل بعد قليل الى عرس . ويخرج الرجل ، رافعا سكينه.. تنقط دما .. ويسير بين الرجال الهازجين ليتقبل التهنئة والكرامة السلبية منهم .. اني أتخيلك يا ابراهيم ويداك ملطختان بدمي ، وشعري ، شعري الذي طالما أحببته قد عجن بالدم حول أصابعك .. وبذلك هذه البيضاء سوف يستحيل لونها الى حمرة طينية .. وقد ..

منيب ـ كفاك .. ابراهيم لن يفعل هذا ..

خديجة ـ (ساخرة) ما أدراك انه مخير الآن بين أن يفقد رجولته أو يفقدني حياتي ؟

منيب ـ وما علاقة هذه الرجولة بحياتك ؟

خديجة ـ انك لن تفهم هذا بسهولة يا صديقي .. لقد ابعدتك المدينة كثيرا عن اصولك الوحشية ..

ابراهيم ـ (باصرار حزين) ليست هذه وحشية ..

خديجة ـ بم نسميها اذن ؟

ابراهيم ـ انها مجرد جهل .. جهل ..

منيب ـ وبذلك تخلع عن الجميع أية مسؤولية.. لا شك انهم جهلاء، كالعقارب والتماسيح والافاعي والميكروب .. هذه جميعها حيوانات عجماء تقتل ، وتلسع ، وتبتلع .. ولكنها معذورة ، لان طبيعتها ركبت على هذا، وهي لا تدري من أمر هذه الطبيعة شيئا .. قل لي .. وما دوري أنا في هذه القضية ، هل ينالني حكم القرية ؟

خديجة ـ (بنوبة هستيرية من الضحك والبكاء معا) اجل يا صاحبي المسكين ، لا بد من جز رقبتك ، يا خروفي الجميل .. الست عشيقي . ولكن لا .. صبرا .. انهم ينزهون الرجل دائما . الرجل لا يتلوث ، يلوث ولا يتلوث كالمكروب تماما .. ينبغي أن تهرب ، ان تفر.. فرارك وحده كاف لان يميت حكمهم عليك .. لا شيء يقتلع الخطيئة .. من المرأة .. أفما رأيت ؟ الرجل ، هو الذي يلوث وهو الذي يحكم وهو الذي ينفذ ، هو الذي يفقد الشرف ، وهو الذي يسترده ، كل ذلك وامرأة مشدودة الشعر تلوب بين شفتيه وسكينه ..

منيب ـ (بصرخة مصطنعة يجهد أن يضع فيها الصدق) لن أتركك يا خديجة .. سأكون معك ، ولو تخلى عنا معا ابراهيم ..

ابراهيم ـ ومن أوحى اليك انني سأتخلى عنكم ؟. أنا معكم ، ملتصق بكم ، ليس من قوة تفصلني عنكم .. انا جميعا الحاكمون والمدانون .. والآن تعالا الي .. نعم هنا .. هنا قفا الى جانبي .. قولا لي الآن هل أحببتما بعضكما حقا ؟

خديجة ـ (بضحكة مجلجلة) يا لك من رجل مخيف يا اخي .. لم أعد أعرفك .. ماذا فعلوا بك ، حتى أصبحت بين عشية وضحاها هذا الرجل المهموم جدا ، التعب .. الذي يحاول أن يخيفنا في هذه اللحظة .. وماذا يهمك من هذا السؤال ؟

ابراهيم ـ اذن تزوجا حالا .. فقد يضع هذا حدا للاخرين وأحكامهم ..

خديجة ـ أنت تعلم أنهم لن يرضوا بالزواج .. ولو رضوا هم .. فأنا لن أقبل .. لن أختبىء بالزواج .

ابراهيم ـ (يخاطب منيب بيأس) وأنت يا منيب .. أما كنت تنوي الزواج منها ؟ قل .. لقد سمحت لكما أن ..

خديجة ـ (مقاطعة) لم تسمح لنا أنت .. لقد فعلنا ما أردنا أن نفعله شئت أم أبيت .. لا تنس انك أنت نفسك علمتني هذا .. علمتني ان آخذ أموري بنفسي .. قلت لي ذلك هو جوهر المدينة .. انها تعني خلق الفرد ، والانسان ليس هو الا الفرد .. وما دام الفرد قد ألقى بوجوده الى الجماعة والتصق بها فلن تكون له ثمة انسانية ، انه عضو من الغرائز في قطيع .. أنت علمتني هذا منذ أن مات أبي .. واخذت تدربني على حياة المدينة ، وتعرفني على أصدقائك ، وذهبت بي الى الحفلات والمحاضرات .. حتى كان أن التقيت بمنيب .. وكان رجلي الاول ...

ابراهيم ـ الست تحبينه ؟ أليس هذا حبا حقيقيا يا خديجة ؟. تزوجي منه اذن .. تزوجي ، هكذا تسهل الامور ...

خديجة ـ ربما كنا سنتزوج .. وأما الآن .. فلا ..

منيب ـ لا تجعلها تأخذ موقف التحدي يا ابراهيم .. ثم ان مسألة الزواج لا علاقة لها بالحب .. ربما تحاببنا .. ولكننا لم نفكر ...

خديجة ـ صه يا هذا .. انك تخجلني فجأة ، أحس كأنني كنت ضحية ..

ابراهيم ـ نعم هذا هو الواقع .. هناك ضحية ، ولكن من تكون منا نحن الثلاثة .. هذا هو السؤال ..

خديجة ـ (تتجه نحو منيب ، تضرب بيدها على صدره) « لن أكون أنا الضحية .. أكره هذه الكلمة .. قل لي ذلك ، انك انت وحدك من دون العالم أجمع ، من يعرف براءتي .. قل أن هذه البراءة لن تضيع، لا أحب لها أن تكون الضحية ..

ابراهيم ـ الوقت يمضي بسرعة .. علي أن أعود بك الى القرية الآن ...

منيب ـ (منتفضا وقد أخذ بخديجة الى خلف ظهره) ليس الآن.. انت لم تصمم بعد على فعل .. (هذا) .. أليس كذلك .. انك غير مصمم ، والا لما كنت بيننا هذه الليلة ...

ابراهيم ـ دعها تقرر هي .. وعلى كل حال ، لن يحدث شيء هذه الليلة ..

منيب ـ لن أدعها تذهب معك !.

ابراهيم ـ هي التي ستأتي معي ..

منيب ـ (نحو خديجة) أصحيح ما يقول ؟ ..

خديجة ـ لا بد من ذلك يا منيب ..

منيب ـ ماذا تقولين ؟ .. وانت كذلك ، ماذا أصابك فجأة ؟. أتستسلمين بهذه السهولة ، كنت اعتقد نفسي جبانا أمام شجاعتك ..

خديجة ـ (بسخرية) لا محل في هذه المسألة للشجاعة والجبن.. كل شيء محتوم ..

منيب ـ بل قولي .. كل شيء سيتكرر ويتكرر كما كان من آلاف السنين ..

خديجة ـ (بشكل آلي) كل شيء سيتكرر ويتكرر كما كان منذ آلاف السنين .. منذ أن جزت رقبة اول انثى من أجل الهة كلها من الذكور .. وتجز اليوم من أجل ذكور كلهم الهة ..

الفصل الثاني

(بهو بيت ريفي) ودووواين طويلة وبضعة كراسي من القش ..)

حسين ـ حسنا فعلت يا ابراهيم ، كنا نحسب أن خديجة قد فرت من أيدينا الى الابد .. لا بد أنك كنت ذكيا حتى استطعت ان تتغلب على خبث هذه البنت وفسقها وتأتي بها الى هـ...

ابراهيم ـ لا تدنس اختي بشفتيك القذرتين ..

حسين ـ لم تعد أختك ، لم تعد بنت عمنا ، انها رجس من عمل الشيطان ، علينا انتتخلص منه بأسرع ما يمكن ..

الشيخ منصور ـ لا يا حسين .. دع ابن عمك ، لا تثقل عليه أكثر، كل شيء مقدر ، ولا بد أن ينفذ المقدور .. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ابراهيم ـ أنت شيخ هذه القرية .. أنت المختار.. انت تمثل

ـ التتمة على الصفحة ٤١ ـ

جريمة في غرناطة

— ١ —

غرناطة
غرناطة
وتر مشدود في قرني ثور
تخنقه ، تسحبه للموت الانشوطه
فرس في الكوكب مربوطه
غجر يخفون خناجرهم في القلب
وعد برجال في الليل القاسي يلدون
فصل خامس
غنت عيناه ، روائحه طافت بالدرب
دقت يمناه الباب وصافح ماريانا
ـ : « ماريانا .. أين الابناء ؟ !
ـ : عفوا سيدنا .. ماريانا عذراء
ـ : ماريانا .. وجهي لم تخلق بعد ملامحه ، صدري عريان
أو .. لا بأس .. سأرتحل الآن
سأمر على أقرب خان
أبتاع خيولا وخناجر .. لكن .. أين الابناء ؟!
ماريانا .. أين الابناء .. الابناء .. الابناء ! !
ـ : عفوا سيدنا .. ماريانا عذراء »
.....
الفجر عيون سوداء
أيد تشتد على الخنجر كي تنحت عينا سوداء
في الصخر ، وتنحت وجها للفصل الخامس
ماريانا تصنع ثوبا تغمسه في الدم
كي يفرح بالتزويق وبالثوب فؤاد الفصل الخامس
والدرب يضيق .. يضيق بسيل الابناء
غنوا ساعات .. لكن الطفل المهدول الخصلات
غنى .. غنى نفس الكلمات
فانهمرت أدمعهم فرحا بالطفل الجني الصوت
نظروا في قلب الطفل فراعتهم أقمار خضراء
نامت في خيمة غجر مطوية
رقصوا .. لكن الغجري المهدول الخصلات
راقص في الريح خناجر ملوية
احتضن الثور وخاصره واصطاد النجم بأنشوطه
غرناطة
غرناطة
من الف تحلم بالطفل الفجري القلب
تتشهى لو جاء وغنى واحتضن الثور

— ٢ —

ماريانا ترسم نارا في عين
تستلهم من أرض النسيان تنفس بئرين
تغترف الالوان المسكوبة في العصر
على أيدي الطرقات
زيتا مخضوبا يمتزج بحبات العرق المخضوب
يتوهج بالماء المنسي على طرف الفرشاة
بثلاثة ألفاظ غصت بالرعب
وزجاج الشباك المكسور الصارخ بالريح الثلجيه
وأياد تمتد من الظلمة في الدرب
تعتصر الشمعة ، والريح المجنونه
تعوي في ليل الارصفة السوداء :
فرناندو .. فرناندو .. فرناندو ..
ماريانا تحتضن الثوب تواريه بين النهدين
في الدجية انسان مجروح الجبهة
ترتعش بعينية الاقمار
يتحسس اثار القيد الدامي فوق الرسغين
نادى مجروح الصوت حزينا بمشارف غرناطة :
« ماريانا .. من غير الضوء الثابت في ليل الاعماق
من غير الاقمار الخضراء
من غير الاجراس الضاحكة بريح الحريه
من نحن ؟ ! وماذا تصبح في الليل ملامح غرناطه ؟ !
هل يصمد للحب الانسان ؟ ! »
ثلج ورياح تعوي في ليل الارصفة السوداء :
وأياد تمتد من الظلمة في الدرب
وتمزق بالخنجر أهداب الثوب
وتمزق أغنية هاربة بين النهدين
ماريانا تتكيء على بحر دماء
ماريانا تصرخ : « يا بدرو أهواك
ارفع قنديلك .. من أجل القنديل أموت
بدرو .. يا بدرو .. يا بدرو »
قمر نهداه من القصدير
يمشي في شرفة غرناطه
يتلوى ، يشهق : يا طفلي القادم
هات الاقلام وأدرك ثارات الارصفة السوداء
بدرو ما زال يخاصر ماريانا في ظل الموت ..

ـ ٣ ـ

نهد غجري وامراة ترمي زيتونا من شفة البئر
ترتعش بعينيها أدغال السرو
يهتز الزنبق والخنجر فوق الزنار
يمشي جبريل الطيب في ليل الاسبان
تتغنى الاجراس المسحورة
« بالرومانسيرو جيتان »
والفصل الخامس أنسام عرت امراة غجريه
ترمي زيتونا في شفة البئر
فاغتسل الطفل السكران
وابتسم الشارع والكوكب والفجر
غرناطه
غرناطه
أرصفة دامية ، غجر في الساحة ،
أغنية
تمشي في الريح
فيديريكو .. فيديريكو ..
فيديريكو ..

ـ ٤ ـ

آي هارلم .. آي هارلم
أغنية السوليا ترتاح على درجات حجريه
والعبد النائم يحمل فوق الزندين السلم
والعبد الآبق يحمل مصباحا في مدخل ميناء مظلم
آي هارلم .. آي هارلم
اغنية السوليا تستسقي عيني غرناطه
والسوق السوداء وشارعك الممتد زيوت
تحترق بأحشاء الاوثان
آي هارلم .. آي ،
عيناك شفاه تتدلى في بحر دماء
والملك الاسود بواب يلتهم التبغ المجنون
والسوليا تصرخ : يا قصر الحمرا
دعني أغترف قليلا من ماء
آي هارلم .. آي
الفهد الهارب من ليل الاحراش
يتوهج في دمه غاب الابنوس
آي .. آي
أغنية السوليا ترتكز قوافيها الظامئة على صمت البلور
تستقيه ريح الميناء
تنحل غدائرها الخضراء ، تسيل على أيدي الاوقيانوس
ترتعش وقد لاحت في الافق أزقة غرناطه
غرناطه
غرناطه
أغنية السوليا قد عادت .. أوحشها قصر الحمراء
دارت في القبو المنسي لتبحث عن كأس من ماء ..

ـ ٥ ـ

يا عهد السنبلة الخضراء
أشرق من عيني أطفال في رحم الثلج يغنون
واضحك يا صمت الريف المحزون
آياي .. آياي
يا عهد السنبلة الخضراء
تلتف بمسرحنا الدوار كتائب قمصان سود
تقتتل شوارع غرناطه
تتعارك في الريح خناجر أسبان
أسبان .. يا ويلي .. يسقون خناجرهم من قلب الاسبان
القلعة يغرقها الطوفان ومسرحنا تأكله النيران
أسبان .. يا ويلي .. يدفنهم أسبان
والشارع يهتز بطوفان الحرس المدني الجوعان
غرناطة
غرناطة
يمطرها زفت فعلي ، يتوهج كبريت سدوم
كفني يا ركب الفجر المذعور
ادفني في قلب الديجور
ضع صدري فوق الرمل وراسي فوق القيثار
فيزنار .. فيزنار .. فيزنار
أجساد يطرحها موت ثلجي ، آبار
آياي
أسبان .. يا ويلي .. يدفنهم في البئر الاسبان
والخنجر في قلب الشارع ، والشارع بالثلج الاسود سكران
أسبانيا تأكلها الريح فتأكل أبناء أسبان
آياي .. آياي ..
أسبانيا تغرق في النار
تنتحر ويأكلها موت ثلجي الآبار
آي فيزنار
فيزنار .. فيزنار ..

ـ ٦ ـ

يا ضوء التاسع عشر من آب
يا شمس الصيف المشتعل الاهداب
صمتا .. فالشاعر في صمت المحراب
كزهور عارية ، كالنجم السابح في الماء
يستلهم قرميد البئر المنسي بقصر الحمراء
يستلهم ساقية اللبن المسكوب وعهد السنبلة الخضراء
يستلهم مصباح الدرب المرتعش ،
واشجار الزيتون الصارخة الاوراق
صمتا يا صيف الاعماق
فالشاعر مأخوذ .. يرثى اقمار القصدير
يبكى نهدا مقطوعا يدمى في طبق البلور
يا ضوء التاسع عشر من آب
يا شمس الصيف المشتعل الاهداب
صمتا .. فالشاعر معصوب العين ..

ـ ٧ ـ

غرناطة
غرناطة
تنحل ضفائرها السوداء
يوقظها قتلى فيزنار :
« قد مات وحيدك فيديريكو .. لوركا مات
لوركا صرعته القمصان السود
لوركا .. لوركا .. لوركا قد مات »
فتولول حتى ينفجر النهدان
وتراقص حراس القمصان السود
تمضي — والليل يولي — للحان
تذهلها الكأس فتصرخ : يا ولدي
مجرمة امك غرناطة
تصرعها الخمر فتهذي : يا ولدي
علقت يديك على الباب
قنديلا في مرمى الضوء ينادي ضبية غرناطة :
لوركا في الساحة اقمار
لوركا ديوان مسحور يستنهض قتلى فيزنار ..

القاهرة **محمد عفيفي مطر**

في القصيدة احالات واشارات كثيرة من شعر لوركا ومأساة حياته وموته . وليس هدفي من القول ان اسجل مراحل حياة وحكاية موت فحسب . ولكني دائما اجعل الموضوع الرئيسي للقصيدة تكأة استند اليها لاقول ما اقول . راجيا ان تحمل الكلمات في طواياها غمغمةقلبي انا ، وليس الموضوع الا منطلقا للافضاء ..

« م.ع. »

مقعدان في صالة للتمثيل

قصة بقلم هاني الراهب

الى الدكتور ابراهيم ماخوس

وقد جاءتني وصال يومذاك وقالت : الا اشترك في حفلة السمر التي تقيمها الجامعة ؟ » وكانت ابتسامتها الحلوة تقول لي : « يجب الا ترفض ، قحطان ! » ولم اتردد في القبول . بل اني امتنعت عن الشعور بضرورة الحذر . فعلى كل منا ان يخترق جدار الخوف ويجرب الحرية .

ــ أين انت ياأخانا ! نحن اثنان ، ألا ترى ؟

ــ عفوك ياسيد ، الزحام يضطرني ؟ خاصة وانه لم تبق محلات .

لاباس . يبدو انه لطيف . لو أن بوسع وصال ان تحجز مقعدا ثالثا لاجلسته عليه .. ربما جاء متأخرا فلم يجد مقعداً .

ــ ماذا تظن ، عثمان ؟ ألن يكون مقعدان بانتظارنا ؟

قال عثمان : ــ مادامت قد اشتركت في التمثيل فستحجز مقعدين حتمـــا !

وقفنا بمدخل الصالة كانت تعج بالناس : اجسام مسترخية على مقاعدها ؟ وعلى الوجوه غبطة وثيرة ؟ وتتأمل العيون بهدوء الجو القرير المدمدم باحثة عن منظر جديد ، سديم من الدخان واللغط تحلق في الجو الخفيض فأحال الصالة الى عالم يشاهد ولا يعرف ، حيث اطمأن كـل رقم فيه الى انه جالس على مقعد . بحثت ولم تكن عيناي قريرتين ، ففي هذه الدنيا الصغيرة التي ملأها مايقرب من خمسمئة شخص ، يوجد لي مقعدان . لي ولعثمان .

قال عثمان : ــ اف ! هل سنجلس بين هاته الفتيات الخليعات ؟

ــ خليعات ؟! أعوذ بالله !

قال : ــ انظر الظهور والنحور .

ــ تلك هي عادتك ، لاتتسامح كأنما يهاجمك كل شيء . وما كـان الكشف عن الظهور والنحور غير افساد للطبيعة البشرية ، او دليل انعدام اصالتها .

ــ .. وهذه الوجوه المطموسة ؟

ــ مطموسة ؟ ماهذا ياعثمان ؟ ماذا ستقول عن خطيبتي عندمـــا تظهر على المسرح . انها تمثل في كل نمرة .

لمست احد الواقفين برفق ولكن بقوة فازاح نفسه . وتقدمنا . .

قال عثمان : ــ انها اختي ايضا . وهي مخالفة للاخلاق في ثلاث : في التمثيل لانه نوع من الغيبة ، وفي الظهور امام الناس ، وفي التبرج .

ــ ياساتر يارب ! سوف تعيش زوجتك ــ اذا تزوجت ــ في قفص . الاخلاق ، المبادىء ، المبادىء ، الاخلاق . لقد طمرت نفسك بها .

قال ولم تختلج في وجهه عضلة :

ــ هذا خير من أن تظهر شرور النفس .

ــ ليس في النفس الانسانية شرور . انها نبع مشعشع بالنـــور والصفاء . هل تعتقد انّ وصال ستتغير في نهاية الحفلة ؟

قال عثمان بثقة : ــ مادمت قد افسدت اخلاقها ، فلن يكون أي شيء مفاجئـا .

ضحكت . ازحت اثنين يتلكآن ، ثم ازحت ثالثا . واحسست فجأة ومرة اخرى بوجودي في الصالة ، احساسا نفاذا يلطم الجبين .

قال احد الواقفين ، وعنقه مشنوق بربطة طحينية :

ــ لم تبق محلات .

نظرت اليه : ــ خطيبتي مشتركة في الحفلة ، وقد حجزت لي مقعدين .

يقولون لك : لم تبق محلات ، كأنما يؤدون واجبا ، وسريعا مايوطدون معك صداقة اذا تحدثت اليهم ، كأنهم يهربون من انفسهم ، لولا ان عثمان يعلق لكنت تحدثت مع صاحب الربطة الطحينية ، ذلك ان ديدنه «يجب ان » و « يجب أن لا » .

شعرت ان الجو النفسي بيننا قد توتر . وتضايقت .

ــ عثمان ، هل تذكر المرة الوحيدة التي اتفقنا فيها ؟

وضحكت ، قال عثمان وهو يشق طريقنا :

ــ اما انه لسؤال ! وللمرة المئة .

ولكني حاولت من جديد ان يذيب المزاح نرفزتنا :

ــ انه يوم اقنعتني بالا تذهب وصال لدورة مياه المقهى ، واستأجرنا التاكسي الى بيتكم . كنا في اول عهد الخطوبة ..آ .

لابأس ، ان له الحق في تجهمه ، فقد ضايقه يومذاك أني ندمت من اقتناعي .

قال : ــ يبدو ان المقعدين مفقودان . ماشاء الله . يجب ان نعود

ــ انت لم توافق على المجيء منذ البداية . ولكن انتظر ، سأقطع رجل من يجلس عليهما .

ضحكت بابتسار ، ثم بحثت عن المقعدين مقطبا . لابد ان يوجد في مكان ما مقعدانّ يكونان خاليين . ان الصالة مليئة ، ولكن لابد من وجـود المقعدين . تفحصتها ثانية ، ثم ثالثة وباحساس مسبق بالفشل . تلـك هي السنة : لابد ان يخيب الانسان . ولكن أين وصال ؟ لو انها تتحدث للمشرف على الحفلة .. ولكن ماذا بحق السماء يعني انها لم ..

يجب ان نراها . لابد انها تستطيع تسوية الحال .

يا الهي ، كيف يمكن لوجهه ان يبقى جامدا هكذا !

قال : ــ لنعد . يحضر الانسان حفلة وهو جالس .

سرت بسرعة حتى الصف الامامي ، متفاديا ما امكن الارتطام بالناس . وامسكت يد امتدت لتوقفني فابعدتها . تقدم اثنان عريضا الاكتاف يحملان شارة خضراء مثل غصن زيتون ثبتت على ساعد كل منهما وقد كتب عليها « لجنة تنظيمية » . وشعرت بالارتياح ، فهما مسؤولان ويمكن على الاقل ان يريحا تساؤلي . قال الاول :

ــ من هنا ممنوع ياسيد .هذه غرفة الممثلين .

وأية « سيد » ، نظرت اليه قليلا .

ــ الموضوع هو هذا : ان لنا مقعدين حجزتهما خطيبتي ، وهـي مشتركة في الحفلة . انني لا أراهما . قال الثاني وهـو ذو حاجبـين خفيضين : ــ لا يمكن رؤيتها الآن فنحن ننتظر رفع الستارة للمرة الثالثة . ثم ان الحجز ممنوع . يأتي المتفرج ويجلس ، هكذا . الدنيا حرية .

ــ ولكن معي بطاقتي دعوة .

أخرجت البطاقتين . ونظرت الى المنظمين .

قال الاول : ــ لقد تأخرت . كل المقاعد مشغولة ، وحتى اماكن الوقوف

فكرت أن بوسعها أن تحضر كرسيين لنا .

قال عثمان : ــ يجب أن نعود اذن .

نظرت الى المنظمين : ــ اين المشرف على الحفلة ؟ لعلي ارى خطيبتي

قال الاول : ــ الدكتور نظام ؟ انه فيّ غرفة الممثلين . و ..

همس عثمان في أذني : ــ غرفة الممثلين ! لعله يبصبص على أفخاذ البنات عندما يرمين ثيابهن .

ــ .. لن يأتي الا عندما ترفع الستارة . ماذا لو وقفت هنا؟ لقد كانت هناك أمكنة كثيرة ، الا انها نفس المشكلة الابدية : تضيق الامكنـــة بالناس دائمـا .

انتبهت الى أن الضجة قد صارت مزعجة ، وأنه حتى استرخـاء

الارجل مثير للضجر . كانوا جالسين كأنما يشغل كل واحد منهم مكانه الطبيعي ، لا في الصالة ، بل في الحياة ، فيما مكث الشابان واقفين أمامي .

قال عثمان : ـ لنعد . يجب أن نعود .

رأيت الدكتور نظام ينبثق من الباب بصلعته اللامعة ويتهزهز سائرا حتى مقعده في الصف الامامي. حاجبا عثمان كان متصلين وأجفانه مثبتة. شعرت بالضيق .

ـ لا بأس . سنقف هنا .

ونظرت اليه من زاوية عيني . لم يتحرك انما قال :

ـ ليس ضروريا ان تنفعل لكلمتي . لا نريد غضبا الآن .

ـ ما دام كل شيء منوطا بي فلماذا أغضب ؟ ما الدافع لان أغضب؟

التفت يسارا . يلمع ضوء الستارة الاحمر على صلعة الدكتور نظام ، وعلى مقعده أيضا . نحن فقط ومنظمو الحفلة واقفون . أخذ ضوء أبيض يشوب الاحمر . استدرت فاذا الستارة ترفع . وظهر شاب يقف مع وصال على منتصف المنصة . ونبعت موسيقى هادئة لطيفة .

سيبدأ التمثيل الآن ، وانها لتجيده كثيرا . تجيده حتى لتنسيني أنها تمثل . ومن يدري فلعلي أجبتها من أول لقاء بسبب هذه الحيوية المتنوعة . كانت تبدو دائما محوطة ، قريبة وعصية ، كأنما لا قرارة لها.. مد الشاب يده فاستكانت اليه . شيء طريف ، فالمسرح هو المكان الوحيد الذي ترفع فيه الفتاة كلا رأسها وذراعها بنشوة .. أية كتابة هذه ؟

ـ انها تمثل دور « فلسطين » . وهذا الشاب « شعب فلسطين»

لم ينبس عثمان بشيء . لكن وجهه ذكرني بما قاله عن الفتيات الخليعات . تأملت وصال ورفيقها . كان ثلاثة آخرون قد برزوا من زاوية المسرح اليسرى ، وصاروا يشيرون اليهما وظهورهم متقاربة ومقوسة . تقدم من بينهم واحد قميء ـ « اسرائيل » ـ وطفق يدور حولهما ، والشاب يشد وصال اليه ويرمق اسرائيل بحذر . شعرت ببعض الكآبة .

دار الثلاثة حول الاثنين ، فوقفت وصال خلف الشاب وعلقت يديها حول صدره بجزع . اقترب الثلاثة أكثر فتعلقت به أكثر . وأخيرا تقدم اسرائيل وشدها من يدها عنوة فانجذبت اليه ، فيما شد « انكلترة » و « فرنسا » الشاب وابعداه الى طرف المنصة . وضع اسرائيل يدي وصال خلف ظهرها فبرز ..

ـ هاه . لقد انتهكوا عرض فلسطين .

قال أحد الحاضرين . قال عثمان :

ـ أنت ترى هذا ؟

ـ انه تمثيل .

ـ الطبيعة لا تعرفه تمثيلا .

ـ الطبيعة ، الطبيعة ! كأن نفوسنا قاعة مظلمة جرداء عارية لا تثير غير العنف والابتذال !.! هل تريد أن نفقد ثقتنا بالبنت ؟

قال عثمان بهدوءجليدي : ـ ثقة ؟ ليس ثمة ضامن لشيء بالنسبة للانسان .

التفت رأس الدكتور نظام ، وانحنى اليه « لجنة تنظيمية » .

ـ هذا بالنسبة لك فقط . انك لم تعتد أن تثق بأحد .

تقدم شاب ثالث منا وهمس : ـ لا ترفعا صوتيكما . لا تتكلما في هذا الموضوع .

قال عثمان : ـ أهو ممنوع أن نتحدث في حماية أعراضنا ؟

قال الثالث : ـ النظام يقتضي تأجيل هذا الموضوع .

قال عثمان : ـ ماذا نستفيد من هذا « الاقتضاء » في موضوع كهذا.

قال الثاني : ـ لا يعل صوتك . انت تلفت انتباه النظارة .

وبدا على وجه عثمان بعض التشجيع من الملاحظة الاخيرة ، ورأيت أنه صار وحيدا

ـ ألا يحسن أن تطردنا خارج القاعة ؟

قال لي الاول : ـ اذا استمر حديثكما .

نظرت اليه مفتوح العينين ، مفكرا بدهشة أن هذا الشاب بالذات يجب أن يقتلع من الارض التي يقف عليها .

ـ ما كنت أعرف أنك على مثل هذا الحزم .

قال : ـ في الحياة أشياء كثيرة لا تعرفها .

قال رابع : ـ تفضلا للخارج .

رن فجأة تصفيق حاد . التفت نحو المسرح فرأيت وصال تتراجع نحو اليمين بانحناءة مهذبة ، ووجهها الزاهي يبتسم . ولمحت في عينيها الوضيئتين نظرة قلقة .

ـ لن أقبل بهذين المقعدين بديلا .

دفعت يد المنظم الخامس ، وهرعت الى الباب ضربته بقدمي ودخلت . استطلعت الفسحة الصغيرة، وتحيرت: افتح الباب الثاني امامي أم أرقى الدرجات . ازداد توقفي بسبب هذا الاختيار الاحمق ، فضربت الباب الثاني بجماع رجلي ، وارتج محدثا طنينا داويا . أيقنت أنها في الداخل . اقتربت من الباب ثم التفت ، اذ اندفع عثمان من الباب الاول مضطرما .

قال : ـ أعطني السكين . ضربوني .

وهجم علي دافعا أصابعه نحو جيبي الخلفي . أمسكت بيده فشدها للخلف ومد الاخرى .

ـ مجنون . ليست معي سكين . انتبه فأنت تدفعني

ـ اعطنيها .

أمسكت يده فأفلتها . وهاجم الجيب الخلفي مرة أخرى فاستدرت مبتعدا عنه . وطارت يده الطليقة فصدمت وجهي ، ثم انفلتت اليد الاخرى .

ـ مجنون ! هل تعتقد أني أحمل مدية ؟ انتظر . ماذا تفعل . ليست السكين وسيلة .

انقذفت على الجدار . وفي لحظة تواجهنا مثل ديكين متحفزين .

ـ وبعد كل هذا نتشاجر !

ـ لقد أهانوني أمام الصالة كلها . يجب ان يتعلموا الاحترام . والآن أعطني السكين ..

انفتح الباب الاول وتقدم منه المنظمون . أربعة منظمين . التفت اليهم في اللحظة التي رأوانا فيها .

صرخ عثمان : ـ لا تدعهم يقتربون . أعطني السكين .

تفتقت كلماته خشنة شاحبة على وجوههم . وبدونا نحن الستة أشبه بمساجين تقترب من كل منهم جدران الغرفة على انفراد .

قال الثاني : ـ لا تستعمل المدية . نحن لم نأت لنتشاجر !

ـ لماذا ضربتموه اذن ؟

تأهب عثمان ، ووقف منتظرا .

قال الاول : ـ اذا تركنا لهما فرصة الهجوم ، فقد يؤذينا صاحب المدية .

قال الثالث : ـ نحن نمثل النظام فكيف نتشاجر ؟

ـ أريد خطيبتي .

لم يجب أحد . رقيت الدرجات . ضربت الباب الثالث برجلي . امسكت المقبض وأدرته . رأيت دفعة من الفتيات المذعورات ، وفي يد كل منهن شيء للزينة . طوقتني أيد وشدتني الى الخلف . وانصفق الباب بعنف ثم أرتج . دفعت يدي وضربت بالاخرى ، فحرري جسمي . تحديت واستندت على الجدار مادا يدي باستعداد . لمحت عثمان يتحفز عند الزاوية .

قال الرابع : ـ انها شيء يملكه . وتلك وسيلة للتهديد .

ـ أين خطيبتي ؟

قال الرابع : ـ كل ما يجري لا معنى له . مهلا ، انها ملكك ، ولكن اهدأ أولا .

ـ اخرس يا قليل الادب . سوف أمزق وجهك .

قال : ـ لا تقل (قليل الادب) ولو كانت لديك مدية .

ـ وصاااال .. تعالي هنا فورا .

تدافع عثمان والثالث . تفادى الاول ضربة عثمان ومد رجبته .

هجمت . هجموا . دفعت أحدهم فترنح . ضربتني قبضة على صدغي . تلاعبت يداي في الهواء . ضربت وضرب عثمان . وضربوا ، وضربنا كلنا. مسحت حاجبي ، فرأيت على يدي الدم . صاح الرابع :

ــ أهدأوا الآن . ماذا جرى لنا ؟

ابتعدوا الى طرف الفسحة . خفضت يدي ونظرت الى المتكلم . لهثت :

ــ وصاااال !

اندفعت نحو الباب الثاني وارتميت عليه . تنبهت بعد ثوان من غفلة اجبارية فنهضة عن الارض . نظرت الى المكان الذي سقطت عليه ، واصابعي تمسك بمرفقي . قاعة مظلمة جرداء عارية لا تثير غير القرف . شعرت بالغيظ . فظيع اتساع القاعة ، فظيع جدا . من هنا وهناك سح بصيص كهرباء ، فقط ليذكر بالظلمة . من الجدران نفرت مسامير قائمة تحمل ثيابا .

انفجر في ذهني ادراك غامض ، واستدرت للوراء . في زاوية القاعة القريبة خلفي تراكمت أخشاب هشة متآكلة ، وقفت عندها فتيات . رأيت وصال . تقدمت . تعثرت رجلي بالاخشاب ، وسعلت بسبب غبار دخل فمي .

وصلت اليها ، تشد الفتاتان يديها نحوي ، ويتحدب ظهرها الى الجدار ، وفي عينيها تتجمد نظرة مبهورة ــ وجه وعينان أشبه بالمومياء.

شعرت بغتة بألم ذراعي . رفعته نحو أنفي لارى قميصي مبللا .

ــ أرأيت ما سببت لي ؟ قد يكون مكسورا . لماذا لم تجيبي ؟

شيء كالصديد أحسسته يملأ أمعائي . واحتقنت عروقي . انتشر ضباب بني أمام عيني . دفعت الفتاتين بمقت وحشي ، فتعلقت بي احداهن باصرار . دفعتها ثانية فاهتززنا وضرب كتفي بالجدار . تأملت الجدار : كان مفيظا مخرشا ، خشنا ، عاريا . وآلمني كتفي .

عندما تقدمت تراجعت هي .

ــ لماذا لم تجيبي ؟

عيناها مثل المومياء . وكذلك وجهها .

ــ ما معنى هذا ؟ هل ترينني حيوانا منقرضا ؟ عجيب الشكل ؟

تضاغط بين أضلاعي شيء أشبه بجشأة ضخمة . وأحسست أن الدم سيشخب من عرق في عيني . أما وجهها فما زال بلا سيماء ، وأما هي فاستمرت تتراجع لصق الجدار . تعلقت برسغها وشددته، فالتوى مع جسمها . شددته أكثر فصرخت وتهاوت . أمسكت يدها الثانية وشددتها : انها تتظاهر بالاغماء .

أمسكتني من الخلف أياد كثيرة . ومن بين رجلي المتخبطتين في الهواء رأيتها تتهامد على الاسمنت العاري . انتفض صدري بشهيق فظ ثم انفلق . وما زلت اختبط بين الايدي . ضربت بجسمي فطوقوه .

ــ أخرجوه . هذه القاعة بحالها توحي بالقتل .

في الخارج أخيرا ؟ ولم تجد مقاومتي . كففت عن المقاومة واستندت الى الجدار . الفسحة الصغيرة مرة أخرى .

قالت فتاة صغيرة العينين : ــ كانت خائفة من شيء يحدث ، منذ تأخر وضيع المقعدين .

نظرت اليها .

قالت فتاة وهي تتأملني بلا ابتسام : ــ ان له الحق في المقعدين .

نظرت اليها .

أعلى أحد الممثلين : ــ ليأت الدكتور نظام .

فرد أحد المنظمين : ــ لماذا ؟ لقد أغمي على البنت ، وجرح هو ، ونز الدم من أسنان رفيقه . وانتهينا .

نظرت اليهما .

قال ممثل : ــ ((انه يفكر)) . نظرت اليه .

قالت فتاة : ــ ان له الحق في المقعدين . اتركوه فلن يتحرك ، يبدو أنه قد تجمد .

نظرت اليها . تقدم عثمان مني ، ممسكا بمنديل فوق فمه وحاجباه مقفلان . تأملته . تقدمت نحو الصالة وفتحت الباب بحيث تنظر عيناي:

انهم ما زالوا جالسين ، كل على مقعده ، كأنما يتمركزون في أمكنتهم الخاصة لا في الصالة بل في الحياة . صلعة الدكتور نظام تتوهج تحت الاضواء والهمهمة لا تزال . عدت وحملق بي الحاضرون . حملقوا بامعان وتأملتهم انا الاخر .

ــ هل أفاقت ؟

أيقنت من تطلع الوجوه المحيطة بي أن مزيجا من الخوف والدهشة قد عراها ، وفي لحظة أدركت عجزي التام عن أن أفهمهم أي شيء . تحرك بعضهم بلا هدف ثم حملق بي ، وأخذ بعض العيون يتأملني شزرا . شيء كلصقة ضد البرد راح يفرز بلادة هامدة على جبيني . وشعرت بعبث الشرح :

ــ ألا أستطيع أن أراها ؟

لم يتكلم أحد . ونبهني وخز في مرفقي فتذكرت أنه الجرح وتحسسته . تحسست الدم المخثور الرائب . ودخلت القاعة . ورأيتها الى جانبي ، يدها محزمة بالابيض ، ووجهها ممروغ بالطلاء الممسوح وحبيبات الماء . أما فمها ففي محاولة مهزوزة للابتسام ، انسحب الحاضرون والذين دخلوا ، ولم تستدر لتراهم .

قالت : ــ ذهبوا ليستأنفوا التمثيل . لقد توقف فاضطر مدير المسرح لتقديم الموسيقى .

ــ التمثيل . أجل . والموسيقى .

نظرت اليها ، الى يدها . مددت يدي الى بنصري الايمن ، وبهدوء سحبت الخاتم ووضعته في يدها الاخرى . وحدقت الي بعينيها الوضيئتين :

ــ سنغفر كل شيء ! كانت الحادثة بسيطة !

واحتدم صمت . كنت شبه مرتبك .

ــ هذه النفس الموحشة يا وصال . انها سوف يملؤها بالجشآت .

فكرت مرة واحدة فقط عندما حدث ذلك : فكرت أن الرجوع الى الصالة غير وارد وقد خرجت منها ، وأن الذهاب الى المنصة ليس بغيتي ، واذن فعلي أن آتي الى هذه القاعة الكئيبة .. يجب أن نثق بشيء ما اولا . أريد ان نكون مخطوبين بغير هذا الخاتم ، فالاشياء الخارجية لا تبرر لنا كل ما في الداخل . هذا يتطلب كثيرا من التعري والالم ، ولكننا يجب أن نحرق الهشيم في نفوسنا أولا .

كانت مطرقة .

ــ هل ستذهب الآن ؟

ــ أجل .. أعتقد .

انفتح الباب وبرز وجه فتاة شمعي . قالت

ــ بقيت دقيقتان للنمرة التالية ، ويجب أن تعيدي الماكياج .

قالت وصال : ــ اني بالكاد تعرفت على وجهي ، عندما رشوا عليه الماء ، فاصبح غير صالح للتمثيل وغير صالح لغيره .

خرجنا ، لم أشق طريقي بين الحاضرين ، كان واضحا . سرت بينهم دون أن أراهم . رأيت من باب الصالة المفتوح صفا من الاجسام وقد استرخى كل على مقعده .

قال أحد الحاضرين : ــ هل نطفيء الضوء في القاعة ، وصال ؟

وتوقفت داخل الباب ولم تجب ، فقلت له :

ــ كلا ، اتركه مضيئا اذا تفضلت .

صعدت وعثمان الى المخرج الامامي، والهمهمة ما تزال ترتطم بجدران المكان .

ــ ها قد اتفقنا مرة أخرى

قال عثمان : ــ كان يجب أن نترك الصالة منذ البداية

قلت : ــ لا يمكنك أن تترك العالم بهذه السهولة . سوف يبلوك الفيظ .

قال : ــ وما كان ينبغي أن تمثل وصال .

ــ كلنا يا أخي يمثل . الا أن أحدا لم يفقد مقعده ، ما عدانا .

قلت . ومضينا نخترق الطريق .

دمشق

هاني الراهب

يوميات تبحث عن عنوان

بقلم محمد عبدالله الشفقي

يحيى حقي .

الاثنين ١٧ اكتوبر عام ١٩٦٠

حان الوقت لكي أتكلم عن يحيى حقي ... ان الكثيرين يتكلمون اليوم عنه بعد أن ظلموه كثيرا ، أيام أن كان مديرا لمصلحة الفنون ... ما أكثر الذين تجنوا عليه حينذاك... لا ادري لماذا على وجه التحديد... كل الذي أدريه أن الصحف كانت تكتب عنه لا لتشير الى مناقبه وانما لتسخر من « يا ليل يا عين » ... ومن المسؤولين عن « يا ليل يا عين ».

ذلك الرجل الطيب الذي لم يبق من امثاله سوى قلة ! ! لاتكلم بأسلوب العامة : ان من الناس « الامرا » ، من « الريحة » ، من « اللي ما عادش منهم كتير » ! الطيبة تسترخي في عينيه ، وعندما يسير فانما يسير في دعة ، وببساطة ، ومعه عصاه ... وليس غيره من يحمل العصا عندنا ـ من الادباء ـ الا توفيق الحكيم فيما أعلم .

واليوم تفرغ يحيى حقي لافكاره ، فاستطاع أن يقرأ ما يريد ، ويكتب الاشياء التي اشتاق الى كتابتها من قديم لولا شواغل مصلحة الفنون .

واليوم يمدحه الناس بعد أن كانوا يتصيدون في الماضي أي خطأ يمكن الصاقه به . أذكر أن كمال الملاخ ثار ثورة مضرية عارمة ـ على صفحات احدى الصحف اليومية ـ بحجة أن يحيى حقي كان يحاضر ذات يوم ويهاجم الجيوكندا . أشار كمال الملاخ الى حادثة الرجل الذي قذف لوحة الجيوكندا بحجر وكاد يمزقها ، وأضاف أن يحيى حقي قال ما معناه : يا ريته كان قطعها حتت،هيه دي صوره؟ دا السيت فيها متخنخه أوي ... الخ... الخ... وتساءل الملاخ في استنكار : هل يصح أن يصدر مثل هذا الكلام عن مسؤول في مصلحة الفنون ؟ !

ولست متأكدا حتى اليوم مما اذا كان يحيى حقي قد قال هذا الكلام بالفعل أم لم يقله ... ولكن حتى لو كان قاله فما أشك في أن ظرفه ودعابته غلبتا عليه فقال ما قال . وهل يشك أحد في قدرة يحيى حقي على التذوق ؟ لقد حضرت له ندوات كثيرة تحدث فيها عن الموسيقى، والرسم ، والافلام ، وسأظل أتذكر ما قاله عن الفيلم الايطالي « الطريق » الذي قدم في « ندوة الفيلم المختار » . فيلم « الطريق » يرتبط في ذهني دائما باسم يحيى حقي . وهو قد ألف « قنديل أم هاشم » ، و « دماء وطين » و « خليها على الله » . وكتب في تاريخ القصة ، وسمعت أخيرا أنه سينشر كتابا بعنوان « عنتر وجولييت » .

انه من بيئتنا ، من تربة أرضنا ، وفيه دعابتنا ومرارتنا . والى اليوم لم ألتق به ، لم أتحدث معه، وأريد أن يتاح لي هذا اليوم في أقرب وقت .

وهو انسان ، انه يجلس في مكتبه فتتقاطر عليه وفود المحبين له ، والناس الطيبين . دخل عليه أحد كبار الموظفين في مكتبه بدار الكتب يهنئه بعيد الاضحى ، وتعانقا ، وتبادلا القبلات والتهاني . وبكى هذا الموظف الكبير (العهدة على الراوي) . انها لوحة لا نراها اليوم أبدا .

وذات يوم عرف من الساعي أن زوجته مريضة ، وانها طريحة الفراش في المستشفى . وعرف يحيى حقي من الساعي عنوان المستشفى، ومكان الحجرة والسرير ، وفوجىء الساعي بيحيى حقي في المستشفى يسأل عن زوجته ويغدقها بحنانه .

وحكاية أخرى يرويها هذا الساعي اللطيف . نظف المكتب ذات مره، ثم أنهكه التعب ، وهو يعرف أن يحيى حقي لن يجيء الآن ، فلا بأس اذن من « تعسيله » على الاريكة الوثيرة الموجودة بمكتب يحيى حقي .

وتحولت « التعسيلة » الى نعاس ثقيل ، وتحول النعاس الثقيل الى نوم عميق . والذي أتصوره الآن أن يحيى حقي دخل فوجد ساعيه في غرفته وقد راح في سبات عميق وفتح فمه ، وربما أخذ الشخير يتصاعد من الفم المفتوح ، ربما من مقام الدو او الري . واتصور ساعيه وقد ارخى احدى يديه بعيدا عن الاريكة فوصلت الى الارض ، ويده الاخرى مرتاحة الى صدره شبه العاري ، واحدى ساقيه مرفوعة في وضع بهلواني .

ولم يوقظه يحيى حقي ... وتركه حتى استيقظ تلقائيا . وبهت الساعي وطلب منه الصفح والمغفرة ، ولكن يحيى حقي قال له : لا بأس ، ولا تحمل هما ابدا ، وتستطيع أن تكمل نومك اذا كنت في حاجة الى ذلك .

ان حياة وانسانية هذا الاديب قصة أخرى نبيلة تضاف الى قصصه التي تعج باللمسات الانسانية النبيلة .

★

الاثنين ٢١ اكتوبر عام ١٩٦٠

صديقي (راشد) خريج قسم الفلسفة مفكر ، وذواقة ، ويرجى منه كل خير في ميدان الانتاج . وهو خير من يتحدث في « شلتنا » العتيدة عن السينما والاخراج وأساليب التصوير والحيل السينمائية والرسوم المتحركة ... الخ ... وهو يترجم عن الفرنسية ، ويقرأ كثيرا ، ويكتب كثيرا .

ولم أكن اعرف أنه يكتب القصص القصيرة أيضا !

زارني اليوم وبعض الصحاب ... وبعد أن « تجاذبنا أطراف الحديث » كما يقولون ، قال : اسمعوا هذه القصة القصيرة ! وأخرج من جيبه بعض الاوراق . تساءلنا في دهشة : هل كتبتها أنت ؟ فقال : وما الغرابة ؟ ... لقد جربت يدي في هذا الميدان ، وكتبت قبل هذه ثلاث قصص قصيرة ، غير أنها لا تخرج عن كونها مجرد تجارب . ولتتحملوا وتلوذوا بالصبر وتسمعوا التجربة الرابعة .

قلنا : على الرحب والسعة . وضاق البعض ولسان حالهم يقول : وهل لدينا وقت لسماع التجارب ؟

وشرع يقرأ قصته ، وكاد البعض يتثاءب ، ربما لان الليل كان قد تقدم بنا . وأحيانا كنا نقطع تسلسل القصة ونناقشه بعض النقاط ، ثم نتطرق الى موضوعات أخرى ليس لها أدنى صلة بالقصة ، فيغضب ويردنا الى الحظيرة مرة أخرى ، حظيرة القصة ! .... وأحيانا كنا نعترض على بعض الكلمات ، وعلى طريقة اختياره للشخصيات ، وعلى ترتيب الاحداث، وعلى منطق القصة ... الخ ... الخ...

وفي النهاية سألني رأيي . قلت له : انها بداية طيبة ، وان عليه ان يستمر ، وان اختياره لهذا الموضوع يعد تجديدا ، فالقصة تحكي حياة سرير ، وما تقلب عليه من أحداث . لفت نظره الى أن السرير ، البطل ، كان يحتاج الى مزيد من الاضواء ، حتى يظل بطلا ، حتى يظل محورا للقصة ، وان بعض الاحداث الاخرى كادت تخفيه وان كانت متصلة به . واشرت عليه أن يحذف الفقرات الاخيرة اذ لا لزوم لها ، بل ان فيها تفلسفا ليس له مكان في هذه القصة . وعدت مرة أخرى أقول له: لا بأس، انها قصة جميلة جدا ، وهي بداية طيبة ... استمر !

صديق من الجالسين ،الذي لا نشك في قدرته على التذوق وحساسيته الفائقة ، هاجم القصة هجوما مرا ، وقال انها بداية فاشلة لصديقنا (راشد) . وأخذ الآخرون يتناولون القصة بجرأة ، ويتكلمون

باستاذية . والبعض استحسنها وشجع صاحبنا على الاستمرار، والاسراع الى نشرها اذا كان ذلك ممكنا لكاتب ناشيء .

شكرنا صاحبنا لاننا استمعنا الى قصته حتى النهاية ، وتحملنسا رداءتها ، وشجعناه على الاستمرار . وأكد لنا أنه سيحاول الاستفادة من نصائحنا ، وأنه سنيعمد الى تعديل بعض الاخطاء الموجودة في هـذه القصـة .

وعدنا مرة أخرى نتجاذب أطراف الحديث فـي مواضيـع شتى . وعندما استاذنوا مودعين وقف صاحبنا (راشد) ، صاحب القصـة القصيرة ، وقال : اليكم هذه القنبلة ! هذه القصة القصيرة ليست قصتي، ان عنوانها « السرير النحاس » ، وهي للاديب الكبير يحيى حقي، وستنشر في مجموعة قصصية قريبا .

وأبرز لنا الاوراق التي كان يقرأ منها . كانت بخط يد الاستـاذ يحيى حقي فعلا ! !

يا للمفاجاة ! ! لقد ضحك علينا كلنا ، لقد وضعنا في تجربة رهيبة جدا وأخذ يتفرج علينا . وبهت الذين ذموا القصة، والذين ذموها يحبون يحيى حقي الحب كله ، فما العمل ! ! .... وارتاح الذين مدحوها ، لانهم لم يتورطوا في شيء . غير ان كشف السر كان قنبلة لنا جميعا .

وكان صديقنا ، صاحب المقلب ، وصديق يحيى حقي الحمـيم ، يبتسم في شماتة وانتصار . وقال انه ينوي قراءتها أمام كثيرين ، وأنه يهدف من وراء ذلك الى الوصول الى نتائج هامة وهي : مدى تاثرنا ـ في أحكامنا ـ بالاسماء المعروفة ! لو قد قال منذ البداية ان هذه القصـة ليحيى حقي لما تثاءبنا ، لما تململنا ، لجلسنا وكان على رؤوسنا الطير . وعندما ينتهي منها سنظل نتفلسف ونبحث عن مواطن الجمال ، ونفـرط في البحث والتنقيب . وربما قلنا أنها تعبر عن فلسفة معينة ، وأنها نقطة تحول من « كذا » الى « كيت » ، وأنها تعالج المشاكل « الفلانية » ... الخ ... الخ ...

ويهدف صاحبنا ايضا الى الوصول الى نقطة اخرى تتشعب مـن النقطة الاولى وهي : مدى تحاملنا على الاسماء الجديدة . واكد لنا انـه لو ذهب بهذه القصة الى ناشر فانه لايضمن ان يقبلها الناشر او يرفضها واغلب الظن انه سيرفضها !!

★

يحيى حقي يتحدث .

الخميس ٢١ ديسمبر عام ١٩٦٠

الطابق الارضي في « الاتيلييه » يشبه قاعة بوهيمية في فيلـم « الاخوة كرامازوف » ، حيث ترقص الراقصة رقصا غجريا وتعزف الات الكمان الريفية عزفا وحشيا ، والغموض يكتنف قاعة في هذا الطابـق الارضي ، والجو رهيب في عذوبه ، ولا احد في القاعة وانما موائد صامته تنتظر جالسين بعد ان ودعت جالسين .

السلم يفضي الى الطابق العلوي . السلم يطل على الشارع مـن خلال زجاج كنائسي او قوطي تشتبك الوانه في عناق سيمفوني وتـؤلف لوحة غامضة تتضح معالمها كلما ابتعد المرء عنها .

السلم الكنائسي يفضي الى الطابق العلوي ، والطابق العلـوي يقودنا الى قاعة ، والقاعة تحتضن مستمعين ، والمستمعون ينصتون الى يحيى حقي وهو يتكلم عن القصة القصيرة .

والجدران تختفي وراء ستائر من الخيش ، فالقاعة تستقبل دائمـا لوحات الفنانين ، ولا شيء افضل من الخيش كباكجراوند .

يحيي حقي يتكلم بطيبة وتواضع ، ويتحدث عـن خبره ، ويخفـي وراء محاضرته الجادة مرح الناس الطيبين « بتوع زمان » ، يلقى بالنكتـة المغلفة باللغة النحوية ، ولكنه لا يرضى باللغة النحوية اساسا جامـدا للقصة القصيرة .

العمالقة يجلسون في القاعة المغلفة بالخيش ، القاعة التي تـؤلف ارضيتها سقف الغرفة البوهيمية في الطابق الارضي . العمالقة ينصتون، منهم الدكتور لويس عوض ، والدكتور محمد مندور ، واخرون ربما اصبحوا عمالقة في يوم من الايام ، منهم الشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الدكتـور مندور ، والناقد فؤاد دواره والفنان والمترجم رمسيس يونان .

وأناس اخرون لاأعرفهم ولكنهم سيصبحون عمالقة في يوم مـن الايام ... بشيء من الصبر والاستمرار .

الدكتور محمد مندور يمسك بمسبحة ! حبات المسبحة تتساقـط الواحدة وراء الاخرى ، وكانها ستسقط على الارض لولا الحبل الـذي يجمع شملها . الحبة تسقط فوق الاخرى في حركة روتينية رتيبة امنة . الدكتور جالس في هدوء واسترخاء واستسلام ظاهري ، وعيناه ناعستان، وكانه قام لتوه من النوم يسأل : الساعة كام ؟ صوت المسبحة يريـح الدكتور مندور ويساعد على انتظام افكاره في صفوف . ولكنه يزغـج زوجته الشاعرة ، انها تخشى ان يعكر الصوت صفو الصمت ـ ذلـك الصمت الذي يصيخ السمع الى حديث يحيى حقي . صوت الحبـات المتساقطة ربما يذكرها بقطرات ماء تسقط بطريقة مزعجة ، مثيره ، مـن صنبور ينتظر السباك ، والقطرات تسقط في سكون الليل . الشاعرة تهز زوجها بطريقة خفية ، وتشير عليه ان يترك المسبحة الى حين ، الدكتـور مندور يفيق من سباته واسترخائه ويضع المسبحة في جيبه .

الكلام الذي يخرج من فم يحيى حقي مثير . وفي القاعة عمالقـة وادباء شباب ومثقفون وانصاف مثقفين . وفي القاعة شاب جاء مـع صديقه اضطرارا ، والشاب ضيق الصدر بالمحاضرة ولكنه يتصنع الاستماع. واخر يفهم فقرات ولا يفهم فقرات . واصوات خارج القاعة لاناس يروحون ويجيئون ولا يحسون بجدية التجربة التي يمر بها الحاضرون ويمر بهـا المحاضر . واصوات ابواق في سيارات مرحة وابواق في سيارات قلقة، تقفز الاصوات من الشارع وتدخل الى القاعة عن طريق النافذة . وصوت بائع ، ومناد للسيارات ، وصرخة طفل ، وسعال رجل محترم يمر مـن امام القاعة ويتطلع في فضول حائر .

الكلام الذي يخرج من فم يحيى حقي مثير وخطير ، وهي اول محاضرة أسمعها واخرج منها بنقاط كثيرة جدا تصلح كل نقطة فيها لمحاضرة. الرجل يتكلم في سلاسة وعن تجربة ، ويتحدث باسم الفنان ومؤرخ الادب والناقد والانسان ، ولا يهاجم احدا . ان الهجوم عنده يتلخص في عدم التعرض بالدراسة للذين لايعجبونه . وهو يخرج من القصص التي كتبت عندنـا بصورة لمجتمعنا : مجتمعنا فقير ، يحب « الخلفة » ، الامهات عندنـا يعشقن الولد ، الجالس في الترام اعتاد رؤية الاثداء تخرج من الصدور لتلقم الطفل ، وجوستاف فلوبير كتب من القاهرة رسالة يقول فيها انـه لم ير مثل هذا العدد من الاثداء . ومجتمعنا يحب ان يعلم اولاده ، ان يرسلهم الى المدرسة ليتعلموا ويأخذوا « الشهادة » . والمرأة في مجتمعنا مظلومة مضطهدة يتخذها الرجل لنفسه مطية .

ويشير يحيى حقي الى ظهور روايتين ، كمقدمة لادب المرأة فـي ميدان الرواية الحديثة : كوليت خوري في « ايام معه » ولطيفة الزيات في « الباب المفتوح » .

ويتكلم عن مشكلة اللغة في ادبنا ، وتعسف البعض في المطالبـة باستخدام الفصحى لدرجة ان على احمد باكثير ـ عندما طلب منه المسرح تقديم مسرحية بالعامية ـ كتبها بالفصحى واعطاها لصديق ليحولها الى العامية . ويحيى حقي يقف في صف الذين يستخدمون العامية ، ويحبذها في الترجمة ، ولكنه يرى ان نعمان عاشور « زودها حبتين » عندما طالب بترجمة مسرحيات شيكسبير باللغة العامية .

ويطلب من الادباء الناشئين الا يهتموا بتجويد كتاباتهم قـدر اهتمامهم بتجويد ملكاتهم الحسية اولا . افتحوا عيونكم جيدا وتفرجـوا على هذا العالم . وافتحوا آذانكم واسمعوا مايقال . وانفعلوا ،واستخدموا عقولكم وقلوبكم .

ويكتشف ان مستوى القصص القصيرة المقدمة في مسابقة نـادي القصة هو اقل من جيد ، وشاب في حفل توزيع الجوائز في المسابقـة يشكو اليه من انه لايجد مايثيره ويجعله يعبر عنه .

ويعجب يحيى حقي بنجيب محفوظ الاعجاب كله ، ويرشحه لجائزة نوبل !! ويؤكد أن الروائي الكبير اسعده الحظ بالذهاب الى كلية الاداب قسم فلسفة ، فعندما كتب رواياته كانت تقف وراءها فلسفة عميقة .

ويشير الى الشكل في القصة القصيرة .. ان القصة القصيرة في شكلها الحديث ، تشبه القطعة الموسيقية .

المحاضرة تنتهي ، ويحيى حقي يطوي اوراقه ، والجمهور يصفق ، والدكتور محمد مندور ينظر الى المحاضر في استرخاء ، وينسى ان يصفق ولكن زوجته تصفق ، وربما تذكره ، بحركة من يدها ، ان المحاضر انتهى، وان الناس يصفقون ... واخيرا يصفق .

همهمات خفيفة .. وسعال .. وتحيات يتبادلها الاصدقاء من بعيد لبعيد .. ويقف الدكتور لويس عوض ليشكر الاستاذ يحيى حقي . أوه ... من زمان لم نر الدكتور لويس عوض ، هذا العبقري ! ويشكر المحاضر، ويعدد مناقب المحاضرة ، ويلتفت الينا : هل هناك اية أسئلة ؟ ويلتفت كل واحد منا الى الاخر ، ويتوقع كل واحد منا ان يقف شخص ويسأل . ولكن ، لا احد يسأل .

احسسنا بالشبع . ولم يوقع المحاضر الحيرة في قلوبنا . وقد حل لنا كل المشاكل . ولم يترك لنا مانسال فيه . ونصفق مرة اخرى ،ونخرج، ونهبط على درجات السلم الذي يطل على الشارع من خلال زجاج كنائسي او قوطي تشتبك الوانه في عناق سيمفوني وتؤلف لوحة غامضة تتضح كلما ابتعد المرء عنها .

✶

يحيى حقي والزمن .

الاحد ٧ يناير عام ١٩٦٢

هذه الليلة تذكرت مبلغ الالام التي قد يعاني منها الفنان في خريف حياته . ان الفنان الذي يعيش خريف حياته يعاصر جيلا جديدا من الفنانين الذين قد يتمردون عليه وينظرون الى فنه نظرتهم الى شيء عتيق ، شيء رجعي ! فاذا كان فناننا العجوز مغرورا فانه سيرميهم بالتفاهة والسفه وسيقول انهم يتصرفون بطريقة صبيانية . اما اذا كان متواضعا فانه سيتألم في صمت ، وسيقرأ - خفية - انتاج الصغار ، وفي كثير من الحالات لن يفهمه !

أكاد استثني من هذه الحالة اديبنا الكبير الاستاذ يحيى حقي . انه شاب في مشاعره ونظرته الى الحياة ،ومن اجل ذلك نجح في تذوق ادب ابنائه . وهو يتعاطف مع الادباء الشبان ويشجعهم في صدق .

✶

واخيرا في بيته !

الاحد ٧ يناير عام ١٩٦٢

لاباس من ان اتكلم عن يحيى حقي مرة اخرى . لست ادري ... ربما تكلمت عنه مرات ومرات ،صدقوني : انه يستحق ذلك .

رأيت يحيى حقي لاول مرة في « ندوة الفيلم المختار » التي كانت مصلحة الفنون « التابعة آنذاك لوزارة الثقافة والارشاد القومي » تنظمها. وكان الغرض من هذه الندوة تقديم فيلم اجنبي او محلي ممتاز كل يوم خميس ، وعرضه على الجمهور بأجر زهيد ، ثم مناقشة الفيلم مناقشة تفصيلية بعد العرض . وكان الفيلم الذي يعرض في تلك الليلة التي لاانساها هو فيلم « الطريق La Strada » الايطالي .

ووقف يحيى حقي عقب انتهاء الفيلم يتحدث عنه ، ويدلي بخواطر دقيقة مرهفة . وأحسست بسعادة ، هاأنذا اجلس امام الرجل الذي لم اكد ارى صورته الا في الجرائد والمجلات . كان الانطباع الاول الذي تركه وجهه في نفسي هو احساس بالطيبة والوداعة . ان وجه يحيى حقي وجه رجل طيب ، امين ، نزيه ، مسالم . وجه يحيى حقي وجه رجل وديع .

غير ان هناك اناسا مسالمين وامناء ولكن في تعنت وكآبة . لا يمكن ان نضع يحيى حقي في هذه القائمة .. مستحيل .. انه ينثر الدعابة في كلامه الجاد مثلما تنثر ست البيت حبات الفلفل في طعام تم طهيه بعناية.. ورايته بعد ذلك في ندوات كثيرة ، ندوات سينمائية وندوات موسيقية ، وندوات ادبية .

وفي العام الماضي فقط ، عام ١٩٦١ ، وبعد مضي سنوات عديدة على انطباعاتي الاولى ، كنت ادق جرس شقته في محطة روكسي ... ولم اكن اصدق نفسي ! اخيرا أزور اديبنا في بيته .. بالتواضعه .. ذلك التواضع الذي جعله يرحب بي في حرارة عندما أفضيت له برغبتي في ان اجلس معه لحظات .

وانا ادق جرس الباب كنت اعد نفسي للسؤال التالي : البيه موجود؟ ولكن لم يفتح لي الباب عبد أبنوسي ، وانما فتحه حقي نفسه ، وكان يرتدي جلبابا أبيض اللون . يا للروعة ! انه يطبق البساطة في حياته مثلما يطبقها في فنه .. البساطة والصدق وعدم التكلف ... وتقدمني الى حجرة مكتبه .. لن نجلس في حجرة الصالون .. جميل جدا .. افضل الجلوس في معمله . ان معمل أي فنان هو السر الذي يتشوق محبو الفن الى اكتشافه .

انت رائع يا يحيى حقي . حجرة المكتب بسيطة للغاية ، ليس فيها افتعال او تكلف او تنميق . المكتب منزو في ركن ، ووراءه مكتبة بسيطة تناثرت فيها الكتب بغير نظام . والمكتب نفسه يختفي تحت اوراق كثيرة وقواميس وكتب وكراسات واقلام . وثمة مقاعد متناثرة ،مقاعد طيبة هادئة تستريح الى الارض في غير تكلف .

والشمس تتسلل الى الحجرة في طمانينة وألفة !

سأكون صادقا امام نفسي .. في الوقت الذي اعجبت فيه ببساطة الحجرة أحسست بدهشة طاغية وظللت لحظات صامتا حائرا .. مرجع الدهشة والصمت انني لم اكن اتخيل ان تكون حجرة يحيى حقي على هذا النحو . أهكذا يعيش الادباء .

واحسست بالخجل بيني وبين نفسي ، بالخجل من غروري ،والاحلام التي كنت أرسمها لنفسي وأتصور فيها حجرة مكتبي عندما تتوفر لدي الامكانيات المادية والابداعية . قبل ان أزور يحيى حقي كانت صورة مكتبي في المستقبل تحتل حيزا كبيرا من احلامي . الحجرة جميلة مربعة، تطل على منظر طبيعي . وحائط في الحجرة تتوسطه نافذة كبيرة جدا أسدلت عليه ستائر شفافة حالمة . وقنديل من البندقية « لماذا من البندقية بالذات ؟ » يتدلى من السقف والارائك الوثيرة ذات اللون الرمادي الداكن تحتل جانبا اخر من الحجرة . وديكور غريب - صممته في ذهني - يتدلى من السقف ، عند احد الاركان . الديكور يتألف من شبكة صيد ، شبكة صيد منسية خاضت البحار للسعي وراء الرزق ثم استراحت عندي . تتدلى الشبكة في اهمال وقد بسطت احد أذرعها على الحائط ، وبجانبها قنديل يضاء بالبترول ، معلق في بساطة ، زجاجه قابع وراء سياج معدني متشابك الخطوط .

والمكتبة انيقة جدا ، وجميع الكتب مجلدة ، والمكتب من خشب الماهوجني ولكنه بدون ادراج . لست احب مكتبا بأدراج . مافائدتها ؟ الكتب توضع في المكتبة والاقلام في فازه صغيرة على المكتب والنقود في الجيب والاوراق التي اكتب فيها داخل دوسيه وليست هناك اسرار اغلق عليها الادراج . ثم ان الادراج تشوش ذهني لحظة الكتابة ، وانا حين اكتب احب المكتب خاليا من كل شيء ، ليس عليه سوى الورقة التي اكتب فيها .

وسجادة انيقة تتوسط الحجرة .. سجادة من لون واحد ، وثيرة توحي بالدفء والكسل .. و .. و .

وافقت من خواطري على صوت يحيى حقي يرحب بي في الحجرة البسيطة بساطة قصصه . وخجلت من نفسي .. انا متحذلق .. انا انتحل المعاذير .. هل المكتب الفخم والمكتبة الرائعة هما اللتان سيكتبان لي ؟ ان الفنان الاصيل يكتب في أي مكان طالما ان الابداع يواتيه ، طالما ان ابداعه غزير غزارة الشلال . ألا يسجل بعض الفنانين ارهاصات ابداعهم على علب السجائر او في قصاصات ورق قذره ؟

سالني عن دراساتي وعملي وسني واحلامي ، سألني في اهتمام وعطف ابوي ، وعندما عرف انني اترجم أكد لي ضرورة الاهتمام بالقواميس لا القواميس الافرنجية فقط ، وانما معاجم اللغة العربية ايضا ، لكي انجح في اختيار الكلمة الصحيحة ولا اقع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرون من المترجمين ممن يجيدون اللغة الاجنبية التي ينقلون منها ،غير انهم لايجيدون العربية .

ونهض – وما اكثر مانهض اثناء جلستنا – واتجه الى المكتب وانتشل من بين الكومة المبعثرة كتاب « المعجم الوسيط » الذي اعده ونشره المجمع اللغوي . وتحدث عنه ، وعن فائدته ، خاصة وانه ظهر حديثا . ولمحت قصاصة عريضة سمراء في اول الكتاب ، مكتوبة بخط يده ، وحاولت ان اقرأ بعض سطورها . كان يتحدث في هذه السطور عن « المعجم الوسيط » ، ويجمع بعض الحقائق ، ويدلي بخواطره ورأيه فيه . شيء جميل ان ترى اصول كاتب ،انك أشبه بمن يتعرف على خبر لم يذع بعد.

يبدو ان يحيى حقي يكتب دائما في قصاصات عريضة سمراء كهذه ، وبالقلم الحبر ، وبتواضع . والمحاضرة التي كان يلقيها في « الاتيليبه » نقاطها كانت مدونة في قصاصات عريضة سمراء . وقلت له ، في تعثر ، انني اخشى ان اضيع وقته ، خاصة وان وقته ثمين . فأكد لي انني لم اضيع وقته ، وانه كان يترجم قبل حضوري ، ومنذ ساعة مبكرة من الصباح .

آه .. الترجمة مرة اخرى !

مسرحية ... لمترلينك .. وهو يترجمها الى العربية ، عن النص الفرنسي ، ولكنه فتش ايضا على الترجمة الانجليزية الى ان عثر عليها. وهو يضع النص الفرنسي والنص الانجليزي امامه ويترجم ويقارن ،ويتأمل الفروق والمفالطات مليا . ويخرج في النهاية بترجمة يتوخى فيها الامانة والجمع بين الحسنيين ، بين احسن مافي النص الفرنسي واحسن مافي النص الانجليزي .

تعرض في النص الفرنسي لمناجاة موجهة لليل ، والمناجاة تخاطب الليل كما لو كانت تخاطب أنثى . ووقف يحيى حقي عند هذه المناجاة طويلا ، كيف ينقلها الى العربية والليل في العربية مذكر والمناجاة تستمر في النص الفرنسي وتصف الليل صفات أنثوية ؟ وقرر يحيى حقي ان يترجم الليل الى : حلكة الليل ! وارتاحت المناجاة العربية الى هذا القرار الحاسم واشتدت : يا حلكة الليل .. ايتها الالهة التي ..الخ..الخ

واقبلت زوجته الاجنبية الفنانة ، وقدمني لها بالفرنسية ، وكانت في صبيحة هذا اليوم تقوم بدور ست البيت بعد ان رأيتها في دور الفنانة في المعرض الذي اشتركت فيه ببعض الاعمال الفنية المصنوعة من الفخار . كانت اعمالها مثار الاعجاب . واذكر انني التقيت بالاستاذ يحيى حقي في هذا المعرض ، وطاف بنا في الركن الخاص بزوجته ، ووقفنا طويلا امام سبعة نماذج تمثل الخطايا السبع . ياللروعة ! كيف عبرت عن الخطايا بالنماذج الفخارية الجمدة ؟ كيف صورت الحسد مثلا ؟ لقد صنعت له تمثال رجل او امرأة « لا اذكر » يسير ولكنه يلتفت وراءه يحسد الرجل الذي مر به، يلتفت وقد زوى مابين حاجبيه . الخطايا السبع !! محاولات ، ناجحة ، لتجسيد مفاهيم معنوية لا تعبيرات حركية !

وجلست قليلا ، ونهض يحيى حقي واحضر شيئا من انتاجها ، وكنت اعبر عن اعجابي بالكلام ، فيترجمه يحيى حقي الى الفرنسية .. أحسست بسعادة : فنان متزوج من فنانة ، واجمل من هذا ان كلا منهما يمارس فنا مختلفا ، وبذلك يحس كل واحد منهما بالمشاركة والعزلة في نفس الوقت . انني لا اتمنى – اذا كنت اكتب مسرحيات – ان تكتب زوجتي مسرحيات . افضل ان تقرض الشعر او ترسم . حينئذ تتحقق الالفة والمشاركة في الفن ، بمعناه العريض ، وتتحقق في نفس الوقت تلك العزلة ، وذلك التفرد الذي لابد ان يحس به الفنان حتى يستطيع ان يبدع عن ثقة .

ونقلت خواطري الى يحيى حقي في صوت مهموس ، وابتسم .. وخيل الي ان ابتسامته تؤمن على كلامي .

جلست عنده طويلا .. وظل يتحدث .. ولكنه ترك لي فرصة كبيرة للكلام . ويبدو ان يحيى حقي ينصت اكثر مما يتكلم .. ينصت ويستوعب ويتاملك طويلا وانت لاتدري .. وقد تدخل – وانت لاتدري ايضا – في احدى قصصه القصيرة المقبلة .

القاهرة   **محمد عبد الله الشفقي**

ساعة لا تزال تدق ...

قصة بقلم علي بدور

الموت فكرة قد لا تخطر على البال في أحيان كثيرة .. ولكنها قد ترد في بعض الاوقات التي يكون فيها الانسان غير مستعد لمناقشتها او حتى لمجرد الاحساس بها .

وأنا انسان أفكر بالموت منذ زمن بعيد . لعلي منذ وعيت الحياة وأنا أفكر به . وأتذكر الآن بمنتهى البساطة انني عندما كنت صغيرا وفيما أنا عائد الى المنزل سمعت مناحة بالقرب من منزلنا .. فدخلت مع الداخلين ، لاجد فراشا قد تمدد فوقه رجل طويل مغطى بشرشف أبيض وسمعت صياحا وعويلا .. وعرفت بعد لأي انه انسان ميت . وعلى الرغم من ان منزلنا انذاك كان مجاورا للمقبرة وكانت أمي تقضي عصر أكثر ايام الربيع والصيف والخريف في المقبرة مع صويحباتها من نساء الحي .. ورغم ما كنا نقوم به انا وأطفال الحي من لعب فوق القبور .. الا ان الموت كفكرة مجسدة لم تقترن بشيء حسي . الا عندما شاهدت الرجل وهو مسجى وقد غطي بشرشف ابيض .. وزاد هذه الصورة ألما وتعاسة قصة رواها علينا ذات يوم أبي تتلخص بأن أحد اصدقائه توفي فجأة .. ودفن بالمراسم المعتادة ، وفي الليل تفقد اخوه محفظته فلم يجدها وكانت تحوي مبلغا كبيرا من المال وبعض الاوراق الهامة وظن الاخ ان محفظته في القبر لانه تحسسها وهو يعاون في انزال جثة أخيه الميت الى القبر .. فقام لتوه وطرق الباب على حارس المقبرة وكشف القبر .. ولكنه لم يعثر على المحفظة فحسب ، بل وجد أخاه وقد مزق كفنه وجلس القرفصاء في زاوية القبر .. ميتا ، لقد صحا الميت من السكتة القلبية ليجد نفسه في صندوق حجري مغلق عليه الى الابد .. فأماته فزع لا يصور .. وخوف ليس لهوله حدود .

فاذا ما مضيت بأفكاري هذه عن الموت تصورته دائما وقد لبس لبوس انسان ميت مزق كفنه وجلس القرفصاء في زاوية القبر ، واذا تابعت أفكاري هذه حتى النهاية أحسست برياح الخريف تهب علي واشجار السرو المنتصبة فوق القبور تهتز وتتمايل ، وطيور سود تعبر المقبرة وكأنها من الحرس تبعد عن أرواح الموتى ما ينغص عليها سكينة الحياة الثانية والراحة الابدية .

وعندما توفي أبي ، كنت مسافرا . ولا أدري لم خفت مواجهة الموت وجها لوجه هذه المرة .. وعدت من السفر لاجده مدفونا وفوقه تلة من التراب وحجارة مصقولة . ومنذ أن توفي والى اليوم أبعد هذه الخاطرة عن ذهني قدر ما أستطيع رغم ورودها بكثرة في بعض الايام .. لانني أعتقد أن عطف ابي وحنانه لا يعوضان فاذا ما أرخيت لنفسي العنان وتذكرت كل شيء فأنني اعتقد ان شجاعتي سوف أفقدها سريعا وكذلك ارادتي ولا أدري ما سوف يصيبني بعد ذلك .. ولهذا فأنني رغم بلوغي الثلاثين لا أعرف عن الموت الا أشياء بسيطة هي رؤية ميت مسجى وقد غطيت جثته بشرشف أبيض وزيارة المقبرة في المناسبات والتعرف الى الموتى عن قرب ، والحزن الهادىء المستمر على أب مضى وحيدا الى عالمه ..

كانت هذه الافكار تطوف في مخيلتي وانا ألبي نداء احد اقاربي لحضور تشييع جنازة عمي الذي اسلم الروح صباح هذا اليوم .

في الطريق .. كنت احس ان كل شيء يتحرك دون ان يعبر تحركه هذا عن شيء .. حتى ذهابي الى بيت عمي كان من العبث الذي لا معنى له .. ولكنني لا استسلم عادة لاول موجة من مشاعري .. اذ المعول ان اتفحص الموجة الثانيه .. فلما اقبلت كان تساؤلا فحسب ! ! من اين ؟ والى اين ؟ ورغم انني لم الق جوابا الا انني حثثت خطاي لاكون على مقربة من الاهل والاصحاب عند تشييع الجنازة الى المقبرة .

ان عمي قد استنفد حياته . عاش ثمانين سنة لم يدخن في حياته مرة ولم يشرب الخمر .. وكل ظني انه كان رجلا مستقيما قنوعا بوظيفته البسيطة يقضي اوقات فراغه في تلاوة القرآن الذي حفظه وتعليم بعض الراغبين حفظه عن غيب . وقد تخرج على يديه عدد لا بأس به من هؤلاء الطلاب الحفظة وكانت له قدرة على الصبر جد عجيبة وكان بين طلابه عدد من العميان .. فكان يتلو عليهم الاية فيعيدها احدهم . ويتلو الثانية وهكذا ، ثم يعيدها ، ويفعل مثله الطالب الى ان يحفظ القرآن كله . لقد كان انسانا صبورا قنوعا ، لم يكن رزقه وافرا ولكنه كان باسما راضيا وكانه في اسعد حالاته .

وخرج عمي محمولا على الاكتاف وسعينا به الى المقبرة .. ووقفت ارقب عملية الدفن بدقة . كان في القبر بقايا انسان .. انها عظام جدي .. ووسدت جثة عمي وهي ملفوفة بالكفن الابيض .. والدفان يقوم بالعمل وكانه لا يحس بما يجري حوله لكثرة ما انزل من الجثث الى اعماق القبور ... وبسرعة ستر الدفان الحفرة بصفائح الحجارة .. ثم اهال عليها التراب وترك عمي وحيدا وسط ظلمة القبر .. ويا لها من ظلمة داجية !

كنت إفكر في الموت هذه المرة خلاف تفكيري السابق ... انّ العملية في منتهى البساطة اذ يعيش الانسان قليلا او كثيرا من الاعوام .. ثم يموت بحادث مفاجيء او علة ما .. ويدفن .. وهذا كل شيء .. ومهما خلف الانسان وراءه من ذكرى او عظمة او مجد .. فان ما خلفه سيبقى محصورا بجيله وبمجتمعه . والحياة اليومية قد تصرف الانسان عن حاضره ولكنها كثيرا ما تصرفه عن مستقبله فكيف ستسمح له بان يهتم بالماضي .. وباهله .. وبمن طوته يد الموت منهم بخاصة ؟! في الواقع ان هذا يحدث عادة .. وسرعان ما يشمل النسيان كل شيء ..

وفيما كنت افكر مثل هذه الافكار المتعبة بحيث لم اتقبل الموت تقبلا عاطفيا لا بكي او انشج .. حاولت أن ارقب

الناس الذين تحلقوا حول القبر ، فوجدت بعضهم صامتا ، وبعضهم يبكي بهدوء .. وقلة منهم كانوا يبكون بعنف .. وكان بعض هؤلاء الباكين من اصدقاء عمي او من تلامذته الذي انفق سنوات في تعليمهم القرآن .. ووقفت طويلا عند واحد من تلامذته .. لقد امضى مع عمي ثلاث سنين وهو يتردد اليه صباحا ومساء الى ان حفظ القرآن وقامت بينهما علاقة التلميذ باستاذه وقد زادها عمي التلميذ حدة خيال بحيث شعرت ان هذا التلميذ وهو يبكي استاذه كان يبكي في نفس الوقت حظه التعس بان لا يعرف استاذه الا من صوته والا من مصافحة اليد . وقد اثر في نفسي هذا المنظر الى جانب انزال الجثة الى القبر وطمرها بالصفائح والتراب .. ولكنني لا ادري كيف عدت الى الموت من جديد ذلك الذي ينهي كل شيء : وكانه الساعة التي تكف عن الدق بمجرد ان ينتهي رباطها !

كانت الشمس تميل الى الغروب ورائحة الارض التي شربت كثيرا من ماء السماء تملأ النفس برائحة الحياة .. والمقبرة ترفل في هدوء عجيب .. انه الهدوء الابدي .. وفيما كنت اعود مع المشيعين الى المدينة احسست بدبيب الحياة من جديد. لقد كان المارة يسرعون واصحاب الحوانيت يحدثون الزبائن والاطفال يلعبون والعربات تطلق زماميرها فاشعرني ذلك كله انني اعود الى الحياة بعد رحلة قصيرة الى عالم اخر كله هدوء وصمت !

ولكنني رغم ذلك كله .. فانني لم استطع الخلاص من الصورة المعبرة التي ارتسمت في عيني ونفسي وانا واقف فوق القبر .. لقد كان وجه التلميذ الاعمى وهو يبكي بحرارة وصدق ، استاذه الذي مضى ماثلا امامي بحيث بات صعبا ان تمحوه بسهولة ما اراده من مناظر واناس .. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي لماذا لم ابك؟ بينا التلميذ بكى بحرقة والم ، وظل هذا السؤال يتردد في نفسي ساعات وساعات الى ان جاء المساء ودلفت الى المنزل فالفيت فيه هدوءا عجيبا وراحة لا تعوض .

حرصت جهدي ان اكتم خبر الوفاة عن امي .. انها امرأة تحزن بسرعة . وتبكي في كل وقت طبعا انني لم اكتم الخبر عنها لهذه الاسباب فحسب .. بل فعلت ذلك لانها مريضة .. وانا الوحيد الذي قدر عليه ان يداريها ، فلم اشأ ان اثقل عليها بخبر الوفاة ؛ لابعد — قدر ما استطيع — فكرة الموت عن بالها .

انني منذ اعوام عديدة وانا اخاف ان تذهب هذه الام ايضا كما ذهب عمي اليوم .. وعلى الرغم من ان الخوف في مثل هذه الحالات لا يجدى او يفيد اذا وقفت ساعة الانسان عن الدق بعد ان ينتهي رباطها، فانني وبشكل عاطفي ليس له مبرر عقلي اعتقدت منذ مدة طويلة ولا ازال بانها ستعيش ابدا .. لعدم استطاعتي تصور ذهابها وبقائي وحيدا بعدها

شعرت بضيق شديد .. البيت مقفر ليس فيه احد يستطيع الكلام سوى هذه الام ... ولكنها نائمة وهي في نومها ساكنة . مطمئنة ؛ وقد اعتدت ان اوقظها كلما عدت من السهرة ولو كانت نائمة ، فاحدثها وتحدثني ولو بضع كلمات ريثما اغير ثيابي واقذف بنفسي في السرير البارد .. وحيدا .

عاودتني صور الموت في الظلمة ... كانت صورا لامعة ابرزها الكفن الابيض الذي لفت به جثة عمي وجه التلميذ الباكي .. حاولت جهدي ان ابعد هذه الصور عن عيني ومخيلتي فلم استطع .. تمنيت لو كان الى جانبي انسان اخر احدثه فلم اجد سوى امي التي عادت الى النوم من جديد .

ولا ادري كيف سمعت صوت انسان باك ... حسبت ان الامر مجردوهم .. ولكنه كان حقيقة .. انه يبكي فعلا وعلى مقربة مني... وتأكدت بعد لحظات ان ذلك الانسان هو التلميذ الذي كان ينشج فوق القبر اكثر مما يستطيع .. ولاول مرة في حياتي اعتراني حزن رقيق صاف ، بحيث صرفني عن التفكير وترك لنفسي حرية التصرف بما فيها من عواطف ومشاعر ، وبما ينتابها من افراح واحزان .

كانت السماء مضيئة بنجومها والقمر سيد النجوم مسمر امام نافذتي وامي تغط في نوم عميق ، وبي من الخوف عليها أكثر مما أطيق التعبير عنه .. والموت مثل الممثل العبقري الذي انفرد بالمسرح فاخذ يخطر فوقه .. وهو يغير في كل دقيقة ثيابه ، ويحظى باهتمام النظارة اولئك الذين يفدون على الحياة حتى اذا استهواهم الممثل وقام احدهم ليراه عن قرب من خلف الكواليس مضى دون ان يعود !

واحسست بضيق خانق لم استطع التعبير عنه الا بدموع صامتة لست ادري كيف طفقت اتحدث بها الى نفسي .. دون ان ادقق كثيرا على بواعثها واسبابها اذ كان يكفيني ان اطرد هذه الالام عن نفسي فلم تجد الالام غير عيني منفذا لها .

استرحت بعض الشيء .. وعاودني التفكير من جديد ، في معنى هذه الدموع أهي من اجل ابي الذي مات دون ان اكون حاضرا تشييعه ؟ ام من اجل ذلك العم الذي مضى اليوم ؟ ام لخوفي على هذه الام المريضة التي قد تمضي دون ان اكون مستعدا لوداعها في الوقت المناسب ؟.. وخاصة اذا كان رحيلها فجائيا كما لو ان ساعة وقفت عن الدق لان رباطها قد انتهى ..

ووقفت في تفكيري مدة اطول وانا ابحث عن سبب ابرز فيه دموعي ، فوجدتني احدق من خلال الظلمة في وجه التلميذ الباكي بلحيته السوداء . وادركت ولو بوقت متأخر ان اكثر دموعي كانت لاجل ذلك التلميذ الذي بكى ساعات صادقة من الود قضاها في صحبة استاذه .

وابتسمت رغم كل شيء. لانني شعرت ان الحياة جميلة .. واجمل ما فيها ان الانسان يستطيع ان يبكي بصدق تلك الساعات الصافية التي تمر به وهو يعيش حياته مع الاخرين .

وزادت طمأنينتي عندما تلفتُ الى جانبي فوجدت امي المريضة وهي تغط في النوم وابتسمت ثانية لان ساعتها كانت لا تزال .. تدق !

علي بدور

قمر اخضر

موال اخضر
يطرق باب الليل المقمر
في قاع القريـه
والقمح على الساحة تل حصيد
يندى من حبات العرق المسكوب
لم تطرق عين
لم يغمض جفـن
ونساء تسترق السمع
كان حنين جواب يحتضن الجمع
عبر نسيمات الحقل
والسامر معقود الشمل
وخطى تسرق لحن الصمت الممدود
والموال الاخضر وتر مشدود
تقطعه صيحة قادم
يحمل للسامر صوت العالم
والعالم يحمله قلب القريه :
يا رفقاء
ماذا لو عاد الاجداد
فرأوا قمرين يدوران
فوق حقول القمح
ذات مساء ..؟
الليلة يطلع من ارض الانسان
قمر كالنجم يرف ضياء !!

ماذا لو عاد الاجداد ؟

ـ ٠ ـ

وتلاقت في الافق عيون
لم تسكب نورا فوق كتاب
لم تعرف من سر الاكوان
غير رغيف من صلب الحي العاني
ممزوج بالعرق الناضح ، بالدم ...
وانساب الموال على الوديان :
الارض الام تمخض كل صباح
بالخبز الهانيء ، بالافراح
جدولها الصافي لم ينضب
طينتها السمحة لم تجدب
لكن الانسان يغول الانسان
يطعمه جمرات الحزن
يسلمه ويلات السجن
والام تضم شغاف القلب
وتمد ظلال الحب
وتسيل على الابناء عطاء ..
ماذا يجني الطواف بدنيا الغرباء
غير حنين العودة للارض الام ؟
ما زال العيش بخير
لكن الوحش الوالغ في الدم
يذرو عود الورد الفض
يحجب وجه القمر الفضي
يغصب بسمات الاطفال
ماذا لو عاد الاجداد
والعالم يسبح في موال
تحت سماء القمر الاخضر ؟

حسن فتح الباب

المغناطيس والجنس الآخر

قصة بقلم عبد الفتاح حسن

فتاتي الرائعة تتخطى الخامسة والعشرين بسرعة . ولكنها تنكر ذلك وتحاول دائما الظهور بمظهر الفتية ، المراهقة .. فهي أملدانية القد مثيرة . واقول فتاتي تشاوفا ليس الا فما بيني وبينها لا يعدو الكلام والنظر والابتسام .

مرة ، تقدمت مني اختها الصغرى ، وبيدها كتاب العلوم ، وطلبت الي ان اشرح لها حقل المغناطيس واتجاه برادة الحديد الممغنطة .

وانتهيت . ورفعت نظري اليها فاذا هي تتفرسني بتأمل وتحد . ثم قالت بخبث فضحت تستره عيناها الجريئتان .

ـ « ما هو المغناطيس حقا يا استاذ ؟ »

وقبل ان اجيب عرفت انها ستنزهني في خميلة نقاش عاطفي رائع حتى تسكرني ثم ، كعادتها ، ستطوح بي من شاهق .. وتنفض يديها . ومع اني كنت اخرج كالمقضي علي عند كل مساجلة الا انني اعترف بانه كان يلذ لي الحديث معها والتطلع اليها . لذلك لم اشأ ان تمر شرارتها دون اشتعال ، فقلت وكأني القي درسا في العلوم :

ـ « المغناطيس .. قوة جاذبة . » وسكت ... وابتسمت واسندت رأسها بقبضة يدها

ـ « واين توجد هذه القوة ؟ »

فأجبت بلا مبالاة ـ مصطنعة طبعا ـ

ـ « في المعادن .. في الكهرباء .. (وفتحت عينيها) وفي مركز الارض ايضا ..

ولهذا نحن مشدودون الى الارض .»

ـ « ولكني لا احس هذه القوة الجاذبة تشدني الى الارض ... وبالعكس اراني طائرة دائما في اجواء بعيدة ، وعوالم ليس لها حدود .»

واطلقت ذراعيها كجناحين ثم عقدتهما تحت نهديها فاندلقا في عيني وضحكت ـ او حاولت ان اضحك ـ وانا امرغ نظراتي على وجهها وصدرها .

وواصلت كلامها :

ـ « لماذا يا استاذ ؟ هل تستطيع ان تفسر لي هذا »؟

ـ اجل .لانكفيالثامنة عشرة »

واشتعلت وجنتاها

ـ«لا تقل هذا . (وبرق في عينيها وميض نارها) لقد ذهبت بعيدا» فاستدركت :

ـ « ولكنني على الطريق اياه »

ـ كلا .. ان حديثنا عن المغناطيس ليس غير » .

واما لت نظرها جانبا وهي تغالب ابتسامة ساحرة تشبثت بشفتيها المتلثتين . واجبت متسائلا ..

ـ حقا ؟ انني آسف »

وكأني بها اصيبت في صميمها فخاب املها في وصل الحديث مرة اخرى . واسندت رأسها على الكنبة .. ورقصت رجلها قليلا فاذا الرغبة ـ رغبتي انا ـ تنتفض في ساقها ، « يا الهي ! الهذا الحد اشتهيها ؟ لماذا لا يصعد الحب مرة الى رأسي ؟ ولكن ما بالها هي ايضا؟ هل يمكن ان يكون مصدر هذا الفيض من التأثر خجلا مصطنعا ؟ انا اعرف انها تلون عواطفها بالف لون ، وتوجهها بسرعة الوجهة التي تريده دون اظهار اي أثر للتكلف .. ولكم صدقتها ، وتوهمت ان لي في قلبها مكانا ، فكنت لعبتها . ولكنني هذه المرة اشك في تلونها وتكلفها .. ان في قسمات وجهها اشارات جديدة علي .. لا افهمها وعيناها ما بالهما ؟ لماذا تغمض عينيها ؟ » وهززت راسي .. « لا .. لا يا عبد ! لا تأمن لها وكن حذرا .. انت الى الان قابض على دفة الحديث فلا تتخل عنها واحذر من لجة العاطفة . »

ودون ان تلتفت الي قالت وقد تهدج صوتها :

ـ « لماذا تنظر الي هكذا ؟ (وهزت رأسها بانفعال) سألتك عن المغناطيس فحولت السؤال وحدثتني عن نفسي ! »

ـ « الحديث نفسه اتجه اليك . (واردت ان اتمادى معها قليلا) كأن فيك انت مغناطيسا »

وتهلل وجهها بشرا وسألت بفضول مجرد :

« ـ وهل للمغناطيس اتجاه »؟

ـ لا اخالك تجهلين هذا . ان له اتجاها معينا ، فهو يخرج من قطب ليدخل في قطب اخر. ويجب ان يكون هذا القطب الاخر مختلفا في طبيعته عن الأول . فالمغناطيس لا يكون الا بين ضدين ، كما هي الحال بيننا نحن البشر ... آ .. بين الذكر والانثى »

وخيل اليها انها امسكتني من لساني ، فارادت ان توقع بي

ـ « كانك تريد ان تقول ان بيننا الان قوة جاذبة ، مغناطيسا»؟

ـ « بل انك انت التي تقولين هذا »

قلتها متحديا فاذا التحدي سافر ... واخذت بشهوة النصر ... « هذه المرة سأطوح ـ انا ـ بها من شاهق » ولكن طعنة مباغتة هاضت جناحي وشلت تفكيري . قالت :

ـ « ماذا ؟! الا تشعر بهذه القوة ؟ انت لست بليد الاحساس ! اولست من الجنس الاخر ؟ »

واحسست انها اوصلتني الى حافة الهاوية التي تعودت ان تدفعني اليها . كانت نظرتها المثبتة على وجهي اقوى من ان تقاوم . وانزلت نظري الى الارض ، بيني وبينها.. ثم اغمضت عيني مستسلما ، انتظر الدفعة واتصور السقطة .. وتخيلتها دفعتني فهويت .. ونفضت يديها على ردفيها هكذا دائما.. كلما دخلنا في نقاش قادتني في طريق سهل فاندفعت دون روية.. حتى اذا ما تهيأ لي اني ادفعها فأثأر لكرامتي ولو مرة، اكتشفت انها اوصلتني بلساني الى حتفي . واخيرا .. دفعتني .

ـ « اجب ، الست من الجنس الاخر ؟ »

وتشبثت بقشة

ـ بلى . (وخيل الي وانا اقبض على زمام رد مفحم انني ادفعها هي .. وتمتمت في نفسي « هذه المرة دورك يا فتاتي ») ولكني لا اشعر بقوة فيك تجذبني اليك ». وبحرت في مبهوتة ثم سألتني ساخرة وكأنها تلقي سلاحها .

ـ « ولماذا يا ترى ؟ »

ـ « لانني ... (وضحكت ـ اوخيل الي اني ضحكت ـ وهممت .. وترددت ..) لانني لا اسمح لنفسي ان اتخيلك من الجنس الاخر.

★

ويلي ما احمقني !

ما كنت اتصور ان كلمتي تلك ستؤدي الى النهاية بيننا . كنت اتشوق الى الحديث معها .. كان يلذ لي النقر المتبادل على الوتر الحساس .. بل كنت ارضى دائما ان تنتصر علي فأتذوق جمالها منتصرة شامخة ... ولكني لم اقدر ان ما قلت فيه من الاساءة بقدر ما ظهر عليها.

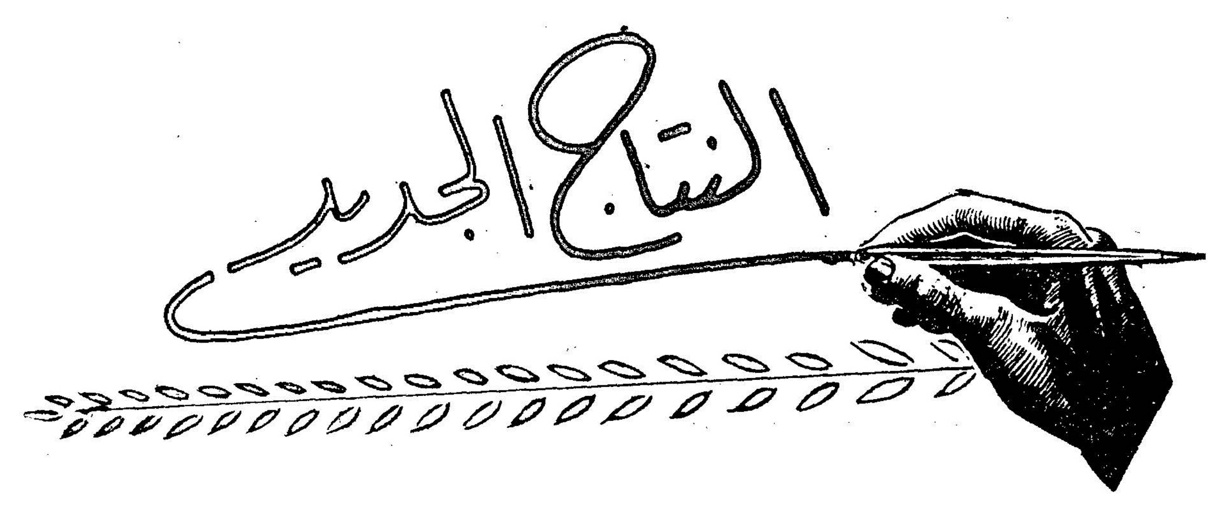
كانت كلماتها المخنوقة تدفعني هذه المرة في هوة عميقة اين منها تلك الحفر التي كان يلذ لي ان اكبو فيها امامها فأرضيها واشعل قلبي..

ـ « كان الحديث اليك نوعا من الحب يستهويني .. وكنت اعتقد انك باذعانك انما تحبني بك .. فانا اعرفك فارس كلام .. واعرف مصيدة مكائدك .. اليوم هدرت كرامتي امامك .. ارجو الا تسيء الي فتتبجح بهذه القصة امام الناس . ارجوك انس الذي دار بيننا ، ان استطعت ولم يوبخك ضميرك .. مع السلامه ».

وقامت مسرعة الى غرفتها .

وقمت ، متثاقلا احمل على يافوخي ضربة ثقيلة ، هي خيبتي في التقرب الى الجنس الاخر .

بيروت — عبد الفتاح الحسن



مار يـــانا

مسرحية لفيدريكو غارسيا لوركا ـ ترجمة شاكر مصطفى

منشورات دار الاداب ـ بيروت ـ ١٢٠ ص

*

هذه مسرحية شعبية نظمها الشاعر سنة ١٩٢٥ ، وهي مسرحيـة يغلب عليها اللون الشعري بصوره والوانه ، حتى كأنها هي التي تتكلم في اطار حادثة بسيطة جدا ...

ولئن مالت الى استخدام هذه الصور التي تقتضيها طريقة الشعر فانها عرضت عن تشابك العقد المسرحية فيها . وهي ـ الى ذلك ـ تترك اثـرا منفعلا في القاريء ، او الناظر الى لوحاتها ، لانها تعبر عن معنـى انساني هو معنى الحرية والكرامة .

في اللوحة الاولى نرى نسوة يهذين ما بينهن ، ويطرزن بأيديهن . ومنهن « ماريانا » بطلة المسرحية ، وهي ارملة في الثلاثين من عمرها ، لها طفلان . كانت تطرز شيئاً غريبا لا يتصل بطفليها .. انها تطـرز راية للثوار..لان بين هؤلاء الثوار الفتى «بدرو» الذي تحبه، وتحبمبادئه.

وبدرو فتى ثائر ، متحمس لقضية الحرية في بلاده .. كان سجينا محكوما عليه بالاعدام ، لكنه في تلك الليلة استطاع الافلات ، بيد انه يريد ثوبا يتنكر به ، وجوازسفر يهرب به . وهو قد وضع ثقته بحبيبتـه « ماريانا » التي تستطيع ان تؤمن له هذه الاشياء في الموضع الـذي عينه لهـا ..

ولكن من ذا يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة تحت مراقبـة العيون ؟ كان هنالك بجوارها فتى اخر يحبها .. فلتكلفه بذلك ! انـه فرناندو ! شقيق رفيقتها .

ولكن هل يتقبل « فرناندو » ان يقوم بهذه المهمة لرجل يعـده عـدوا منافسا له ؟

ان هنالك واجبا قوميا وانسانيا اقوى من حبه ، يهيب به ان يفعل ذلك .. فيقول لها :

ـ ليست الغلطة بغلطتك ، لا .. وعلي الان ان اساعد رجلا بـدأت في ان ابغضه ... مع ان الذي يحبك هو انـا .

فتجيبه معللة حبها لـه :

ـ ليس يورثني الخجل ان اقول كم احبه ، اني لاحترق في حبه ، وأتوهج كلي معـا .

انه يحب الحرية ، وانا احبها اكثر مما احبه .

وفي اللوحة الثانية ، يستطيع فتاها الثائر « بدرو » ان يتغفـل عيون الرقباء ليزورها . حتى اذا طاشت المفاجاة بلبها هدأ خوفها :

ـ لاتخافي يا فتاتي ! يا حياتي !

انا لنتآمر بمنتهى السرية . لاتخافي !

ان الراية التي تطرزين سوف ترفرف في الشوارع . بك انت .. سوف تقف الحرية التي يتوق اليها الجميع ..ولكن يخشى ذلك الرقيب الخائن القاسي ، الموكول اليه امر القبض عليهم .. وهو بدروسا .. لكنه يطمئنها بانهاستطاع ان يخدعه فيالحقول، وجاءها مستخفيا.

ـ ها انا ذا قد جئت !

سأنتصر بمساعدتك .

أيتها الحرية ! حتى مع الدم دقي كل الابواب !

لكنها لاتستطيع ـ مع ذلك ـ ان تفقده، لانها تحب الخير والشرير على السواء .. اذ في الحب يكون الانسان خارج الزمن ..

وفي هذه الحالة يدخل رفاقه بحذر ، وهم ينتظرون رسولهم الذي يجب ان يكون الان في الطريق ، لينبئهم اذا جاء موعد اعلان الثورة ... فيصل هذا الرسول ، لينبئهم « ان الحكومة ترقبهم في كل مكـان وعليهم ان يؤجلوا الثورة ، او يناضلوا وحدهم حتى الموت»..

ويبدو ان « بدرو » لايريد الانتظار ، لكن رفاقه يحملون عليه ..

وفجأة ، يقدم رجلان مقنعان احدهما « بدروسا » فيتوارى الفتيان المتآمرون . ويدخل « بدروسا » بوجه شديد الصفرة الباهة ، فتتلقـاه ماريانا مستغربة ، فيعلل لها مقدمه بان الريح الدقيقة المثلجة ألجأتـه الى بيتها ... وبلهجة ملؤها السخرية يسألها عن الشيء الذي تطرزه، فتدرك أنه لم يأت الا لامر ...

يسألها عن الراية التي تطرزها ضد القوانين ، وضد الملك ، وفـي الوقت نفسه يشعرها بالاطمئنان . ويدني شفتيه من شفتيها ، لكنهـا تدفعه بوحشية ، وهي تقول :

ـ هذا ابدا ! اني لادفع دمي قبل ان يكون ذلك ، وليكلفني ذلـك الالم ، ولكن مع الشرف!

انا طرزت الراية بيدي .... واعرف رجالا عظماء سوف يرفعونها في غرناطة ، ولن اقول اسماءهم .

فيقبض عليها باسم القانون .. فتتهاوى مرتمية على الديوان بين طفلتها تبكي ..

وفي اللوحة الاخيرة ، تجد ماريانا سجينة في احد الاديرة ، مـع راهبات مستجدات ... يحملن اليها التعزية ، وهي تملؤها الثقة بـان حبيبها بدرو سيعلم ذلك ، ويأتيها على حصان كالمجنون لانقاذها مـن سجنها كما انقذته..

ولكنه بدلا من ان يأتي هذا الحبيب جاء بدروسا الخائن الكريه، يعدها بانها لن تموت اذا باحت له باخبار . لكنها تأبى ذلك .. لانهـا تستطيع ان تقف لعيونه التي ترقب المكان الذي تحتفظ فيه بهذا السر الذي لن تبوح به بملك الارض . وعلى اية جريمة يقتلونها ؟ الانها طرزت على راية الحرية اعظم حب في حياتها ؟

انه لايريد منها الا أسماء المتآمرين ... ثم تحيا ...!

وفي المشهد الثامن يدخل عليها « فرناندو » باهت اللون ، فتسألـه عن حبيبها بلهفة : هل جاء معه ؟ لينقذ حياتها ؟

لكن فرناندو ينبئها بان حبيبها بدرو لن يأتي ، لانه لم يحبها ابدا...

ـ انه هرب الى انجلترة مع بعض الرفاق .. وتخلى عنك كـل

اصدقائك القدماء .

انا ـ هنا ـ وحدي ... الذي يحبك ..

لكن ماريانا تنفجر باكية :

ـ لقد طرزت الراية من اجله . وقد تآمرت لاحيا واحب اراءة الخاصة . أحب الحرية ...

اذن ، سأكون انا الحرية نفسها التي تعبد .

لكن فرناندو يحاول ان يقنعها بافشاء اسماء المتآمرين ، ليكتب لها الحياة . ولكنها تجيبه بعزم :

ـ لااريد ان يحتقرني اولادي ... اولادي سيحملون نصاعة على الوجوه لاتمحوها السنون . واذا خضعت فان هذا الاسم سوف يلفظ في خوف ، في كل طرقات غرناطة .

فيذكرها فرناندو بالحب والموت .. لكن الموت عندها هو نومة طويلة دون احلام ولا ظلال ..

وترد عليه بحزم :

ـ ايتها الحرية ! اني لاهبك نفسي جميعا ، كي لايخمد لهبك العالي ابدا .. الى العلاء ياقلبي !

وفي اللحظة المعينة اقتادوها بعربة الى حيث ينتظرها مصرعها .. وهي تصرخ :

« احب الحرية فوق كل شيء .. ولكني انا الحرية نفسها .. ايتها الحرية في الاعالي ؟

ايتها الحرية الحقيقية اوفدي لي نجومك البعيدة !

اروين قصتي الى الاطفال الذين يعبرون . والان ، وداعا !

وفي احدى الزوايا كان اطفال يغنون مع رنين الاجراس .

آه ياله من يوم حزين في غرناطة !

يجعل حتى الحجارة تبكي .

لرؤية ماريانا تموت على المقصلة ، لانها لاتبوح . »

هذه هي قصة ماريانا التي تمثل بطولة المرأة في تحدي الظلم ، ومقاومة الاغراء ، تعلقا منها بحرية بلادها . وقد كان في مكنتها ان تحيا لو استجابت الى ما طلبوا منها . ولكنها ادركت انها لم تعد مخلوقا اسمه « ماريانا » تتصرف في حياتها كما تريد ، وانما اصبحت رمزا للحرية التي ينبغي ان تكون اقوى من الحياة .

اما الترجمة ، فعلى صعوبة ترجمة الشعر ـ وبخاصة اذا كان غنيا بالصور التعبيرية ، فان المترجم الاديب ـ شاكر مصطفى ـ قد استطاع بادبه الرهيف ، وذوقه المنقى ، ولغته المترفة ، وتمكنه من اللغتين ان ينقل الينا المشاهد بحياة وأمانة ...

ان مسرحية « ماريانا » درس في القومية والانسانية لاينسى ..

حلب **خليل الهنداوي**



حلم ليلة تعب ...

مجموعة قصص بقلم بدر نشأت

*

هاهو صاحب المحاولة يعود اليها مرة اخرى .. ولكن هذه المرة بوعي اشد ، وفن أعظم ، وجرأة ابعد .. فها هي المجموعة الثانية للقصاص الشاب المجدد بدر نشأت تحمل عنوانا استمد تركيبته من شكسبير ، وان لم يهزل كما هزل شيكسبير في ملهاته ، فقد اطلق على مجموعته اسم : « حلم ليلة تعب » .

ولكن قبل ان نطل على قضية اللغة في عمله والتي افرد لها فنه ، نريد ان نطل على هذا العالم الذي حوى ست عشرة قصة . فماذا نرى؟. ان العالم السائد هو عالم المدينة .. عالم الضجيج والكفاح والانهيار والضياع والامل .. عالم حمل من المدينة في صدره سلها فيلجأ الى المخدرات لكي يستطيع ان يجد مزاجه مع امرأته آخر الليل « افيون » . عالم ينكر الزميل زميله القديم ان اختلف وضعهما الاجتماعي بعد مرور السنين « اصحاب » .. عالم يضطر الانسان ان يغير فيه افكاره واخلاقياته نتيجة الوضع المادي « حلم ليلة تعب » .. عالم يكتب مثقفوه بلغة ويفهم أميوه بلغة اخرى « جواب » .. عالم يتمسك فيه الانسان بكرامته وسط جميع الحلكات مهما كان صغيرا « ولد » عالم يشعر فيه الانسان بانه لم يعد نظيفا كبعض الاخرين لانه فقير «سمبو» عالم تنافس فيه السيارات العربات الحنطور وتزحف الالة على رزق الانسان « الاسطى سيد » عالم يتأثر بالتفجيرات الذرية والتجارب النووية حيث تتأثر الاسماك ويخشى ان يتسلل هذا في رزقه « سلمون » عالم تضطر فيه المرأة ان تتزوج من يكبرها وان كانت متعلقة بمن شاغلها فترة ولم يتزوجها لانه مازال طالبا فتواصل علاقتها به « اذاعة » عالم تضطر مدنيته ان تجعل الفلاح النازح من قريته يغير من اخلاقياته ويملق كذبا من اجل قوت عياله « واللـه العظيم » عالم مزيف يجعل الفتيات ينزلقن في تيار اللهو والعبث«الحزام» عالم رغم حلكته ، مازال ينبض حبا ، لانه عالم يعاش..حب عامل المرحاض العجوز لوطنه ، فيمسح جميع اللافتات البذيئة داخل المرحاض ، الا لافتة عن حرب السويس « الادى » وحيث نجد قسوة الحياة والمشاكسة من اجل الرزق عند العربجي ، ورغم هذا يتسامح في ان يدع المعزة تأكل مع حماره برسيمه . « المعزة » ، وحيث لاتحلم امرأة المدينة ـ رغم جوعها الجنسي ـ الا بتزويج ابنها لتحس بتجدد الحياة واستطالتها « ونامت ام احمد » .. وينتهي عالم المدينة ويبقى عالم الريف الذي قدم فيه المؤلف « قل أعوذو » وفيها يكشف عن فساد التعليم الديني في القرى « الفلة » التي تبين ظلم اصحاب الارض ...

هذا هو العالم ، وهناك بعض الوقفات اثناء هذه الرحلة :

١ ـ رؤية المؤلف حادة ووعيه كبير . انه يوجه انتباهه الىالتجارب الغربية ـ وهو هو ما يميزه عن غيره مضمونا وفنا على السواء ـ فمثلا، ان التجربة غريبة ان يبحث عن ابراز الوطنية في رجل على عتبة الموت شيخوخة ، يظهر عاطفة الوطنية في حادث صغير ، عندما يمسح اللافتات التي تحمل كلاما بذيئا وتتوقف يده عندما يلمح لافتة وطنية فيمسح حولها ليبرزها . ان التجربة مليئة بالجدة والتجديد مضمونا .. وكذلك من ناحية الفن ، فلكي يتخلص من الخطابية والطنطنة والضجيج ، لجأ الى هذه الزاوية القصيرة ، الا وهي زاوية القصة القصيرة ، معالجا اياها داخل موقف ..

٢ ـ العالم جميعه حاضر .. انه يسلسل الافعال المضارعة في عناق، فيظهر الحاضر وكأنه يحدث امام اعيننا .. ساعده على ذلك اللغة العامية ، وقد ساعد هذا في نبض الشخصيات ..

٣ ـ تبرز سمته الفنية في مزج السرد بالمونولوج الداخلي ، خاصة وهو يشع باللغة التي تنطق بها الشخصيات وبصفة مميزة ، عندما يصبح الكلام مقطعا مبتورا .. وأن عيب عليه في بعض المواقف الالية وعدم الدينامية .. وخفف على القارىء عدم وجود تنافر او وجود هوة كبيرة بين لغة السرد ولغة المونولوج ..

٤ ـ الواقع المادي هو المحدد لسلوك الشخصيات وتصرفاتها ..ولكن تحول السلوك الى سلوك ميكانيكي لهذا الوقع المادي .. بل لقد انعكس هذا حتى في عملية التذكر وجعل التجربة الراهنة تضاهي تمام المضاهاة تجربة قديمة تذكرة ..

٥ ـ يفتني المضمون عندما يصبح الرمز جزءا حيا عضويا في العمل ، كرمز الحزام « في قصة الحزام » ، اذ ان عملية شرائه وعملية قطعه انما هي رمز لمضمون الفكرة وبناء شخصيتها الرئيسية ..

٦ ـ هناك عين خارجية لدى المؤلف دقيقة في الرصد .. لكنها الدقة التي تخل بالعمل المعروض ولا تخدمه ، فمثلا : في قصة « جواب» كتب كاتب الخطاب على الظرف :

« يسلم ليد عبد العال فرج عبد العال ، ويرد بالتالي ان لم يسلم في ظرف ثلاثة ايام ، ومستعجل على الظرف ومن تحتها خط » .. فهنا رصد للواقع وهو رصد امين دقيق ، لكنه غير موظف لخدمة بناء القصة.

والسبب في هذا :

٧ ـ الشخصيات تعيش في واقعها الخارجي اكثر مما تعيش في واقعها النفسي « لم تشذ الا القصة : « ونامت ام احمد » وكان هذا ـ او ربما كان هذا ـ سبب نجاحها » .. لااقول ان واقعها النفسي غير مرسوم ولكنه هزيل شاحب اذا ماقورن بالواقع الخارجي .. والسبب « وليس هذا عند صاحب المجموعة وحده بل عند كل شباب الواقعية » ان الواقع الخارجي يظل في العمل الفني واقعا خارجيا ، بينما المفروض انه جزء في البناء المعماري للقصة .. أي يجب ان يتحول من كونه مضمونا الى كونه وسيلة صياغية لابراز الفكرة .. وكان من نتيجة هذا ان العمل وقف عند حدود الرصد الخارجي وبالتالي لم يعد قصة ، او هو من الاصل يعد صورة مثل « قل أعوذو » و « الغلة » ..

٨ ـ وهناك ظاهرة ـ اعتبرها نقيصة ـ ليست عند صاحب المجموعة وحده ـ وان كانت مخففة نوعا ما لديه ـ الا وهي ظاهرة وجود مقدمة استطرادية بلا نتيجة .. بمعنى ان القصاص يصف ويرصد .. والمفروض انه يفعل هذا لكي نصل الى الحادث ثم الى تأثير هذا الحادث وتبرير هذا التأثير من خلال الوصف .. ولكن ماذا نجد ؟ اننا نجد « أ » الوصف والرصد والتقديم للحدث « ب » الحدث .. اما العنصر الثالث والمفروض ان القصة قد خلقت له ، فلا وجود له او يمر عليه مرورا عابرا وهذا هو الذي يقف بالقصة عند حدود الصورة .. ففي قصة « اصحاب » ذكر لنا في صفحات رؤية العامل العاطل للمدير الذي كان صديقه في المدرسة وقد توقع ان يشغله لكنه لم يفعل. ثم يذكر : « ومشى زعلان متضايق».. لقد رسمت القصة لابراز هذا الزعل والضيق لا في تقرير ولكن في افاضة

٩ ـ وقد ساعد على هذا جفاف العبارات : فالعبارة تحمل شحنة الوصف الخارجي ، لكنها بلا أي ظلال تترامى في النفس .. انها مقتضبة جافة ، غير مستقيمة ، واذا كانت الجملة تحركنا فهذا بفضل شيء خارجي عنها ، هو التعبير الشعبي ..

١٠ ـ هناك احكام في البناء ، هنا أستاذية في هندسة الجزئيات ودمجها لكي تفضي الى الخاتمة المدبرة من قبل .. وربما كانت شدة الاحكام هذه ادت احيانا الى انكشاف الخاتمة منذ البداية ولم تشذ الا القصة « اذاعة » وذلك بسبب ان نفسية النموذج مهتزة ..

١١ ـ جميع شخصيات القصص سوية Normal

فهل كون الشخصيات سوية من سمات العمل الفني الكبير ؟ انا اضع هنا تساؤلا .. وهو تساؤل مفتوح عندي اجابته ولكن مبرراته الجمالية لن يتحملها مقال مرصود لعمل نقدي تطبيقي .. ولكني اضعه كامكانية للبحث والتساؤل ..

١٢ ـ بقيت قضية اللغة .. والكلام فيها يطول .. ولن اتكلم عن اللغة باعتبارها طريقة تثقيف وربط بين البلدان ، فهذه قضية سياسية ولست من اصحاب الدعوات السياسية .. ولكن لتقتصر على الفن .. لما كانت اللغة في الفن ليست لغة مباشرة ، ليست لغة جفاف واقتضاب وتقرير وسرد ، فهي اذن لغة ظلال واحساس ووجدان وصور .. ولما كان يمكن تقسيم الادراك الى احساس وادراك حسي وتخيل وادراك عقلي فافكار ، فنستطيع ان نقول ان عالم اللغة الفنية هو عالم الادراك الحسي والتخيل ـ كمناطق تمايز ـ ولما كانت الكلمة المنطوقة لها ظلال وجدانية وتثير تحريكات بيولوجية وتبعث خيالات معينة ، فهي الكلمة الاشد التصاقا بعالم الفن.. ليس معنى هذا ان الكلمة الفصيحة ليس لها تأثير ، ولكن تأثيرها على الوعي والادراك العقل والافكار ـ كمناطق تمايز ايضا ـ خاصة اذا عرفنا أن الفن الفن هو اللحم والدم والخاص ، ولن يتم هذا الا اذ كانت الشخصية لها لحمها ودمها وخاصها ، ولغة النطق جزء من هذه العملية ، اذ ان لغة العقل انتقلت من التعين Concreteness الى عالم التجريد abstraction

ولكن لما كان هناك واقع ثقافي قديم ، وكان هناك وجدان تذوقي كبير وكان له أثره على الوجدان ، اذن فكان الاولى مراعاة هذا بدل هذه القفزة التي يقفزها المؤلف حتى في السرد .. حقيقة انه جعل الحوار والسياق « مية واحدة » ـ وهذا سمة الفن الكبير ـ الا أنه يوجد بعض النفور من تقبل هذه المحاولة الجريئة ، فهناك حس تكون ـ مهما كانت درجة خطئه او صوابه (١) ـ ويجب التطوير من خلاله لا من خارجه .. خاصة وان اللغة لم تعد طيعة بعد في يده كمثل قوله : « كانت امراته الى جواره رائحة في النوم . » فهذه الكلمة معناها في اللغة العربية غير المعنى الذي يقصده في اللغة المنطوقة ، ولم يتمكن من المزج بينهما مزجا تاما وان ظل له شرف المحاولة مراعين أنه يكاد يكون الوحيد الذي يقاتل في هذا الميدان ..

ان « حلم ليلة تعب » ليست حلما ، ولكنه واقع ، وواقع كثيف ، يحتاج الى حلم ، الى حلم كبير ، لكي تتناغم ادوات المؤلف الفنية والتي مازالت في اطرافها بعض الخشونة التي تحتاج الى هذا التنعيم ..!

مجاهد عبد المنعم مجاهد
القاهرة



تاريخ الفقه الجعفري

تأليف هاشم معروف الحسني ، تقديم محمد جواد مغنية ، دار النشر للجامعيين ، ٢٥٩ ص ، بيروت .

لم يؤلف في تاريخ التشريع الاسلامي من الكتب الا القليل ، مع ان مادة هذا التاريخ موجودة في مصادر عديدة ولكنها مبعثرة وتحتاج الى جهود جهيدة لجمعها وتصنيفها ثم دراستها . ومع ذلك فقد اقدم بعض الباحثين على انجاز هذا العمل ولكن الاقدام لم يكن شاملا ونتائجه لم تكن دقيقة ، ولذلك ظلت الكتابة في هذا الموضوع متيسرة لمن يستطيع الصبر على التنقيب والبحث والمقارنة والدراسة ثم بعد ذلك كله التوصل الى نتائج سليمة تتفق مع حقائق التاريخ ونزاهة العلم . ومن الكتب الحديثة التي جمعت بين الدقة في البحث والسعة في العلم والرجحان في الرأي كتاب الاستاذ هاشم معروف الحسني « تاريخ الفقه الجعفري» وهو من الكتب النادرة في موضوعه .

ينقسم الكتاب ـ باستثناء مقدمة العلامة مغنية ومقدمة المؤلف ـ الى ثلاثة اقسام ، الاول يبحث عن بعض موضوعات الفقه من اصول الدين الاسلامي الى فروعه الى بعض الاحكام الفقهية الاخرى ، وذلك كله على رأي الشيعة الامامية وكما ورد في كتبهم ومصنفاتهم الشهيرة في هذا الباب . ويعتبر القسم الاول من الكتاب كتمهيد لاصل الموضوع وهو تاريخ الفقه ، وهذا التمهيد ضروري لجلاء بعض الاحكام الفقهية وتبيان الفروق الاساسية بين المذاهب الاسلامية المعروفة ولكي يتيسر بعد ذلك الدخول الى اصل الموضوع بسهولة . فمما بحثه المؤلف في هذا الصدد ابحاث في الحاجة الى التشريع والاستدلال باياته ، وابحاث في التوحيد والبعث واساليب القرآن في التشريع ، ثم انتقل بعد ذلك الى الحديث عن الصلاة واحكامها وعناية القرآن الكريم بها ، وكذلك عن الصيام والحج والزكاة ونظام الصدقات في الاسلام والجهاد في الدين . وانتقل بعد ذلك الى موضوع شائق هو المرأة في الاسلام ، فبين المؤلف عناية الاسلام بالمرأة وكتب فصولا عن نظام الزواج وتعدد الزوجات ونظام الطلاق والمسائل الفقهية المتعلقة به . ولا بد ان ينتهي هذا البحث الى الحديث عن الارث واحكام العقود والمعاملات والعقوبات التي نصت عليها آيات الذكر الحكيم ..

فالقارىء يخلص من هذا التمهيد الى العلم باركان الشريعة الاسلامية وفقا لمذهب الشيعة الامامية وبالمقارنة مع المذاهب الاسلامية الاخرى .

اما القسم الثاني من الكتاب فينصب على الدور الذي لعبه الشيعة في التشريع الاسلامي خلال عهد الصحابة « منذ وفاة الرسول ـ ص ـ الى تأسيس الدولة الاموية في الشام » ولكي يستطيع المؤلف ايفاء الموضوع

(١) من المؤكد ان العفاريت لا وجود لها ، ورغم هذا فلها وجودها الوجداني في نفوس الاطفال ولن تنقطع عن الوجود في التو حالما نقول ان العفاريت لا وجود لها .. « يجب مراعاة الفارق بين وجهي المقارنة ».

حقه من الوضوح والحقيقة والتجرد عن التعصب الاعمى ، بدأ بتبيان الوضع بعد وفاة الرسول ليبين تأثير هذا الوضع في مسيرة التشريع الاسلامي ، وانتهى به البحث اخيرا الى معنى التشيع . والمؤلف هنا – كغيره من اتباع الشيعة الامامية – يرى ان فكرة التشيع لم تولد بعد وفاة الامام علي رضي الله عنه او بعد وفاة الرسول الكريم ، وانما بدأت في ايام الرسول وهو نفسه كان يغذي حركة التشيع ، ويورد المؤلف بعض الدلائل التاريخية الثابتة على ذلك فمنها بعض الايات القرآنية الشهيرة في هذا الباب ومنها احاديث النبي ومن اشهرها حديث الثقلين . وينتهي المؤلف من هذا الفصل ليبدأ فصلا لصيقا به وهو دور الشيعة واسهامهم في تدوين ورواية الحديث والفقه بعد وفاة الرسول ، ولا ريب ان اعظم مشرع بعد النبي هو الامام علي ، فقد تفرغ للتشريع والافتاء امدا طويلا ، وكان ابو بكر وعمر يستشيرانه في جميع المسائل التي لم ترد في القرآن بنصها او لم تفصل فيها آيات الذكر ، ولقد قال عمر : « لايفتين احد في المسجد وعلي حاضر » وقال ايضا : « لولا علي لهلك عمر ، ولا بقيت لمعضلة ليس لها ابو الحسن » .

ومن أعلام الشيعة الذين برزوا في الافتاء والفقه في عهد الصحابة عمار بن ياسر وسلمان الفارسي وعبدالله بن عباس وأبي بن كعب وغيرهم كثير ، وقد أورد المؤلف لهم بعض المسائل التي أفتوا فيها ، ويستدل من الدلائل التاريخية التي ساقها المؤلف ان الدور الذي لعبه أعلام الشيعة خلال عهد الصحابة في التشريع الاسلامي كان كبيرا ، ولكن المصالح السياسية للحكام والمتنفذين وخصوصا في عهد الامويين وما عرف عنهم من عداء للشيعة ، حاولت أن تقلل من أثر هذا الدور في التشريع ، وأن تحذف منه ما استطاعت الى ذلك ما يتضاد ومصالحها السياسية والاقتصادية ، ومع ذلك فقد بقيت كثير من الآثار التي تدل على أهمية الدور الذي لعبه أعلام الشيعة خلال هذا العهد في التشريع .

وينهي المؤلف القسم الثاني بحديث عن أدلة الاحكام الشرعية عند الشيعة الامامية في عهد الصحابة ، ويرى انها مقتصرة على الكتاب والسنة ، أما ما يراه بعض فقهاء المذاهب الاسلامية الاخرى من اتخاذ القياس والاجماع دليلين في الاحكام ، فهو يرى انه لا يصح اتخاذ القياس دليل حكم مستندا في ذلك الى قول الامام علي : « لو كان الدين يؤخذ قياسا لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره » وعلى قول الامام الصادق لابي حنيفة في معرض المناقشة : « اتق الله ولا تقس برأيك فسنقف غدا ومن خالفنا بين يدي الله فنقول قال رسول الله وقال الله وتقول أنت وأصحابك رأينا وقسنا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء » . أما اتخاذ الاجماع دليل حكم شرعي فيرى المؤلف – وهو رأي الشيعة الامامية ايضا – ان ذلك جائز شريطة وجود الامام مع المجمعين ، أما اذا انتفى هذا الوجود فيكون الاجماع سواء كان في المدينة أو في غيرها باطلا ولا يصح العمل به . وليس لنا أن ننبه هنا الى الاختلاف الكبير بين رأي الشيعة الامامية وبين المذاهب الاسلامية الاخرى حول مسالتي القياس والاجماع واعتبارهما دليلي حكم شرعي أو عدمه ، فأمر ذلك ظاهر للعيان .

أما القسم الثالث والاخير من الكتاب فيتناول تاريخ الفقه الجعفري في عهد التابعين ، ويمهد المؤلف لهذا الموضوع بالقاء بعض الاضواء الكاشفة على الاوضاع السياسية لهذا العهد ، ومن أهم ما يميز هذه الاوضاع الاضطهاد العنيف الذي لاقاه علماء وفقهاء الشيعة ، والذي واجههم به الامويون وولاتهم في الامصار الاسلامية من امثال الحجاج وغيره ، مما أدى الى اعتبار التشيع جريمة يعاقب عليها . وكان الامويون يستهدفون من وراء ذلك خلق أحاديث نبوية عن فضائلهم المزعومة وتشويه سمعة الشيعة عن طريق اظهارهم بمظهر العداء للاسلام ، ومع ذلك فقد نبغ العديد من فقهاء الشيعة الذين كانوا يتصدرون الفتوى ويروون الحديث ، منهم سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير (وقد قتله الحجاج صبرا لتشيعه) وحبيب بن أبي ثابت الاسدي وابو الاسود الدؤلي وغيرهم كثير . وقد اقتطف المؤلف ما ورد في كتب التاريخ والرجال والطبقات عن هؤلاء الفقهاء ، فأوضح بذلك مكانتهم العلمية والتاريخية .

وقد كان التابعون يستدلون في أحكامهم على الكتاب والسنة مضافا اليهما الاجتهاد ، والاجتهاد يختص به فقهاء الشيعة « والذي شاع بين فقهاء التابعين وامتازوا به عن فقهاء الصحابة لم يكن خارجا عن فلك القرآن والسنة ، وانما كان في فهمهما ، وتطبيق الكليات على ما تجدد من الحوادث التي لم يكن شيء منها في الغالب يشبه ما كان في عصر التشريع وما بعده من فجر الصحابة » (ص ٢٣١) . والاجتهاد يختلف عن القياس لان الثاني يتخذ من تشابه الامور سببا في نشوئه بينما ينشأ الاول عن اليأس من وجود دليل في الكتاب أو السنة ، ولقد أورد المؤلف بعض الاسباب التي هيأت المجال لنشوء الاجتهاد ، وناقش استنتاج المستشرق « جولد شيهر » الذي ينص على ان نشوء الاجتهاد دليل على قصور الشريعة الاسلامية عن مواكبة التطور واقتصارها على الحياة البدوية في جزيرة العرب .

وفي هذا العصر (عصر التابعين) ساهم فقهاء الشيعة والعلماء منهم في تدوين الحديث وكتابة السنن ، ومن المعروف ان الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب كان قد منع المسلمين من كتابة احاديث الرسول (ص) خوفا من انشغالهم بها دون كتاب الله تعالى ، ولكن عمر بن عبد العزيز أمر – كما تروي مصادر التاريخ المؤكدة – بجمع أحاديث الرسول فجمع الكثير منها ، وعندما جاء ابو جعفر المنصور الى الخلافة بذل في سبيل جمعها الاموال الطائلة وذلك بقصد صرف أنظار الفقهاء ورجال العلم عن نقد أعماله السياسية ، وهكذا كثر في عصر التابعين تدوين الحديث فكتبت آلاف الاحاديث النبوية . وقد ساهم الشيعة في كتابة الحديث والشرائع فعرف منهم ربيع بن سميع وثابت بن دينار وعبيد الله بن علي الحلبي ، وقد نقل المؤلف ما ورد في كتب الرجال والطبقات عنهم.

أما نبأ الصحيفة الصادقة التي روي ان الرسول (ص) أذن لعبدالله ابن عمرو بن العاص أن يكتب عنه في حال الرضا والغضب ، فلم يجد المؤلف من الدلائل ما يؤيد هذه الرواية ، خاصة وان حداثة سن عبدالله لا تسمح له بصحبة الرسول وتفضيله على غيره من أصحابه . كذلك وجد المؤلف ان « مجموع الفقه » لزيد بن علي ثابت وجوده تاريخيا على الرغم من اعتراض بعض المؤلفين المعاصرين على هذا الرأي . وقد ناقش المؤلف في نهاية الكتاب رأي بعض المؤرخين عن الصاق صفة الكذب أو الوضع على فقهاء الشيعة وذلك لمجرد تشيعهم لا غير ، مما أدى الى اظهار الدور الذي قاموا به في رواية الحديث وتدوين الاحكام والسنن بغير مظهره الحقيقي .

أما ملاحظاتنا الاخيرة عن الكتاب فهي :

(١) امتاز الكتاب بسعة معلوماته التاريخية ، وهذا بلا شك راجع الى صبر المؤلف على تتبع مراجع ومصادر البحث ، مما أغنى الكتاب وجعله فريدا في بابه .

(٢) لم يكن المؤلف وهو يناقش الاحداث التاريخية والموضوعات الفقهية متعصبا بدون وجه حق الى مذهب الشيعة الامامية ، وانما كان موضوعيا في بحثه ، وهذا أمر جدير بالثناء ، لان التعصب بدون وجه حق لا يقود الباحث الى نتائج سليمة .

(٣) لم يقسم الكتاب الى أبواب وفصول ، واذا كنا قد ذكرنا في صدر كلامنا ان الكتاب ينقسم الى ثلاثة أقسام فذلك التقسيم لنا ، ونحن نرى ان يبوب الكتاب ضمانا للفائدة كما يلي :

الباب الاول (١٣ – ٩٥) الباب الثاني (٩٥ – ١٩٢) الباب الثالث (١٩٢ – ٢٥٦)

وبالامكان تقسيم هذه الابواب الى فصول ، وليس من الملائم ان يصدر كتاب في مثل هذا الموضوع بدون تبويبه ضمانا للفائدة وفصل الموضوع عن الموضوع الذي يليه وعن الذي تقدمه .

(٤) والملاحظة الاخيرة ان الكتاب يفتقد فهرسا للاعلام ، ولا أريد ان أؤكد مدى أهمية وجود هذا الفهرس في كتاب تاريخي كهذا الكتاب .

ولا يسعني في الختام الا ان أبعث بتحاياي الى الاستاذ الفاضل الحسني ، راجيا منه ان يستمر في اتحافنا بابحاث أخرى .

علي الحسيني

العراق – الحلة

السجّادة الصّغيرة

قصة بقلم ديزي الأمير

لا لن اعود الى البيت .. لن اعود وليقل الناس عني ما يريدون.. لن اهتم هذه المرة باقوالهم .. ساحقق ما في نفسي ، سأكونها ، ولطالما تمنيت ان اكون نفسي كما اريدها ان تكون لا كما يريدها لي الاخرون .. ثم انتبهت انها تقول هذه الكلمات بصوت يسمع حتى ان بعض المارة استوقفتهم غرابة تصرفها فسكتت واستمرت تحدث نفسها صامتة ... سأقول لعمي انه اسوأ عم في الدنيا ، وان زوجته شيء ما خلق الله ... لقد سكنت فترة طويلة رأيت فيها اثاث بيتنا وحوائجنا وحوائج امي تسيء استعمالها ايد غريبة ، ولكني اليوم لم اعد اتحمل السكوت ، لا ، استطيع ، لا استطيع .. ثم احست بانها على وشك ان تصرخ او تتشبث باحد المارة لتروي له ماحدث لها اليوم ، فاستنجد تفكيرها بخالتها ... خالتها التي تحبها وتغمرها بجو من الحنان والمودة لا تجده في بيتها . ستذهب لخالتها ، وترتمي على صدرها وتبكي وتبكي وتروي لها كيف انها حاولت اليوم ارجاع السجادة الصغيرة الحمراء على المقعد الذي في الزاوية كما كانت تفعل امها . لقد احست انها يجب ان تفعل هذا ، وفاء لامها وثأرا من الاهمال الذي تلقيه فرش بيتهم من زوجة عمها . ان مكان السجادة الصغيرة الحمراء ليس امام العتبة ... انها ليست ممسحة تمسح بها الاقدام . ولكن زوجة عمها سحبت السجادة الصغيرة الحمراء من على المقعد ورمت بها ثانية على القبة وهي تقول : ((لم لا تهتمين بشؤونك الخاصة بدل التدخل فيما لا يعنيك ؟)) لا يعنيني !! الا يعنيني ان اعتني بفرشنا وارتبه كما كان في منزلنا ؟ .. منزلنا !.. منزلنا !! لقد مرت فترة طويلة جدا منذ ان استعملت ضمير المتكلم : منزلي ومنزلنا! اصبحت تقول : بيتكم وفرشكم وتفعلون وترتبون ، اذ لم تعد تحس يوما واحدا بعد انتقالها الى السكنى في بيت عمها ان هناك شيئا في الدنيا يخصها هي او ان لا الحق في ان تنسبه الى نفسها . وكانت تسمع زوجة عمها تقول : بيتي وفرشي .. مطبخي و... لها كل الحق ان تقول هذا ، ولكن ترى اليس لها هي الحق في ان تنسب الى نفسها شيئا ؟ اي شيء ؟ اي شيء ؟

وعادت بافكارها الى خالتها ، ستروي لها تماما ما تقاسيه . . لقد كتمت عنها ما تعاني اذ لم تر فائدة من تحميل خالتها العزيزة همومها ، ان عمها لن يسمح لها بالسكنى مع خالتها فهو لا يرضى ان يقال عنه انه عجز عن اعالة ابنة اخيه وهو ولي امرها الشرعي . وزوج خالتها ؟ اتراه يرضى ان يعيل فتاة غريبة عنه ؟ انه لطيف دائما معها ويعاملها بكل حنان ولكن هل يعاملها هكذا لو كانت تعيش معهم وكان مسؤولا عن نفقاتها ؟ ترى اهناك فائدة ترجى من اخبار خالتي بما اعاني ؟ لا .. لا ، ساذهب الى بيت ابنة عمتي، انها على كل حال قريبة عمي ، وقد تحاول التفاهم معه ، وهي لم تكن ابدا صديقه لزوجة خالها فستفهم تماما ما اقول او قد تكون راغبة في انيكون في الجو شيء يعلن عن سوء تصرف زوجة خالها .

وارتاحت لهذه الفكرة ، فكرة الذهاب الى ابنة عمتها لتفتح لها نفسها وتقول لها كل شيء ... وقد تمكث عندها فترة يحس فيها عمها بتقصيره فيأتي اليها يصافحها ، وستخبره كيف تعامله زوجته ، وسيكون جو بيت ابنة اخته اصلح للتفاهم في هذه الامور من بيت خالتها الغريبة تماما عن عمها . ولم تشعر الا وقد قطعت في سيرها شوطا من الطريق ابعدها عن موقف السيارات ، ووجدت في السير متنفسا وان كان الحديث الى نفسها يتعبها كثيرا .

لو كانت تستطيع ان تعمل وتكسب دراهم اذن لاغنتها الدراهم عن كثير من المشاكل التي تلاقيها ، ولكن ما ذنبها ، اذا كان عمها قد اوقفها عن الدراسة حين توفيوالدها ؟ وهي لا تستطيع ان تعمل بائعة في محل او ما شاكل هذه الاعمال ، ومحيطها المتحجب لا يسمح بفكرة القيام بعمل يتنافى مع المحافظة كما يحلو لعمها ان يسمى الرجعية وضيق العقل .. ليتها تقدر ان تقول له رأيها فيه وفي كل ما يفكر .. بها .

وكانت احيانا تجد ان نصح الصديقات بقبول فكرة الزوج امر معقول ، ولكن ليتهن يفهمن ما تفهمه هي من الزواج . انها تريد شخصا مثقفا يرفعها من وسطها العائلي ، فهي واثقة من قابلياتها الكثيرة ، ولكن كيف يمكن التنبؤ بوجود انسانة مثلها في محيطها العائلي الذي يدل مظهره على عكس ما في نفسها تماما ؟ ولو قبلت بزوج ترضى عنه العائلة ثم ظهر لها انه نسخة من عمها لكان في هذا انهيار لامانيها ، وما دامت لم تتزوج بعد فلا يزال في نفسها مجال لتأمل وتمن ، وكم يسعد الفرد بأمانيه ، وان لم تتحقق .

واحست بيدها تطرق بابا . انه باب بيت ابنة عمتها . وفتح لها الباب ، فسمعت اصواتا تصدر عن غرفة الضيوف ، كان هناك عدد من الزائرات ، فدخلت ورحب بها الجميع ، وكان الحديث يدور عن صديقه غائبة وظهر لها ان المتحدث عنها غير سعيدة . فاحست ان الكلام لم يكن يخالطه احترام لهذه الغائبة غير السعيدة . وبدأت الحاضرات يحملن هذه الغائبة غير السعيدة مسؤولية شقائها ويضمن كلامهن مديحا غير مباشر لانفسهن . وتذكرت فجأة انها انما جاءت لتشكو همومها ومتاعبها .. ترى لو عرفت الزائرات هذه الحقيقة .. حقيقة انها غير سعيدة ، فهل كن يرحبن بها كما فعلن ؟ لقد استطعت بمظهرها الهادىء وكبريائها ان توهم الناس انها سعيدة ، فلو خلعت هذا القناع وتنازلت عن كبريائها فماذا سيكون ؟ لن يتغير شيء في حياتها ولو زاد شيء لكان فقدان احترام الاخرين وزوال اعجابهم ، والناس لا يحبون ولا يحترمون غير السعداء.. الناس لا يحترمون غير السعداء ماذا لو عرفت الزائرات انها واحدة من اللواتي غير السعيدات ؟ ومن غير ان تدري كيف ، بدأت تتحدث عن زوجة عمها وحبها لها واهتمام عمها بأمرها .. تأملت عيون السامعات وكلها اصغاء واعجاب واحترام فزادها هذا حماسة في الحديث .. كالت المديح لعمها وزوجته فاحترمت هي ، اذ حسبتها الحاضرات تلك المدللة المحبوبة السعيدة حقا ، احتقرت غباوتهن ونظرت في عيني ابنة عمتها ، فرأت نظرات الاعجاب والاحترام نفسها ؟ ولوهلة قصيرة خيل لها ان ما قالته صحيح ولكن سرعان ما استيقظت من هذه النشوة ، فقامت مسرعة تترك بيت ابنة عمتها ، وسارت في الطريق مسرعة، هي تكاد تعدو تريد الوصول الى بيت خالتها . وعند الباب لقيت خالتها على وشك الخروج . سترجع خالتها اذ ستقول لها انها تحتاجها في امر مهم لا يحتمل التأجيل ، وما كادت تفتح فمها حتى بادرتها خالتها بالترحيب وبشكرها على المجيء،اذا كانتفيطريقها اليها لتاخذها معها الىالسوق، فهي تحتاجها غدا لتساعدها في اعداد وليمة كبيرة . . وطرقت كلمة وليمة

خيط الدم

يا حلما في رأس بحار
عن جزر تحلم ان يمر في رمالها صاري
تعومُ في هوائها من دون أغوار ؟
أشجارها . « وترقص الاسماكُ في الاقفاص » (١)
وتسبحَ الطيور في الاعماق ،
فلتمنح الليلة أشعاري
دفء الدم الراكض في الأعراق
فلم تعد في قلبيَ الناري
عواطف لم تبك
لم تحلم با بحار
ولم تهدهد صوت قيثاري

*

الليل في داري
منفتح الجرح على ثار
مكوم من دونما أحداقْ
ومثل نبض الحزن في الاعماق
تولول الساعة
شاحبة النبرة ملتاعه
ترهب ان تغتالها سكين جزار
في ليلة مغمضة من دون أقمار

*

يا جبهتي .. يا بركة النار
أخاف ان تنطفئي .. يا كوكبي الساري
اخاف ان تبرد يا نبع الدم الجاري
أخاف ان ...
بطلقة من يد جزار

ان تسبر المدية أغواري
تشق لحمي زبدة صفراء للشاري
لكنها يا بركة النار
لن تهدم الفجر .. واسواري
ولن ترى درباً لاسراري

*

يا جبهتي ...
ان مت يوما في يد الشارعْ
بطعنة من يد جزار
تحت ضياء مرهق .. ضائع
فانني يا بركة النار
أفقد حتى صوت أوتاري
أفقد حتى نار اشعاري
أفقد حتى نومي الوادع !
لانني أخجل من عاري !
الا أرى عاصفة النار
تخفق في الصاري
الا أرى الاعياد في الشارع
وضحكة في ثغر قيثار
يا جبهتي ..
فلتثملي بالحلم الرائع
ولتزحفي يا فرحة في قلب أوتاري

بغداد **سلمان الجبوري**

(١) مقتبس عن لوحة لبيكاسو تعالج امكانية وضع السمك في الاقفاص ، مع احتفاظها بحياتها في حالة السلام !..

سمعها كانها آتية من بعيد .. لقد مر زمن بعيد منذ ان اشتركت في ولائم ، والان وفي مثل هذا اليوم بالذات ، تختار خالتها هذا الوقت لاعداد وليمة ؟ ارادت ان تعتذر عن المساعدة وتشرح لخالتها نفسيتها المتعبة ومزاجها الذي لا يوافق جو الولائم ولا يستطيع المشاركة فيه ... انها متعبة مرهقة ولكن .. انها مدينة لخالتها باشياء كثيرة ، فطالما احبتها واهدتها واكرمتها وقد حان اليوم وقت ترد فيه لخالتها بعض افضالها، فكيف تعتذر عن المساعدة ؟ انها اسيرة الفضل ، وما دامت خالتها في نشوة اعداد وليمة فلا حق لها ان تعكر عليها هذا الجو . ستشارك في الاعدادلهذه الوليمة..انها ليست انسانا يحق له كالاخرين ان يظهرشعوره عليها ان تكظم الامها الى فترة مابعد وليمة خالتها . وآلمها هذا كثيرا . عليها ان تتألم ان تألم الإخرون وان تفرح اذا فرحوا وتضحك معهم وهي تكاد ان تتمزق ، لان لهؤلاء الاخرين فضلا عليها ولا فضل لها هي على الناس حتى يحق لها ان تطلب منهم مشاركتها وجدانيا . وامتلأت عيناها بالدموع وهي تسير بجوار خالتها ، ولم تُسمع شيئا مما قالته عن المدعوين وانواع المأكولات التي ستقدم . بدأ تفكيرها يبحث عن شخص قريب اليها نفسيا تشكو له ولو لم يستطع مساعدتها ، شخص تفتح له نفسها ، تخبره عن كل شيء .. كل شيء . وتذكرت احدى صديقاتها : انها مثلها غير سعيدة ، وهي لذلك ستفهمها ، صحيح انها لن تحل لها شيئا من مشاكلها، ولكن لابأس من التنفيس عن هذا الهم الذي يجثم على صدرها .واستأذنت من خالتها بعد ان وعدتها ان تأتي لتساعد في اعداد الوليمة . ووجدت الصديقة انسانا جديدا . وجدتها في نشوة وسعادة جديدة ، انها تحب، والمحبون انانيون اذا كانوا موفقين في حبهم .

انها لاتفهم ان يكون الحديث عن غير حبيبها ، فهي تتحدث عنه ولا تمل . ومضت تتحدث عن سـ عادتها واحلامها ، انها مشغولة بهما وهي لم تعد تستطيع ان تفهم كيف يكون الفرد تعسا ! كيف يتألم ! كيف يمكن ان يشكو !

ان مافي نفس صديقتها من رضى على الدنيا يبعدها تمام البعد عن جو الشاكين ، اذن فلتدعها في نعيمها ولتبتعد هي بهمومها فلا حق لها في تنغيص جو المحبين .

وعادت تسير وتسير ، ترى الناس ولا تراهم ، وحين سمعت صوت زوجة عمها يسألها : « أهذه انت ؟ » اجابت من غرفتها : « نعم لقد عدت . »

ديزي الامير

رجال محاصرون

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٩ ـ

القانون فيها .. فكيف تسمح بوقوع جريمة تحت سمعك وبصرك ؟

حسين ـ (متدخلا) ليست هذه جريمة ، كيف تفسد اخلاقك بهذه السرعة يا ابن العم .. كل ما هنالك ان ساقطة لوثت شرف العائلة والبلدة وينبغي أن ..

ابراهيم ـ ايها المتجبر .. ايها المأفون .. قلت لك لا تصف اختي بهذه الكلمات التي يخترعها عقلك المجرم .. لو كنت جريئا حقا ، لو كنتم جميعا ابطالا تدافعون عن الشرف ، لبحثتم عن المجرم الحقيقي .. لما فررتم منه الى امرأة ..

الشيخ منصور ـ من هذا المجرم يا ابني .. يا ابراهيم ؟.

حسين ـ لا تعر انتباهك الى مثل هذا الهذر ، ابرهيم يجرب لعبة جديدة ..

(يقف ابراهيم قبالة حسين متحديا)

ابراهيم ـ (بعد لحظات من الصمت) انه انا يا حسين .. انا .. انظر الي جيدا ، الا تعرف ابن عمك ؟ الا تدري انني انا الذي مهدت لاختي طريق ان تحيا في المدينة .. الم احملها على مرافقتي الى المحاضرات والحفلات ، ألم أقدم اليها اصدقائي .. انتم مجانين .. ما بالكم تخشون من مواجهة الوقائع ؟ لماذا تحملونها وحدها أوزار الاخرين ؟

حسين ـ (مشيحا بوجهه) نحن نعلم امرا واحدا ، هناك فتاة فقدت عفافها ..

ابراهيم ـ ومن جعلك تتأكد أن خديجة قد فقدت عفافها ؟.

حسين ـ كل الضيعة تعرف ذلك ..

الشيخ منصور ـ (يقف بينهما) هدئا من روعكما .. علينا ان نقرر الحقيقة .. فلسنا متأكدين من شيء بعد . ولكن يا ابراهيم الم تعاشر اختك رجالا غرباء ؟ ألم تقض أوقاتا طويلة مع احدهم دون رقيب ، الم تتنزه معه ، ألم تراقصه .. في الحفلات العامة ، الم تذهب معه الى بيته ؟

ابراهيم ـ كل هذا ممكن .. ممكن حقا ، ولكن لماذا نفترض فقدان الشرف في مثل هذه التصرفات ؟

الشيخ منصور ـ كل هذا عيب كبير ! كل هذا ينال من عرض الفتاة، قبح الله الثقافة التي تتحصنون وراءها ..

ابراهيم ـ اراك يا شيخ قد بدأت تفقد صوابك أنت الآخر .. ما الذي يدفعنا الى الغضب ، سوى الفشل في مناقشة الامور ؟ علينا ان نجد حلولا غير هذه .. العقاب بالذبح والضرب ، والشنق لن يفيدنا ، لن يجعلنا بشرا في أعين ذاتنا ، لن يريحنا من مواجهة الحضارة الزاحفة على عتبات صحرائنا وقرانا ومدننا .. أو تحسب أن الشر يمكن ان يقضى عليه بالشر ، انغسل الدم بالدم ؟

حسين ـ لا تخطب هكذا فينا ، لسنا اطفالا صغارا .. ثم لماذا نضيع الوقت ، لن تفيد شيئا يا ابراهيم من كل هذه الصرخات . نحن قررنا أمرا ، ولا بد أن نحققه من كل هذه الصرخات . نحن قررنا امرا ، ولا بد أن نحققه ، أليس كذلك يا شيخ منصور ؟ ..

ابراهيم ـ اترك الشيخ منصور الآن .. لا تحتم به ...

حسين ـ انا لا أحتمي بأحد ، ولكن البلد تطالب كلها بما اطالب به الآن ..

ابراهيم ـ تطلبون رأس المرأة أليس كذلك ؟ لماذا لا تحاول انْ تقنع الاخرين بأن هناك مجرما آخر ؟

حسين ـ سنصيد رأس الآخر قريبا ، حبيبها لن يختفي الى الابد .. نحن نعرفه ، وسوف تحين ساعته .

ابراهيم ـ أيها الاغبياء ، ما زلتم تجبنون عن مواجهة المجرم الحقيقي .. انا يا حسين ، ها أنذا منتصب أمامكم تحيطني عيونكم ، تأسرني قوتكم ، فلماذا لا تحولون انتقامكم الي ؟ أين سكينكم النبيلة ، هيا اقطعوا بها رأسي .. اقطعوا رأس رجل مرة واحدة ..

الشيخ منصور ـ ولكننا لسنا نمثل محكمة هنا ..

ابراهيم ـ ها ... اذن أنتم محكمة لقطع رؤوس النساء فقط !.

الشيخ منصور ـ الانتقام للشرف لا يؤلف جريمة ..

ابراهيم ـ لماذا يا صديقي لا تغار على شرفي أنا ، وتغار على شرف اختي فحسب ؟

حسين ـ هذا واضح .. لانك أنت مسؤول عن نفسك ، عن شرفك لوحدك اولا ، أنت رجل ..

ابراهيم ـ كلا ، انا انسان .. واختي انسان .. هل لهذه الكلمة معنى عندكم ؟

حسين ـ لا تعد الى محفوظاتك المدرسية .. تذكر انني درست معك ونلت الشهادة الثانوية معك ايضا .. فما هو هذا الانسان بالنسبة للعشيرة والبلدة ؟

ابراهيم ـ صحيح انك مثقف ، ولكنك رجعت الى الطين ، طمرت نفسك به ثانية ، لم تستطع ان تحتمل مسؤولية الشهادة ..

الشيخ منصور ـ هذا يشرفه يا ابني .. فحبن يعود الى أرضه وترابه ، فانه يفعل ما فعل آباؤه وأجداده ، اولسنا فلاحين ؟ لماذا تتنكر لاصلك يا إبراهيم .. انا ما رأيت شجرة انتقلت من تربتها الى تربة اخرى واستطاعت ان تستمر في الحياة وان تعطي ثمرها ..

ابراهيم ـ (يجول في الغرفة وقد نفد صبره) يا شيخ منصور ان احدا منا لا ينكر اصله . ولكن الفلاح كذلك يستطيع ان يتحضر دون ان يفقد أرضه .. فليست حياة الزراعة تعني البدائية او الثوب القذر .. والنوم مع الحيوانات .. لشد ما تزعجني هذه البيوت الطينية ، كأنها كوم قاذورات ، قد جوفت لتكون قبوا لكائنات تشبه الانسان .. أود لو أحرق هذه القرية ، أود لو أهدم هذا الكوم من القاذورات ، أود لو ادير النهر على الازقة لتغسلها نهائيا من الذباب والغبار وطبقات الجراثيم ... انتم أعداء للناس في هذه القرية التعيسة ..

الشيخ منصور ـ (وقد جلس مطرقا) رحم الله أباك.. لولاه لكنت الآن انت وخديجة وابن عمك حسين ، لكنتم جميعا تحيون في هذه الاكواخ التي تقول عنها انها كوم من الاقذار المجوفة ... فلولا اخلاصه في خدمة (البيك) لما اورثه هذا البيت الجميل ، وما يحيط به من بساتين غناء .. لولا البيك يا ابراهيم لكنت احد هؤلاء الفلاحين ذوي الاثواب الكالحة ، والأرجل العارية المسلحة بقشرة من الوسخ القاسي ، ولكنت نمت مع الدواب ، ولما عرفت قط درب المدينة .. ولما تنكرت

لاخلاق اهلك وعشيرتك .. ولكنت الآن قد غسلت العار ورددت لنفسك وقومك الكرامة السليبة ...

حسين ـ (يمزق شيئا بين اصابعه ساخرا غاضبا) ان حضرة الطالب الجامعي يأنف من ذباب قريته وبيوتها الطينية وأزقتها القذرة .. انظر يا شيخ الى أين تؤدي به مفاسق المدينة اللعينة ..

ابراهيم ـ كفاك كذبا على النفس ، لو كانت لك بعض الجرأة لاقتحمت حقا .. المدينة مثلما فعلت أنا وفعل كل مثقف غيري .. لقد كنت دائما ضعيف الثقة بنفسك ، وكنت تخفي هذا الضعف ، بصلف خارجي مزيف ، ورحت تتغلغل في مجتمع القرية ، وفزت بسرعة بمكانة مرموقة بين جهلتها وبسطائها .. هنا استطعت أن تتاجر بالتقاليد والعادات الريفية ، وتظهر نفسك بمظهر الحامي لعادات القرية ، وهكذا استطعت ان تجعل من ذاتك زعيما على الدهماء . ورحت أنت والشيخ منصور تتقاسمان الامجاد والمنافع .. عن طريق استغلال جهل الفلاحين ، وطيبتهم .. والا قل لي ما الذي جعلك أنت والشيخ منصور وبطانته تدافعون عن عائلة البيك هنا ؟ ما الذي جعلكم تقفون صفا وحيدا مع سعيد بك .. ضد الفلاحين ، ضد مطالبتهم بحصصهم العادلة من المحاصيل ؟

الشيخ منصور ـ (يتصدى بعنف) لا هذا كثير ايها الولد الضال ... لقد حرم الله انتزاع املاك الآخرين . أفما سمعت بذلك ؟

حسين ـ نحن ندافع عن حقوق سعيد بك ، يا لك من جاحد ناكر للجميل يا ابراهيم ، نحن نحيا على هبات أبيه .. لحمنا هذا وبيتنا وما تدعيه من ثقافة ، كله من فضله علينا .. أفما اقل من ان تدافع عن ابنه المسكين الوحيد .. الذي يرعى بيتا من الحريم اللائي لا عون لهن سواه ، أمه وشقيقاته الاربع ؟

ابراهيم ـ ليذهب الى الشيطان ، هذا الشاب المخنث المائع واخواته العوانس .. وامه الارملة الطروب .. ان خمسة الإف من البشر في هذه القرية لن تساوي هذه الحفنة من سقط المتاع ، أليس كذلك يا حسين بك ؟

حسين ـ (متراجعا مبهوتا) لا تناديني هكذا ..

ابراهيم ـ ولماذا ، ألست صديق سعيد بك ، ألست حارسه وحاميه هنا .. أولم يناداك الفلاحون بهذا اللقب بعد ان أصبحوا يخلطون بينك بينه ؟ لقد عملت جابيا له ، وكانت لك دائما حصة نسبية حددتها أنت ...

حسين ـ (يمسح عن جبينه العرق المتفصد) هذه اجوري ... انها حقي .. حقي ..

ابراهيم ـ صحيح .. اجورك من السرقات ..

الشيخ منصور ـ (وقد ضرب بسبحته الى الارض وقام يهم بالخروج) لست أدري متى حشوت دماغك بهذه الاضاليل ! أو تقول عن محصول الاراضي انه سرقة ؟ او كان لنا نحن جميعا حياة لولا اراضي البيك ؟ لقد كان رزقنا دائما من رزقه .. وهو رجل تقي ، وابوه عرف انه التقي والورع من قبل .. كم وكم ساعد الملهوف منا ، وعالج المريض وأجل ديون الفلاحين .

ابراهيم ـ (متابعا بنفس اللهجة ، ساخرا) كم وكم بهذه الديون التافهة استولى على اراض كاملة ، تساوي في قيمتها اضعاف الدين الاصلي ... كم وكم جلد من ابناء بلدتنا ..

الشيخ منصور ـ كان البيك مسؤولا عن حماية الاخلاق في الضيعة . كان يجلد الفاسقين امثالك ، رعاه الله وطيب ثراه ..

ابراهيم ـ وانتم اليوم ترثون هذه المسؤولية .. لا شك ان سعيد بك ما زال شابا صغيرا .. وانتم اوصياء عليه ، انكم تفعلون ما يجب ان يفعله هو فيما لو أصبح رجلا قادرا ..

(يسمع قرع على الباب ، يدخل حارس الضيعة ، تتحول اليه الانظار ، يقف المختار معتدلا)

الشيخ منصور ـ ماذا جاء بك يا ولد ؟ ...

(الحارس يتلفت حوله ..)

الشيخ منصور ـ قل ما تريد .. ليس بيننا غرباء .. لعله حدث شيء ..

الحارس ـ نعم .. لقد حطم بعضهم محرك السيارة .. سيارة سعيد بك ، لم يستطع ان يرجع الى المدينة .. الساعة متاخرة كما ترون .. معه بعض الناس ..

ابراهيم ـ من هم هؤلاء الناس ..

حسين ـ ضيوفه ولا شك ..

الشيخ منصور ـ هيا احضرهم الى هنا ايها الابله .. ماذا تفعل.. اين هم الآن ؟ ..

ابراهيم ـ يا حضرة المختار .. لماذا لا تضيف سعيد بك و (ضيوفه) في بيتك انت .. بدلا من ان تجعل بيتي هذا مأوى له ولجماعته ؟

الشيخ منصور ـ عيب يا ابني ان تتحدث هكذا وانت ...

ابراهيم ـ لن أقبله في بيتي هو و ...

(يدخل سعيد بك وخلفه تقف امرأة يظهر منها نصفها خلف الباب ..) .

سعيد بك ـ مساء الخير .. هل خديجة هنا .. أود أن اقدم اليها خطيبتي .. تفضلي يا نهلة .... ابراهيم سمعت بالحادثة .. لست ادري لماذا أعامل هكذا في الضيعة ، حطموا محرك السيارة وليس من واسطة للعودة في هذا الوقت الى المدينة ..

(حسين يفتح بابا آخر ينادي على خديجة ..)

حسين ـ خديجة ... خديجة ... تعالي لديك ضيوف ..

ابراهيم ـ هذا والله جميل .. كيف تقبل لمحكومة بالاعدام ان تصبح في لحظة مضيفة ؟

الشيخ منصور ـ صه .. ليس هذا أوانه ..

(تدخل خديجة بهدوء وخفر)...

ابراهيم ـ ادخلي يا اختي ، لم يحن بعد وقت التنفيذ ، الجلادون لم يجلوا سلاحهم بعد .. أليس كذلك ، هذه (خطيبة) سعيد بك ، ماذا كان اسمها .. آ .. عفوا السيدة ، عفوا ثانية الآنسة نهلة .. انها من فتيات المدينة ، انظري اليها يا أختي ، كم هي جميلة ، طرية أنيقة ، انها ولا ريب من نسيج القبلات ، نسيج الشفاه الشفافة لشباب نظيفين ، تطلعي اليها جيدا ، لقد كانت تقضي الليل مع سيدنا البيك في الحقول، وحدث أن بعض ((اللصوص)) قد حطموا سيارة صاحبنا ، بينما كان وخطيبته غارقين في أحد حقول القمح ... آه عفوا .. لم يكونا غارقين تماما .. ولكنهما كانا يكتشفان الريف ، كان هو الشاب الطري يفخر بطريقة ما أمامها ، لانه يعرف كيف يزرع القمح ، وكيف ينضج الزيتون ، فيشرح لها كل ذلك ، وهما مختبئان بين سنابل القمح .. نوع من الدراسة العلمية ، لا بد أنها .... الآنسة نهلة هذه ، قد اعجبت بمعلومات ابن البيك المرحوم .. والآن وقد انتهى الدرس العملي ، علينا

ان نؤوي الاثنين الى غرفة ... اقترح ان تكون هذه الغرفة في بيت المختار .. سيدنا الشيخ منصور ..

الشيخ منصور ـ على الرحب والسعة .. انا وبيتي وعائلتي في خدمة البيك ..

ابراهيم ـ ولكن ... قلها يا سيدنا الشيخ .. لا تدعني أترجم خواطرك ...

حسين ـ سعيد بك ، ارجو انَ تفهم .. لا يمكن للمختار ان يقبل..

الشيخ منصور ـ (متحمسا) اجل .. اجل يا سيدي البيك ، كنت اتمنى ان اقدم لك خدمة أجل من هذه .. ليس من الممكن ان تنام فتاة لم يعقد عليها بعد مع شاب في ...

ابراهيم ـ في بيت المختار يا سعادة البيك .. مفهوم .. مفهوم .. واما انا فاعتقد انه ليس من اللائق كذلك ان نؤوي خطيبة سعيد بك ، خاصة وان في بيتنا يعيش الفسق .. يا له من احراج شائك .. انك يا سيدي المختار لفرط تقواك لا تستطيع ان تأوي شابين لم يرتبطا بعد بالرباط المقدس في بيتك ، ولفرط فسقنا لا نجرؤ أن ندعو البيك وخطيبته .. لان يناما تحت سقف واحد مع الفسق .. أليس هذا شيئا رائعا ، كل الامور الآن قد وصلت الى ذروة عقدتها ، وأمرها بيد سيدنا المختار ،.فليحكم الآن بيننا ، أما أن تدنس التقوى في بيته أو يدنس عفاف خطيبة في بيت الفسق بجوار الفاسقة خديجة ... هاهاها ..

(ابراهيم يستغرق في ضحكة هستيرية) ..

خديجة ـ (تحاول أن تقول شيئا) هل الآنسة نهلة تعبة .. تعالي معي الى الداخل ..

ابراهيم ـ (يقفز فجأة الى جوار نهلة ، يمسك بيدها) أحب هذه المرأة .. أكاد اخطفها ، هل يسمح سيادة البيك ان المس قليلا يد خطيبته ؟ انها يد ذكية ، أتعلم يا سعيد بك كيف يمكن أن تكون يد امرأة ذكية ؟ . آ ! أحس بعشرات الشفاه قد قبلت أديم هذه اليد .. بل هذه الخدود ..

حسين ـ كفاك تهريجا يا ابراهيم .. ابتعد عن الآنسة نهلة ..

ابراهيم ـ لتقل لي هي ذلك .. انها مسرورة .. سعيد بك لن يستطيع أن يرضيها ، انه شاب نحيل لا يحتمل قسوة الحب . لا يستطيع ان يسيطر على جسد هذه المرأة القوية البنيان كأنها من أصل ريفي هي ايضا ...

نهلة ـ (وقد داهمها غضب مفاجىء) اخرس ايها الفلاح القذر .. انا لا اعرف الريف الا وقت النزهات . من قال لك ان أصلي من القرى.. مثل هذه ءءءء

الشيخ منصور ـ (وهو ينظر الى خديجة) ونحن ابناء الريف لا نعرف المدن الا وقت الانشراح والترفيه ... هاك الآنسة خديجة مثلا .. انها منا ومن غبار ضيعتنا ، ومع ذلك فلقد جذبتها مدينتكم الكبيرة . فانتعلت حذاء عاليا لامعا وسارت على ارض مبلطة ودخلت حجرات انيقة. وصافحت أيدي رجال كثر هناك ..

ابراهيم ـ (يحاول ان يهدىء من روعه) لماذا لاتنظر الى المسألة بطريقة اخرى ياعم منصور ؟

الشيخ منصور ـ وكيف تريدني ان افعل ؟

ابراهيم ـ لماذا لاتقول انها تحب المدينة ، انها تريد ان تحيا كما يحيا الناس جميعا في القرن العشرين ؟ الا نرى في المدينة غير الدعارة والفسق ، اليس فيها كذلك مجال العلم والعمل ، مجال الحياة اللائقة بالانسان ؟ ماالذي نخشاه من المدينة ؟

خديجة ـ (تقفز من طرف الغرفة) هذا هو كلامك يا استاذ ابراهيم تعود اليه مرة ثانية . هكذا علمتني دائما .. ان امضي الى المدينة وان احيا فيها حياة لأئقة بالانسان، ولكنك مالبثت ان تخليت عن الانسان ، تخليت عن كرامته التي بدأت بالنمو والحياة ..

حسين ـ صحيح لماذا تركتها وحدها ، صارت انسانا ، صارت اختنا خديجة انسانا .. بنت مدينة .. انظر ما اجرأها ، صارت تعرف انتحكي وتناقش الرجال .. الله الله يازمان ..

ابراهيم ـ (كأنه لم يسمع ماقاله حسين يتابع مخاطبته للشيخ منصور) ياعم منصور .. ينبغي لنا ان نتعلم كيف نفتح صدرنا للريح .. لا ان نختبيء وراء بيوتنا الترابية ونلعن الريح.. المدينة تزحف في كل مكان ، ولن يبقى ريف اوغيره بعيدا عن زحفها . انها سوف تتدخل في كل شبر من أرضنا .

الشيخ منصور ـ يابني يا ابراهيم ، الله لايجعلني احيا حتى ارى ذلك اليوم . لن اسمح ان تسفر نساؤنا وان تراقص الرجال ، وان تخطب في الناس ، وتدخل تحت قبة البرلمان .. ثم هاك مافعلت المدينة بك وبأختك .. لقد افقدتها شرفها .

ابراهيم ـ اسكت .. لن اسمع منك هذه الكلمة ثانية ياشيخ منصور ..

الشيخ منصور ـ دعها تقل هي ذلك !

(تتجه الانظار كلها نحو خديجة ، لحظات بطيئة من الصمت ،تتحرك خديجة الى امام ، تبدو على وجهها علائم الاضطراب والخوف ، ثم تتلامح عليه الحيرة واخيرا تقف رافعة رأسها وقد صممت على أمر .)

خديجة ـ هذا موضوع لايتعلق الا بي وحدي ، انا وحدي ، افهمتم؟ ليس لاحد الحق في ان يسألني اي سؤال حول هذا الموضوع .

حسين ـ (يتمتم من خلال صرير اسنانه) ، اترون ؟ صارت خديجة حرة ، عرفت الحرية ..الحرية ..

سعيد بك ـ (يحاول ان يلطف من الجو ، يتكلم وهو ينظر مضطربا بين كل الوجوه حوله ،يبدو انه لايعرف ماذا يقول) ياأخوان هدئوا بالكم، نحن لانعرف ماذا بكم ، لقداقتحمنا عليكم جلستكم هذه فاعذرونا . احب ان اتدخل قليلا ، فانا اسمع اتهامات شنيعة هنا .. لااستطيع ان اتصور ان الانسة خديجة ، لاسمح الله ، قد فرطت بشيء غال لاتفرط به اية فتاة شريفة في القرية او المدينة .. خديجة اصبحت فتاة انيقة مثقفة، لها مكانتها في المجتمع ، التقيت بها في كثير من الحفلات والمحاضرات وكم اعجبت بها . انها تفرض احترامها على الجميع ، في كل مكان توجد فيه.

الشيخ منصور ـ (يقاطعه بلباقة) ولكن ياسيدنا البيك ، خديجة بنت فلاحين . والفلاحون لهم تقاليدهم فلا يجوز ان تفرط بأخلاق قومها. ثم اننا علمنا بانها خالطت شابا معينا .. وانها تذهب معه الى بيتهوتقضي معه اوقاتا طويلة . فهل بعدذلك تظل مثل هذه الفتاة محافظة على شرفها؟ لا ، لا ، والله لايمكن هذا ..

ابراهيم ـ لماذا نسيء الظن الى هذه الدرجة ياشيخ منصور ، ان مرافقة الرجال لاتعني دائما ضياع شرف البنت .. انظر مثلا الى سعيد بك ، انه يصطحب معه خطيبته الى الضيعة ، ثم هاهما يضطران الى النوم هنا ..

الشيخ منصور ـ (مرتبكا) هذا موضوع اخر ..هذا ولا شك موضوع اخر .. ولماذا لاتجعل اختك تعترف بأنها لم تفعل شيئا ، قل لها ان تدافع عن نفسها . .

حسين ـ ماهذا ياشيخ منصور ؟ ومتى كان للمرأة ان تصدق ، ان تدافع عن نفسها ..

الشيخ منصور ـ بل دعها تنفي التهمة عن نفسها .. على الاقل !

حسين ـ وماذا تنتظر منها غير ذلك ، اتريد ان تقول لك انها سلمت نفسها للرجل ؟

الشيخ منصور ـ (بلهجة آمرة) . بل قلت لك دعها تفصح هي عن نفسها ...

(تتجه الانظار ثانية الى خديجة)

خديجة ـ (وهي تحملق في الفراغ) لن اقول شيئا . هذا ليس من حقكم .. هذا لايعنيكم.. انه من شؤوني انا وحدي ..

حسين ـ اولم أقل لكم (يضرب كفا بكف) هذا هو الاعتراف ، لاتجرؤ ان تقول اكثر من ذلك .. انها ساقطة .. ساقطة ..

(خديجة تلتفت نحو ابن عمها ، تهم ان تحرك يدها ، ولكنها تطرق رأسها ثم تهرول خارجة من الغرفة ، يرين الصمت على الجميع .. يتوجه ابراهيم الى سعيد بك ..)

ابراهيم ـ ارجو عفوك عن هذه الجلسة الكئيبة .. اعتقد ان الانسة نهلة قد تعبت . والشيخ منصور كان ابدى استعداده لدعوتها الى بيته.. أليس كذلك ياعم منصور ؟ هناك يمكن ان تحافظ على سمعتها جيدا في بيت المختار ، مابالك ياعم منصور ؟ الست راضيا عن استقبال ضيوف الشرف هؤلاء في بيتك الليلة ؟ هيا قل !. ماذا حدث لك ؟ ان عينيك زائغتان .. انت لاترى شيئا .. يكاد ان يغمى عليك .. المسألة في غاية البساطة ، انت تؤوي عندك سعيد بك .. سيد القرية والانسة خطيبته في بيتك ، أهذه مصيبة كبرى حتى تصيبك مثل هذه الحمى ؟

نهلة ـ (وقد راحت تغمز بعينيها وهي تحدث سعيد بك) هـــذا الشاب عظيم .. ماسمه ياسعيد ؟

سعيد ـ دعيك منه .. آه عفوا ، انه ابراهيم .. ابراهيم ..

نهلة ـ مادام العم منصور لاتشرفه زيارتنا .. و

الشيخ منصور ـ (متلعثما) العفو ياستي الله يخليك ، الله يديم عزك ، نحن كلنا خدامك لكن ..

نهلة ـ (تتابع دون ان تصغي اليه) مادام حضرته يخشى علـى سمعته منا نحن اصحاب الارض ، فانا افضل ان انام في بيت السيـد ابراهيم ، اذا كان يقبل ..

(تنظر الى ابراهيم بتودد مكشوف ، يتأملها ببله ظاهر ، منصور يظل يطقطق بسبحته بصوت عال ، يمسح لحيته بعصبية بين لحظة واخرى نهلة تأخذ بيد ابراهيم ، وتجلس معه على مقعد طويل في اقصى اليمين من الغرفة ، يسمع همهمة الاخرين)

نهلة ـ لاتظل مطرقا هكذا ، أأنت من هذه القرية ياابراهيم ؟ عجيب كأنك احد شبان الجامعة ..

ابراهيم ـ أنا ادرس في الجامعة ..

نهلة ـ صحيح .. لابد انك اذن من اسعد الشباب . آه .. بـودي لو استطعت ان اكمل دراستي الثانوية وادخل الجامعة .. اتدري ، كنت اود ان ادرس الطب ، ولكن كما ترى كان حظي ان ادرس الرجال ..

ابراهيم ـ اوليس هو خطيبك .. اذن ؟

نهلة ـ لاتكن مغفلا يا ابراهيم ، اترجع قرويا .. كان لابد لكــل الرجال الذين عرفتهم من أن يكونوا خطابا لي . فلقد تركت المدرسة بسبب اول خطيب ، ثم تعرفت الى خطيب ثان وثالث ، وهذا صاحبكم اخــر مادفعته الاقدار الى طريقي ..

ابراهيم ـ الاخر وليس الاخير طبعا ..

نهلة ـ طبعا ها ها ها ...

(يتضاحكان بصوت عال)

نهلة ـ قل لي احقا تريد ان تقتل اختك ؟ لااستطيع ان اتصورك قاتلا ياابراهيم . ماذا فعلت المسكينة ؟

ابراهيم ـ لاشيء ، لاشيء . وانا لااعرف ان اقتل ، ولكن يبدو انهم سوف يعلمونني ذلك ..

نهلة ـ هل ستذبحها (تشير الى عنقها) اتقدر ، اتقدر ، اتعني انك ستقتل ، لانهم ، لانهم هم يريدون منك ان تفعل ذلك ؟

(يعلو صوت نقاش الاخرين في الغرفة)

ابراهيم ـ لست ادري ، لعلي انا ايضا اريد ذلك ..

نهلة ـ (تنظر اليه في رعب وكأنها ترى وجهه لاول مرة) وهل تظن ان سعيد هو ايضايشترك معهم في ..

ابراهيم ـ لابد له ان يفعل هذا . اليس هو البيك ، الا يحكم هذه القرية ؟ انه صاحب التراب وكل من يدب على التراب هنا ..

(تقوم نهلة وتتجه نحو الضجة ، يعلو صوت الضجة حتى تضيــع بين الاخرين ، تقف قبالة سعيد الذي يبدو انه كان منهمكا بحديث خطير مع الشيخ منصور)

سعيد ـ ماذا بك ، هل تحاولين ان تكوني مخيفة انت ايضا ؟

نهلة ـ سعيد هل انت ،هل انت معهم ؟ أخبرني ..

سعيد ـ معهم ؟.. في أي شيء ..

(يلتفت نحو منصور وحسين متسائلا بخوف) ..

نهلة ـ لاتتجاهل ! قل لي هل انت مشترك معهم ؟..

(الذعر والحيرة تنتاب كلا من حسين ومنصور)

سعيد ـ ارأيتم ، ان احدا لابد قد اخبرها ..

(يتقدم منصور منها) .

الشيخ منصور ـ اصغي الي يالانسة ، نحن مضطرون ان نفعل ذلك، والا فان قانون الاصلاح الزراعي لن يبقي لكما شيئا ..

نهلة ـ (مدهوشة) ماذا تقول ، انا-لااعرف شي ...

الشيخ منصور ـ (متابعا ومن ورائه حسين) لقد كان المرحوم والد سعيد بك حاجزا على سندات كثير من اصحاب الاراضي من الفلاحين لقاء ديون لم يدفعوها له .. من حسن حظكم انه توفي قبل ان ينقل هـــذه السندات الى ملكيته الخاصة ..

حسين ـ لاتخافي انا اضمن لكم الفلاحين ، ستظل سندات الارض باسمهم ولكن المحصول هو لكم ..

نهلة (مبهوتة) ـ ماذا تقولون ، انا لااعرف شيئا عن هذا الموضوع .. رباه .. ولا يهمني من أمر هذه الارض شيء ، انا لااهتم لامر بعـد هذه الليلة .. كنت اسأل سعيد ان كان مشتركا في قضية القتـــل هذه .. هل سوف يذبح معكم خديجة . ولكن ها انتم تكشفون لي مـن تلقاء ذاتكم عن مؤامرة قذرة اخرى ..

سعيد ـ الحق ان نهلة ليست بعد خطيبتي ، لكنني سوف اطلـب يدهــا ..

نهلة ـ صحيح ايها الجبان !.

الشيخ منصور ـ معاذ الله يالانسة ان يكون سعيد بك جبانا ..

نهلة ـ من هو هذا الشخص الذي عاش وابوه من قبله على اموال الربا .. ومن انت ايها الشيخ المحترم الذي يقوم بدور المفتي الصالـح لكل جريمة ترتكب بحق هؤلاء المساكين .. والسيد حسين هذا الـــذي سوف يضمن بقوة عصاه ان يبقي الفلاحين عبيدا للبيك حتى في وقت توزع فيه اراضي الاقطاعيين ..

سعيد ـ (مبررا) اسمعوا ياأصدقاء ، هذه الفتاة لها آراء طائشة، انها تناقش كثيرا في قضايا سياسية واجتماعية .. لها عقل طائش ،ولكنها سوف تهتدي للحقيقة .. لاتخشوا شيئا .. اعتدت على آرائها ، كــل لحظة لها رأي مختلف .

نهلة ـ (محتدة) ، اية حقيقة هذه ... احمد للظروف التي جعلتني اطلع على خفايا هذا الريف الجميل ، ريفك الاخضر الهانيء الذي قضيت فيه الساعات تصفه لي وتصوره لي كالجنة .. الذبح والاحتيال علـى الفلاحين والقوانين .. هذا هو ريفك .. الجنة ..

سعيد ـ ماذا جرى لك يانهلة ؟

نهلة ـ رائحة الدم والعرق والموت تفوح من كل شيء هنا ، اريد ان ارجع الى المدينة حالا .. هيا لن ابقى لحظة .. لن ابقى ..

حسين ـ ولكن يالانسة ليس من وسيلة .. توصلك .

نهلة ـ لااعرف .. لااعرف ، دبروا لي اي شيء .. انكم تعرفـون كيف تحلون المشكلات اليس كذلك ، رقاب تذبح وعبوديات تدوم وبعـد ذلك لايمكنكم ان تهيئوا لي سيارة ..

الشيخ منصور ـ سوف تبيتين عندي هذه الليلة ..

نهلة ـ لا ياشيخ .. وسمعتك غدا بين الفلاحين ، ماذا سيقولون ؟ لقد نامت عندك صاحبة البيك اليس هذا ماسيقولون ؟

الشيخ منصور ـ لابأس ، لابأس ، في سبيل سعيد بك .. ثـم ، ثم اريد ان احدثك حديث العقل يالانسة نهلة .. انك شابة قد تنتابك كثير من الافكار المتهورة ..

نهلة ـ (تتوجه الى ابراهيم) ، ماذا تقول ياسيد ابراهيم . انني اود ان انام عند هذا الشيخ .. اريد ان انام عنده وسأخرج غدا صباحـا من بيته امام جميع الفلاحين..

الشيخ منصور ـ لاحول ولا قوة الا بالله .. لاحول ولا قوة الا ..

(تخرج نهلة ويخرج وراءها الشيخ منصور وسعيد ، يبقى في الغرفة حسين وابراهيم)

حسين ـ اسمع يابن العم ، لماذا لاتقنع اختك بان تخطب صديقها وتنقذنا جميعا من هذه المشكلة ؟ الضيعة كلها على علم بالفضيحة .ونحن لنا مكانتنا هنا.. لايمكننا ان نتغاضى ياابراهيم ..

ابراهيم ـ وماذا ستفعلون بنهلة ، هل ستذبحونها ايضا لانها اطلعت على مؤامرتكم ؟

حسين ـ سيدبر أمرها سعيد بك .. ينبغي ان نبقى اقوياء امام الضيعة ، لو تهاونا مع خديجة ضاعت السندات كلها ..

ابراهيم ـ لماذا لم تقل هذا من البدء يااخي . افما كان اوضح وايسر على الفهم لو اننا تخلينا عن هذه الالفاظ لكبيرة ، الشرف والعرض والسمعة ..

حسين ـ عندما لن نقاوم نساءنا ، فاننا لن نستطيع ان نقف في وجه اصغر صعلوك في القرية . ولا تنس انك واحد منا ، من الذين سينتفعون من هذه السندات . فلو رجعت الارض الى اصحابها ، سوف ترجع فلاحا صغيرا ، تعمل في الطين معنا ، ولن ترى الجامعة ولا الشام في حياتك . ولذلك ليس هناك سوى هذا الحل .. عليها ان تجبر حبيبها على الزواج منها حالا .

ابراهيم ـ اما زلت تجهل طبع خديجة ، انها ترفض هذا كما رفضت ان تنفي او تثبت التهمة على نفسها . لقد اصبحت لها كبرياء انسان ، اتفهم ذلك ، اتفهم حسين.

حسين ـ ما معنى كبرياء انسان ، اوليس لنا نحن ايضا كبرياء . لعنة الله على المدارس والمدن .. شوهتكم ، قطعتكم عن اصولكم .

ابراهيم ـ (محتدا) ، لماذا ترجع الى مثل هذه الاكاذيب ياحسين؟ انت تعلم انك لاتفعل اي شيء الا بالنسبة لصالح قوتك وصيتك في الضيعة . اذا ذبحت خديجة فسوف تبقى حسين البطل المخيف وعندئذ فسوف تظل اعناق الفلاحين خاضعة لك ..

حسين ـ انظر الي ياابراهيم ، لقد ضقت ذرعا من هذا الكلام الطويل بدون نتيجة ابحث لك عن طريقة حتى صباح الغد .. والى اللقاء !

(يخرج حسين بخطوات سريعة ، يضرب الباب وراءه ، يظل ابراهيم ساكنا لحظة . يضع رأسه بين يديه ـ ثم تدخل خديجة بعد قليل) .

الفصل الثالث

(نفس المنظر ..)

خديجة ـ ماذا ستفعل حتى الغد يا أخي ؟ انني أرثي لحالك ..

ابراهيم ـ صحيح كأنني أنا المذبوح ، ولست أنت .. اتذكرين يا خديجة عندما كنت تتشبثين بيدي كلما هممت بالمضي الى المدينة ، كنت تحبين أن تأتي معي الى ذلك المكان الكبير ، الذي يعج بآلاف الناس ويزدحم بآلاف الاشياء ...

خديجة ـ (وكأنها تحلم) كنت صغيرة آنذاك ، وكنت انت تدلني دون أن تريد ذلك على طريقة سريعة لكي اصبح دفعة واحدة امرأة ، ليس هذا فحسب ، كنت اسعى لان أكون شيئا . اواه لكم اشتقت للسير في شوارع لا تنتهي وحدي دون حاجة الى حراسة . كنت أود أن أخاف هناك وحدي بين آلاف الوجوه التي لا تعرفني ولا أعرفها ...

ابراهيم ـ (وكأنه يتابع حديثا ذاتيا) أيمكن هذا .. أيمكن .. اوه ، انك تحيرينني يا خديجة ، هل أحببت ذلك الشاب حقا ؟ كيف انتقيته من بين عشرات الاصدقاء والزملاء؟ أفما كان بينهم جميعا من يصلح لك زوجا حقا ؟

خديجة ـ أوكنت أنت كذلك تحسب انني ابحث عن زوج .. للانسان ان يحيا اولا ...

ابراهيم ـ هذه هي القضية .. ولكن كيف ... كيف ..

(يروح ويجيء بعصبية)

ابراهيم (متابعا) ـ انظري الينا في هذا الموقف مثلا ، الى ما آلت اليه الامور . أيمكن ان يصدق هذا ، أيمكن أن يصدق هذا .. أيمكن أن أكون دافعك الى الجريمة وقاضيك .. وجلادك كل ذلك في لحظة واحدة ...

خديجة ـ انا مقتولة من قديم ، منذ البدء أكاد أحس انني لم أكن يوما ، بحاجة الى جريمة او قاض او جلاد .. ما دمت هذه المقتولة ابدا ..

ابراهيم ـ كانت لك نظراتك الحالمة دائما .. وأنت أحسن من يعنى بالسخلات الصغار منذ ان تولد .. كان ابوك يسند اليك امر الاشراف على اصغر الحيوانات في قطيعه الغالي ..

خديجة ـ الخراف التي أحببتها وارقدت بعضها في فراشي .. كانت تعدو دائما للذبح ..

ابراهيم ـ معلمة القرية ، ماذا كان اسمها ، آ .. الانسة (حسن) قالت عنك مرة انك شاعرة ، ولا بد ان تصبحي شاعرة عظيمة فيما لو تابعت دراستك .. لهذا كنت تسرحين دائما في البساتين وحدك . كنت تنفرين من مصاحبة أحد من رفيقاتك .. هل نظمت فعلا شيئا من الشعر يا خديجة .

خديجة ـ اواه ، يا أخي المسكين ، اترثيني منذ الآن .. لست في حاجة لان تجعل مني هذه الضحية العظيمة لكي تخفف عني الموت قبل ان موت . كنت أريد ان أصبح شيئا ما ، هذا كل ما هنالك وأحببت انَ أرى دروبا كثيرة تنفتح أمامي . وهنا في القرية ليس الا هذا الافق البليد ، الذي لا يؤدي اليه أي درب .. ابراهيم أما كنت تغار ؟ ...

(يجفل ابراهيم ، ويقف امامها) .

ابراهيم ـ أغار من أي شيء .. أنا .. ؟

خديجة ـ مني يا ابراهيم ، مني أنا ، لا تعجب ، أنت لم تستطع أن تعاملني الا كأنثى ..

ابراهيم ـ ماذا تقصدين بقولك السخيف هذا ؟ أوضحي بسرعة .

خديجة ـ مجرد خاطر ، لا تغضب هكذا . ان الانسان ليعجب كيف يمكنك ان تتحول هذا التحول المفاجيء من شبه قديس الى مثل هذا الكائن الغريب المخيف .. هذا ما يجعلني أثق انك ستقتلني يا ابراهيم.. انك تقدر ، تقدر ، لا أحد غيرك يمكنه انَ يكون قاتلي الا انت يا ابراهيم. انت تغضب دائما ، بل كنت كذلك الرجل الذي يكتم غضبه ، فيتحول الى وحش من الحقد الداخلي ، كنت لا تستطيع ان تراني اصبح لرجل آخر..

ابراهيم ـ وماذا في ذلك ؟ .. انا شرقي..هل تذكرين يا خديجة.

خديجة ـ (تتحرك نحو النافذة) اوه ، ليت المسألة تقف عند هذا الحد .. الظلام في الخارج مطبق . أنصت .. ماذا تسمع ، أنا أكاد أسمع للسكون ثمة ضجة .. يا لي من غبية ..

ابراهيم ـ (يقف خلفها) لم تقولي لي لماذا أغار عليك ..

خديجة ـ لا بد انك كنت تستطيع أن تقتله ، منيب ، أو غيره ، أي واحد من الشباب ..

ابراهيم ـ قد يكون الامر صحيحا ، ربما غرت من اي انسان سوف يخطفك مني . نحن عشنا معا دائما يا أختاه ، كنا يتيمين ، وكنا نشق طريقنا الى الحياة بجهدنا الخاص ..

خديجة ـ ولكن يظهر أننا أطلنا هذا الطريق اكثر مما ينبغي ....

ابراهيم ـ الانسان لا بد أن يتابع ما بدأ به .. الطريق أمامنا .. فما الذي كان يمنعنا من متابعته ؟.

خديجة ـ انك تضحكني بهذا الكلام ، كأنك لم تزل ابراهيم القديم ، ذلك الشاب المتحمس لاية رغبة تجتاح نفسه البكر .. ولكن ماذا حدث اخيرا ؟ انا وحدي التي يمكن ان أدفع ثمن هذا الحماس وتلك الرغبات المجنونة ..

ابراهيم ـ كلنا يدفع هذا الثمن بطريقته الخاصة ..

خديجة ـ (تلتفت بعنف صارخة) اقتلني يا ابراهيم ... اقتلني ولننته من هذه المسألة . لا تدع انك تتردد ، لا تدع انك لا تحسن القتل .. القتل أبسط الامور التي اتقنها الرجل دائما لينتهي من مشكلة يعجز عن حلها .. اما أن يقتل نفسه أو يقتل غيره ..

ابراهيم ـ أما أنا يا خديجة .. فانني بعمل واحد سوف أقتل غيري وأقتل نفسي معا ..

خديجة ـ وهذا ما يخيفك يا أخي ، أليس كذلك ؟ انك تخشى أن يكون في قتلي قتل لك ايضا .. لقد فررت دائما من تحمل المسؤولية مهما كان نوعها ..

ابراهيم ـ ليس هكذا ، لا تظلميني يا أختي ، انك ..

خديجة ـ (مقاطعة) أظلمك ، لا لا يا أخي انك لا تود ان تكون مسؤولا عني حية او مقتولة ..

ابراهيم ـ لماذا تخادعين نفسك هكذا ؟ أفما تودين ان تكوني الانسان، الانسان الحر ، فلماذا تطالبين غيرك أن يكون مسؤولا عن أعمالك ؟

خديجة ـ أنا رفضت هذه المسؤولية منذ البدء . لقد تركتني وشأني طيلة سنوات ثلاث . فما بالك تسألني اليوم عن أعمالي ؟

ابراهيم ـ (بألم) نحن قرويون ، نحن من هذا التراب ، ومهما ابتعدنا عنه فاننا مقيدون بحبل غير مرئي .. لا يلبث أن يشدنا اليه في أية لحظة ، عندئذ لا بد أن نقع على الطين ثانية ونغمر وجهنا به ...

خديجة ـ (وقد عاودتها طبيعتها الحالمة) أحب هذا الطين ، أحب أن أغمر كياني به ... أن أتمرغ عليه بجسدي العاري .. أتذكر يا ابراهيم ... كنا نعدو الى الدغلة كلما هطلت الامطار . كنت أفر من البيت وأنت تحاول أن تلحق بي .. ولكنك قلما كنت تكشف مخبئي .. سأقول لك الآن اين كنت أمضي ، هناك أصعد من الدغلة الى سفح الجبل ، وأظل أتسلق الصخر .. ثم أصل الى مغارة سرية .. لا يعرفها أحد غيري .. كنت هناك استلقي على عتبتها ، وارنو الى الامطار الهاطلة، أمد رجلي الى المياه ، أقوم فأخوض قليلا في البرك المتجمعة امام مدخل المغارة .. وعندما يشتد البرد أوقد شيئا من الحطب أجمعه لمثل هذه اللحظات .. وأتمدد قرب النار ، واذ يشتد عصف الرياح وقصف الرعد اصاب برعب لذيذ ، وحدي هناك كنت أحس كأني نبتة غريبة عن الارض .. تنتعش بالطين والمياه . ويرعبها قصف الرعود ، كأني قطعة من الصخر .. أتحول الى قطعة من الالماس .. تولد من صلب الجبل الصخري ، وتمتص اضواء الصواعق ، وتحبسها بين ذراتها فهي باردة كالصخر .. مضيئة كصواعق السماء ...

(في تلك اللحظات يسمع صخب خارجي أشبه بقصف الرعود وزئير الرياح ..)

ابراهيم ـ هكذا اذن كنت تختفين الساعات الطوال عن البيت ..

خديجة ـ في المغارة كنت أقرأ وأحلم ، وحين تعصف الرياح أتحول الى جزء من الجبل العاري الاجرد .. كنت أريد ان أصبح قطعة من الماس .. اواه لكم تمنيت أن أعرض جسدي لبروق الصواعق ، أحسست أن هذه الصواعق هي الطريقة الوحيدة التي يتحول فيها الحجر من الصخر ، الحجر من اللحم الى مادة لماعة مشعة ، تختزن النور . كنت أحلم أن أصبح بمعجزة قطعة ألماس ..

(الاصوات الشبيهة بالرياح والرعود ما تزال تحيط جو المسرح بهالة من الغموض والرعب ...)

ابراهيم ـ هذا هو الشعر .. الشعر . شاعرة انت حقا يا خديجة اوه بل ساحرة .. ساحرة .. انك تخيفينني بهذه الاحاسيس الغريبة .. لا بد أنك قرأت كثيرا تلك الكتب اللعينة التي كنت آتيك بها .. ما كان ينبغي لي أن أدلك على هؤلاء الكتاب وأنت في عزلتك ، وتلفاء خيالك الجهنمي هذا .. أنا أضررت بك .. أسأت اليك .. وهذا ما أجنيه الآن ..

خديجة ـ الكتب لا تفعل شيئا وحدها .. انها تحتاج الى انسان .. انسان .. ـ

ابراهيم ـ بل الى مجنون ....

خديجة ـ يا أخي المسكين .. حتى ثقافتك دخيلة عليك .. انك لم تفعل شيئا سوى انك نلت شهادات متتابعة ، أما أنا فقد قرأت هنا وحدي وبمعزل عن المدارس والشهادات عن القراء الرسميين ...

ابراهيم ـ وماذا أفدت يا صفيرتي التعيسة ؟

خديجة ـ اوه سيحزون رقبتي ، هذا حق .. ولكن احلامي لن تنالها أي سكين .. لن يذبحها أي جلاد ..

ابراهيم ـ سنديانتك قطعوها منذ زمان طويل .. الشجرة التي غرسها أبوك يوم ميلادك خلف الدار لقد طالت وطالت وتصلبت ساقها.. ولكنهم قطعوها قطعوها في ساعات ، ولما هوت على الارض لم يسمع الفلاحون أعظم من تلك الضجة .. كان زلزالا تحت أقدامهم ...

خديجة ـ وما زلنا نحرق من خشبها حتى الآن .. اكثر اهل الضيعة احرقوا من خشبها تحولت الى نار ورماد ، ثم اختلط الرماد مع التراب ، وفي الشتاء أحس بالطين طعم الرماد ، رمادي القديم ...

ابراهيم ـ تمرغت بطين القرية ، طين الجبل على عتبة المغارة ، مغارتك السرية العالية ذات الجوف المظلم والمفتوح على الفضاء والصواعق .. والرياح . ولكنك تمرغت ايضا بطين المدينة . هناك قذارة شفافة أخرى لا تكسو الجسم وحده .. وانما تنخر الصميم .. تنفجر من الداخل مع الدماء وتتمشى تحت الجلد في كل أنحاء الجسد ، (يمسك بكتفها فجأة) قولي لي ماذا فعلت بجسدك يا خديجة هناك .. الى أي حد عصفت به رياح مشؤومة .. ماذا أعطيت منه لمنيب ، ماذا أعطيت منه ... ؟ ..

خديجة ـ فلاح .. فلاح عتيق .. ذكر ابتدائي .. سيأكل اتثاه بعد لحظات .. كلكم سواء .. كلكم سواء . ألم أقل لك أنك تفار ، تفار ..

ابراهيم ـ (وقد فقد صوابه) ماذا فعل بك منيب ؟ هل هو الصاعقة ؟ هل هو ذلك النور اللاهب الذي اشتقت اليه ؟ ماذا حل بجسدك ؟ هل تحرر من صخرته ، من طينته ؟ أين ألماستك الشهيدة ؟ صقلتك الصواعق والبروق ، كنزت في جسدك ، بدل الدم ، ذلك النور البارد الدائم اللعين .. يا رب أود أن أطفىء الصواعق الى الابد ، لامنع حلم امرأة تعيسة ، تريد ان تجعل من جسدها جوهرة دافئة عربيدة.. يا رب أود أن أهدم هذا المنجم الشيطاني ، أن أبدد كنوزه .. أن أطمر فوهاته ، ليرجع الى ارض الجان ليغوص تحت الوحل الى قعر الدنيا .

(خديجة تتراجع الى الخلف ، تنحصر في الزاوية ، ابراهيم يصيح وهو يدور في أرجاء الغرفة بحركات جنونية ...) .

ابراهيم ـ أين ذلك النصل العظيم ، أمتشقه أسحبه .. من مخبئه الاسود .. أغوص به في مخبأ من اللحم والدم والآهات ؟ ..

(ابراهيم يخرج للحظات ، ثم يرجع بلمح البرق ، وفي يده تلتمع سكين طويلة .. ويقترب من خديجة وهو شاهر فوقها السكين ، عيونها تراقب لمعان السكين ، لا تخاف ، وانما تصمد بعنف رائع ..)

خديجة ـ هيا افعلها ايها الجزار ، لن تجز الا رقبتي ، وأما أحلامي ، أحلامي ، فستبقى لي الى الابد .

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

الرسائل المغفلة

قصة بقلم البرتو مورافيا

ذلك الشتاء ، اذ الفيتني في بلدة ب بسبب الدراسة ، اقمت صداقة مع المدعو طوريزي ، الموظف في البلدية .

كنا نسكن معا في بيت ارملة ، كانت تؤجر الغرف . وطوريزي بردائه الاسود ، بين حجرات الارملة المشادة فوق الدرج الصعب الارتقاء ، والقاعات المزخرفة في القصر البلدي ، كان يقضي عمره. كان شابا اشقر ، ذا وجه ابيض ومرتجف قليلا ، من طراز قصير وبدين ولكونه كان يضع نفسه باستمرار ازاء تفاهته ووضاعته وجهله، بالحاح مزهو تقريبا ، ادركت انه كان مغرورا كثيرا . من هذا الغرور الذي يفضل بالضبط ، ان يحقر ، خشية ان يحقر . لكي اقول الحقيقة ، كان رأيه عن ذات نفسه، تواضعا مزيفا يتجاوب مع الواقع . فطوريزي الذي كان يعلن عن نفسه في كل لحظة ، رجلا عبقريا وذا ثقافة نادرة ، لم يكن يقدر كم هو فظ وقاس حقا ، لكن تحت هذه القشرة، كان يخفي روحامعقدة، يخدمها ذكاء مخادع ، اذا لم يكن حاذقا .

بعد العمل ، كنت التقي به دائما . وبسرعة غدونا صديقين . في مدينة اقليمية ، حيث الازدحام والعلاقات البشرية تزدحم بشارع ليس هو بأطول من مئة خطوة ، وفيه زوج من المقاهي ، ليس من الصعب ايقاظ الانتباه . لهذا لم اعجب كثير عندما استلمت اول رسالة مغفلة ، على ورق ذي سطور مربعة ، وفي مغلف صغير كان يبدو مهترئا ، كنت احاط علما باني كنت مخطئا في منح صداقتي للسيد طوريزي . واردفت الرسالة ، بانه شخص غير مخلص ، حسود واش ، قادر على تخطيط المؤامرات التي لا تصدق .. « كن حذرا الخ ، الخ.. » وفي مكان التوقيع ، كانت العبارة المبهمة «صديق »..

القيت الرسالة في سلة المهملات . وتابعت الذهاب الى حجرة طوريزي .

بعد بضعة ايام ، وصلت الى يدي رسالتان غيرها . كانوا يتابعون في هاتين الرسالتين ، وصف شخصية طوريزي باسلوب مناهض.وفي النهاية ، يحذرونني من انه في وقت قريب جدا ، سيكون لدي البرهان ..

وانقضت ايضا بضعة ايام فوردت رسالة رابعة تدقق : طوريزي كان يقامر ويخسر . سيطلب مني اقراضه نقودا ، فيجب الا اقرضه. لان طوريزي كان محتالا ..

وفي تلك الليلة ذاتها ، طرق بابي ، فدخل طوريزي وهو كثير الانفعال ، قائلا انه الفى نفسه مضطرا لان يرجوني معروفا . لم اتمكن الا ان اهتف :

« اراهن على انك ستطلب مني ان اقرضك نقودا » فبدا كثير الدهشة من عبارني وانكر سريعا . لم يكن بحاجة للنقود ، بل لربطة عنق سوداء للرسميات . اذ كان عليه الذهاب الى حفلة .

بقيت مضطربا وفكرت ان طوريزي اخفى مقصده بدافع الخشية .

لكن الرسالة الخامسة المغفلة ، كانت اكثر خطورة .. فبكثير من الاحتياطات ، كان تعلمني ان طوريزي ينوي خطف ليفيا ابنة الارملة صاحبة البيت ، ذات الثمانية عشر عاما . والفتاة كانت موافقة (هكذا تتابع الرسالة) اذ كانت مرهقة قبل ان تخدع بحديث طوريزي الطلي...

لكن يجب ان امنعه ، لان طوريزي لم يكن يغذي نوايا جدية ، وبالتأكيد لن يتزوج من ليفيا.. وكانت الرسالة تحدد للاختطاف ، ليلة السابع من تشرين الثاني . وتسهب ايضا ، الى ان طوريزي كان لديه ايضا شريك في المؤامرة .. صديق سينتظره والفتاة بسيارته في زاوية الكاتدرائية .. وسيحملها الى البلدة المجاورة ..

في هذه المرة صممت على ان افتح عيني جيدا ، ليس لمنع الخطف.. اذ ، لكي اقول الحقيقة ، قليلا ما كان يهمني .. لكن لاتبين من هو كاتب مثل هذه الرسائل . واخطاء عديدة في الاملاء ، والكتابة الخشنة والسطحية ، جعلتني للحظة ، اتشكك بالخادمة .. لكنني كنت مخطئا . فالفتاة المسكينة كانت امية . حينئذ ، ازفت ليلة السابع من تشرين الثاني ، وها نحن جميعا ، الاربعة .. الارملة ، الابنة ، طوريزي وانا جالسون على الطاولة العادية، في قاعة الطعام ، مفتبطين بلعبة ورق عائلية . ومع اني مشترك في اللعب ، كنت اتطلع الى ليفيا ذات الوجه الاسمر الجميل والمطمئن . واسأل نفسي اذا كان يوجد ثمة حقيقة في قصة الخطف تلك . وطوريزي ايضا ، كان هادئا . لكن هدوءه بدا لي مزهوا تقريبا ، انهاحقيقة ، ففي كل حركاته كان ثمة زهو . كممثل رديء واذ انتهت اللعبة ، حيتنا المرأتان وعادتا الى غرفتهما . وبقي طوريزي قليلا من الوقت ، وبعدها انسحب هو ايضا . فمضيت الى غرفتي وجلست على السرير ، امام الباب المطبق فقط .

مضت ساعتان او ثلاث دون ان تصل من غرفة الجلوس ضجة اخرى غير ضجة الساعة الثقيلة ذات الحبل الوحشي ، الذي لا يكل كنت اتثاءب واتكاسل ، واغالب النعاس ، كنت مستعدا للاغفاء عندما ايقظتني طرقعة خطى مصطنعة ، فقذفت بنفسي خارج الحجرة ، وواجهت طوريزي مرتديا ثيابه ، وبقبعة مشدودة فوق عينيه ، كان يتجه الى مخرج المنزل .

اوضح لي انه عندما لم يتمكن من النوم ، فكر بالتمشي خطوات في الجادة : « لماذا لاارافقه » ؟

قبلت الدعوة ، وها نحن في الجادة المعتمة والمقفرة في تلك الساعة ، تحت مطر خفيف .

وكان طوريزي يبدو ذاهلا . وان كنت افكر في الخطف . فقلت له :

ـ انت ، فيهذه البلدة ... وربما في نفس البيت الذي تسكنه ، لديك عدو ..

ـ واحد فقط ؟

سخر طوريزي .

فأجبت : ـ لكنه عنيد ـ

وفي كلمات قليلة ، حدثته عن حكاية الرسائل المغفلة ، وخاصة بصدد الاخيرة ، التي هي حول الخطف .

وكنا قد وصلنا الى الساعة . وبدأ يظهر لي خلف زاوية الكاتدرائية بالضبط ، في العتمة المطرة ، شكل اسود لسيارة واقفة ..

قال طوريزي ببساطة :

ـ ان من كتب تلك الرسائل ، هو انا !

فعجبت ، ليس كثيرا للايضاح ، بقدر ما هو لكوني لم افكر قبلا بذلك وعندما لم ادرك الدافع على سلوك فريد جدا كهذا ، سألته :

ـ ولماذا ؟

فهز كتفيه :

ـ لالهو

خرجت السيارة من ظل الكاندرائية بمصابيح مطفأة . ومرت بتمهل محاذاتنا . فأتى طوريزي بيده حركة سريعة ، كمن ليطرد ذبابة ، لكن كان بوسعها ايضا ان تكون حركة للرفض . واوضح :

ـ في الاقليم ، اننانفلق...

لحظتئذ ، ابتعدت السيارة ببطء على الاسفلت اللامع بين صفين من القصور في الظل . وبد لي ان طوريزي كان يرسل نحوي نظرة حزينة تقريبا . فسألته :

ـ لكنها تلك ! كانت هي السيارة التي ...

ـ حتى ولا بالحلم .

اجاب طوريزي رأسا :

ـ لا ادري اية سيارة هي هذه .. سيارة ما !..

والححت :

ـ لا ادري اي شخص هو الذي يلهو متهما نفسه بالمساويء والجرائم الخيالية .

فأجابني :

ـ انها تكفي لتمضية الوقت ..

ـ وليفيا ؟

ـ لا تحدثني عن تلك البلهاء ..

وتناول طوريزي من جيبه رسالة مثل تلك التي كنت قد استلمتها . وسلمني اياها :

ـ هذه هي الاخيرة .. كنت خارجا لاضعها في البريد . فمن الاجدى ان اسلمك اياها بذات يدي ، فأوفر بذلك طابع البريد .. في هذه الرسالة ، انبهك من ان ليفيا لم ترد الفرار معي ، لانها في الواقع تهيم بك ..

ـ بي ؟

ـ نعم ، بك .. ادري انها ليست الحقيقة .. انها فقط لتقديم مبرر ..

ـ « قادر على تخطيط مؤامرات مرعبة ..» لكن على الاقل ، أستطيع ان أعرف بمن هي تهيم ؟

ـ بلا أحد

قلت بذهول :

ـ بكل تأكيد ، بلا أي واحد منا .. ربما بابن خالة لها ، طالب .. او بأحد غيره .. لا يهم !

كنا قد وصلنا قرب مدخل بيت الارملة . فسألته :

ـ والاخطاء الاملائية ؟

في هذه المرة ، دهش بحق ، واعترض :

ـ لكن ، اية أخطاء ؟

قلت :

ـ «achacador» ب «s» و propio بدلا من proprlo لقد وصلت الى الاعتقاد بأن الخادم هي التي كتبت مثل هذه الرسائل .. هل اخطأت عن قصد ؟

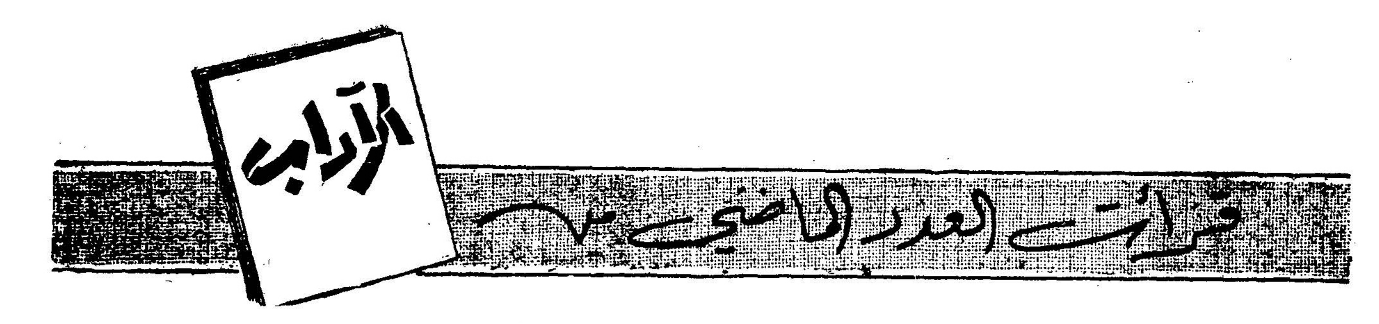
فرأيت وجهه يكسوه الحزن ، ممتهنا . وقال بصوت متألم :

ـ لم أفعل شيئا عن قصد . عندما أكتب لا أرتكب أخطاء .. ليلة سعيدة .

بعد بضعة أيام ، تركت بلدة ب. وسألت نفسي مرارا كثيرة ، لاي سبب بعث طوريزي تلك الرسائل المغفلة . وانتهيت بأنه كان رجلا بلا رغبة ولكنه ذو نزوات ..

كان يكتب لانه لم يكن ذا شجاعة لان يعمل او لان يحرض نفسه على العمل . وبصدفة غريبة ، عرفت ان ليفيا قد هربت من البيت ، لكن ليس مع طوريزي ..

ترجمة عوض شعبان



القصائد

بقلم اورخان ميسر

*

يمتاز هذا العدد بفيض من الشعر يتراوح مدا وجزرا بين اساليب متنوعة ، وان استقى اكثرها من روح الشعر الحديث بما فيه من انتصارات في ميدان الفن القصيدي ، وبما فيه ايضا من بعض عثرات لم يستطع هذا الفن الجديد ان يتغلب عليها بعد . ولكن الشعراء الذين اعتدنا ان نقرأ لهم منذ سنوات بين دفتي « الاداب » يجتمع بعضهم في هذا العدد ليقدموا لنا نماذج تنبيء عما استطاع الشعر الحديث ان ينجزه خلال تجربته الوليدة .

يعود شاعر المأساة العربية بدر شاكر السياب الى « الاداب » بعد ان غاب عن صفحاتها في تيه بعيد . وهذه العودة تغفر للتائه تغيبه عن منبره الاصيل الذي اسمع طلائع العرب اناشيد المأساة منذ ان كانت تلك المأساة عميقة الجذور صداحة الالم .

ان قصيدة « ابن الشهيد » هي نفثة جديدة في سمفونية التفجر التي عرف بها شاعرنا بدر شاكر السياب . فالقصيدة تدفع بفيض من الصور التي تتجمع كلها في سبيل ان توحي لنا بجو من الحزن الذي فقد قدرته على كشف اسبابه ، أي أنه حزن لايملك الا حس التفجع فيستفيد من كل آهة لكي يزيد سواد اللوحة ويبحث عن بصيص ضوء فلا يجد الا سراب فجر لن يبين .هكذا فان الشهيد مات وان ابن الشهيد يحس انه سيصبح شهيدا اخر دون ان ينبت الثار ثمنا للموت والدم غير الكآبة والانسحاق . ان الارض مقبرة لاتنتهي حدودها والناس فيها مواكب من الشهداء يتلو بعضها بعضا :

يتنفس الاحياء فيها كل وسوسة الرغام
حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق

واذا كان القدر قد حتم مصير الموت بالنسبة لاجيال متتابعة تواجه الكارثة لتعطيها حياتها بينما تظل الكارثة قائمة ، فان الشاعر لايملك الا تلحين هذا المصير والبحث في ترابه عن جواهر الدموع المتساقطة فيستفيق ابن الشهيد ليتمرن على الشهادة منذ نعومة اظافره ، ويتابع طريق التضحية الدائمة . والحق ان التحام الصور التعبيرية التي تستقي لونها المأساوي الواحد من موضوع الفجيعة تشارك كلها في نسج جو من التشكك حتى بجدوى هذا المصير الذي هو نسج دائم حول الموت بكل صوره ومعانيه .

فمرحبا بعودة الشاعر الى منبره الطبيعي في « الاداب » واننا لفيضه المتتابع منتظرون ومتشوقون .

ونلتقي مرة اخرى مع قصيدة ملحمية جديدة بشاعر « نهر الرماد» و « الناي والريح » فنلتقي مع تلك الميزات الاساسية التي عرفناها عن شعر خليل حاوي في مدرسته التي اثبتت دعائمها بقوة خاصة لانراها عند الشعراء الاخرين الا لماما .

والواقع ان بناء القصيدة من حيث المعاني ومن حيث الرمز العظيم الذي تلتف حوله الصيغ الفنية لتنميه تأخذ منه وتعطيه ، هذا البناء هو الذي يبرهن عن شموخ ابداعي يمتاز به عمل الدكتور خليل حاوي، فقلما تنجح القصيدة الحديثة في اشادة هذا البناء الموحد ، وذلك لان الذين يركبون مطية الشعر الحديث هم اما مخدوع بموهبة ساذجة او طامع سريع يتخطى القيم الاساسية التي يحتاجها بناء القصيدة الحديث .

والوحدة البنائية في القصيدة الاخيرة التي قدمها لنا الشاعر تتجلى في هذا الاطار الشمولي الذي ينداح خلاله العمل الابداعي .ولقد تقمص الشاعر اوضاعا نفسية متقابلة بين « لعازر » وهو ميت وبينه وهو يوشك على الانبعاث ، وبينه وهو يعتب على الاخت الحزينة التي سعت الى احيائه ثانية عند يسوع الناصري ، ثم تنمو القصيدة في حركة متراجعة لكي تقدم لنا المعنى الميتافيزيائي في ايقاع من اليأس لعملية الموت والبعث .

وفي القسم الثاني من القصيدة يشخص لنا الشاعر نموذج المرأة التي تزوجت من انسان ضمه القبر ثم بعث ليصبح حبيبا حيا ، وتشعر المرأة بذلك الاختلاف الاساسي بين « لعازر » قبل ان يموت وبينه عندما احيي ثانية فكان شبحا لذلك الانسان الممتليء بغرائز الحياة ودفقها العظيم الخلاق . ولكن لاتلبث المرأة المحبة ان تقنع بهذه العودة فتغنيها وكأنها تحاول ان تقنع نفسها بان حبيبها قبل الموت مازال حبيبها بعد البعث . ومع ذلك فان الشاعر يختم الملحمة بالمعنى الاساسي الذي يلخص وجودية هذا الموقف الرمزي الكبير من خلال الشعور الانثوي بان الرجل عادولكنه لم يعد الا شبحا ميتا كئيبا ، غير عرق ينزف الكبريت والحقد الرهيب.

ان هذا العرض للاطار الشمولي الذي نسجت ضمنه القصيدة يبين الى حد بعيد هذا البناء الموحد لشعر خليل حاوي . ومن جهة اخرى فان البناء يبقى غير مقصود لذاته اذ ان اسلوب التعبير المتوهج بالصور الوجوديةهو الذي يقود القاريء تدريجيا الى الغوصفي العمقالميتافيزيائي الذي يهدف اليه حدس الشاعر . ومن هذا العمق الميتافيزيائي تتكون القصيدة تكونا اطلاقيا كأنها شاهدة على الوجود ، تصهر جوهره لتعيد خلقه ضمن القالب الفني الذي يدور حوله الشاعر .

واما الرمز الذي انبثقت عنه هذه القصيدة فيستحق بحثا مطولا ، ولكنني اجتزيء بالقول ان شاعرنا مازالت تشغله تلك المشكلة الكبرى التي تدور حول « البعث » . والبعث هنا رغم انه يعتمد على اسطورة دينية الا انه يتعالى الىمستوى وجودي يصبح فيه قضية تتعلق بمصير الانسان من جهة وبمصير حضارته من جهة اخرى . ان هذه القصيدة لاتحل رمز البعث الكبير بقدر ماتتركنا نعاني اسئلة كيانية من هذا النوع: ماذا يمكن ان يقدم البعث لانسان حيا حياته الى ذروتها ؟

واما علي الجندي فانني لم اقرأ له الا قصائد متباعدة ولكنني اميل الى الجزم بان هذه القصيدة « الدوار » هي بداية تطور جديد بالنسبة له . ويبدو ان هذه القصيدة تتبع اسلوب الخواطر في الشعر فتنتقل بين الصور والافكار دونما اتجاه موحد سوى ايقاع الضجر الوجودي . ولقد استفادت هذه الخواطر الشعرية من كثير من قواميس بعض الشعراء العرب المعاصرين مثل فكرة الضلال في البحار والتشرد والسأم مابين شوارع نصف الليل وفكرة الصليب والرؤيا ولهجات الصلوات واجواء الطقوس والاساطير . ومع ذلك فان علي يفضل بريق الصور وايقاعها الموسيقي المادي وهو يبحر وراءها متشبثا بتهويماتها .كيفما تقاذفته من شاطيء الى اخر من الاحاسيس والاحلام التي تلون كل هذا بعبير الجيل المفجوع .

واما قصيدة « الحبر والظلال » لعدنان كيلاني فهي ، من حيث الاسلوب ، تقليد غير ناجح لقصائد ادونيس لان صاحب القصيدة حاول ان يجمع بين رموز عديدة متباينة لينتهي الى نتيجة فيها كل اغوارالقصيدة ولكنه تاه بين هذه الرموز وضل سبيله بالتالي في الوصول الى الهدف الذي كان يرمي اليه ، فجاءت النتيجة ضعيفة مهلهلة بينما ارادها صاحب القصيدة ان يضع فيها كل قوتها . حتى هذه الرموز التي عمد اليها عدنان كيلاني تبدو للقارىء الواسع الاطلاع على الشعر العربي الحديث رموزا أعيد ترديدها من قبل بعض الشعراء الشباب مرات كثيرة حتى كادت ان تخرج من حدود الرمز لتصبح بعضا من معجم الالفاظ الواضحة ذات الدلالات المألوفة . اما من حيث المضمون فقد ظهر الشاعر وكأنه متردد بين اتجاهين متعاكسين ، اتجاه اليأس :

وعشت مع الصمت في اللانهاية
سرابا يؤله خوفي
يرش دروبي عياء
شحوبا وسيل دماء
ففي شفتي عويل ، وفوق عيوني
يمد العويل شرايينه ، يغرق الدمع
لحن انطفاء .

ثم اتجاه الامل المصطنع الممزوج بنزوع صوفي غير ناضج يستمد طاقته من اليأس وينبثق من خفقة عابرة في تاريخ النضال الانساني حيث تطرد الاشراقة القتامة ثم تعود القتامة ذاتها لتطرد الاشراقة نفسها :

فيا أدمع الصمت مدي شراعك
لن نستكين
فمن اجلنا يغسل الحب وجه الصباح
وتزهر في ارضنا غمغمات الكفاح

ومن امثلة هذا الطرد الذي يجتر مده :

ويا شمس ، يازقزات المطر
سألتك شلال ضوء لهذي المدينه
عسى في رباها يفيق الاله
ويخطر نيسان يوما وتنهد آه
عسانا نكسر حزن المدينه .

ان تكراره هنا لفعل الرجاء « عسى » في موقف تدارك اليأس دلالة واضحة على اصطناع الامل اصطناعا يبدو هزيلا حتى في أوج توتره . ويتجلى مثل هذه الدلالة ايضا في نهاية القصيدة حيث يدخل الشاعر حرف الاستقبال « س » وهو في موقف يتطلب اتخاذ حركة انسانية لا زمنية فيها اذ يقول :

فبالرفض نحن سنرسم تاريخنا ..
بالعطاء
بحزن المدينه .

وبالاضافة الى اصطناع الامل هذا فأي معنى لتخطيط التاريخ بالحزن عقب تخطيطه بالعطاء ؟ هل حزن المدينة هو جزء من العطاء ام ان العطاء في كليته هو حزن المدينة ؟

ان التردد بين اليأس والامل دون التبلور في موقف فلسفي نفسي حاسم امامهما هو الذي ولد في هذه القصيدة مثل هذا التفكك الذي شوه فيها معنى الانهزام كما شوه في الوقت ذاته معنى النزوع الى الانتصار .

اما قصيدة « لاتسألي » لمحمد ابراهيم ابو سنة فتبدو وكأنها قصيدة نظمت بلغة تلميذ في بدء دراسته الثانوية وبذهنية شاعرية العصر الفيكتوري بانكلترا حيث كانت المحاولات الادبية تتأرجح مابين الالتصاق بتيارات يرد بعضها من فرنسا ويتدفق البعض الاخر منها من طبيعة الحياة السكسونية التي سبقت انسكاب الشعب الانكليزي في قالبه المعروف ، وبين دفقات نفسية كانت ترمي الى التجديد في اشكال مبهمة غامضة يكاد يغوص فيها الهدف في دوامة من ضباب النزعات النفسية المتضاربة . لذلك كانت قصيدة « لاتسألي » ظلا متقلصا لرومانسية لم تع ذاتها وامتدادا متداعي الجوانب لكلاسية متحفية ونظرة الى مستقبل يغلفه كثير من الوهم الذى تنسجه المراهقة حينا وينسجه التصابي حينا اخر .

وفي نهاية القصيدة تصفية لهذا التشابك :

والحب يا حبيبتي نهاية المطاف
لاتسألي فالبحر لايبين عن شواطيء لمن يخاف .

ففي الشطر الاول قد تجمعت او تكثفت كل الخصائص الاولية للرومانسية التألقية والكلاسية التي جمدت ذاتها في مرآة خاصة تقليدية الانعكاس ، بينما جاء الشطر الثاني ، وهو الاخير في القصيدة، ليعبر بكل وضوح عن الازدواجية بين المراهقة والتصابي .

واذا كان الهدف من النقد هو التقييم — في حدوده النسبية طبعاً — كان لابد من الاشارة الى قصيدة اخرى وهي قصيدة « من يوميات طالب متنسك » لفايز صياغ ، هذه القصيدة التي تصلح لان تكون مادة في منهج طالب يدرس السيكلوجيا اكثر من ان تكون مادة لناقد يحاول أن يحدد قيم الانتاج الفني . ان السادية والماسوكية اللتين كانتا مادة اساسية عند شعراء القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ليس في الوسع اعتبارهما اليوم بعضا من مثل هذه المادة في عصر استطاع فيه انسانه ان يعانق كواكب هي غير ارضه وان يحتضن آفاقا لم يحلم بها خياله من قبل . ان الفاظنا مهترئة ك « البصق » و « الانحلال » و « الترميم » و « التقيؤ » و « العربدة » غدت اليوم الفاظا مألوفة في تاريخ سيكلوجيا العصر كما انها اصبحت في الوقت ذاته صورا مومياتية لتجربة يمر بها كل فرد في كل عصر .

دمشق — **اورخان ميسر**



الأبحاث

بقلم غالب هلسا

*

ان الملاحظة الاساسية التي تبدت لنا بعد قراءة هذه الابحــاث عدم تصديها لاي من المشكلات الهامة والحادة التي تضطرب في ضمـير اي عربي ، سواء كانت هذه المشكلات اقتصادية ام سياسية ، اجتماعية ام فكرية ، الا من بعيد ، وباحساس من يبحث عن الهدوء وراحة البال والبعد عن « دوشة »الدماغ.

انها لظاهرة تستحق ان نقف عندها طويلا ، حيث تركز مجـــلة جادة طليعية كمجلة الاداب اهتمامها على بحوث عن الوجــودية والسريالية وما ماثلهما وتدع معالجة المسائل التي تؤرق الضمير العربي لانصــاف المتعلمين والحمقى . اننا في فترة من الزمن نقفز فيها قفزات رائعة ، وتخرج فيها الفكرة لتنطلق الى اغراض الجماهير واكثرها جمودا وقصورا في الوعي السياسي ، ومن المؤسف حقا ان نقف كمتفرجين لا تؤرقنـــا مشكلات مريخية .

الصلات الثقافية بين مصر ولبنان
بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

في هذا المقال يشرح الكاتب الصلات التي قامت بين مصر ولبنان ويركز بشكل خاص على الدور الذي لعبه المهاجرون اللبنانيون فــي الصحافة والادب والمسرح في مصر . ويخرج من ذلك بنتيجة ان « هذه كلها امثلة عميقة الدلالة على ما سميته بالوحدة الثقافية العربية التـي تمتد جذورها مـنذ اقدم العصور حتى اليوم » . وفي رأيي الدكتـور نجم ان هذه الوحدة متحققة في تأثر بعض الادباء المصريين بكتابــات جبران خليل جبران ، وبمشاركة بعضهم في الصحف والمجلات التــي انشأها اللبنانيون في مصر وفي غزل شوقي بحور وظباء لبنان الخ..

كنا نود ان يتعدى بحث الدكتور في هذه القضية الهامة مجرد سرد الاسماء والمجلات التي تستطيع ان تقدمها لنا ـ وربما بشكل ادق ـ ادارة الجوازات ، وان لا يكتفي بتحديد دلالة الوحدة الثقافية على الهجــرة وحسب . اننا ـ مثلا ـ نستطيع ان نسرد الهجرات المتبادلة بين الفرس والعرب دون ان نخرج بنتائج كتلك التي توصل اليها الدكتور ، وبالاخص ان اللبنانيين يهاجرون الى كل مكان تاركين بالفعل اثـارا من ثقافتــهم وحيويتهم .

ان الوحدة الثقافية لاي بلد لا تتحدد بكميات المتنقلين فيها من قطر الى اخر ، ولكنها تتحدد بسمات نفسية مشتركة وموحدة تعبر عنهـــا الثقافة بمختلف فروعها . وهذا ما ينبغي لاي باحث جاد ان يكشف عنه وهو بهذا سيكون قد قدم مشاركة كبيرة نحن بحاجة اليها في ظروفنــا الحاضرة .

ومن المهم هنا ان ننفي الوهم الشائع حول ان احدى هذه السمات التجاوب السياسي في اي بلد عربي لما يحدث في البلد الاخر .

الفن الروائي بين اللص والكلاب والرجل الذي فقد ظله
بقلم يوسف الشاروني

يقارن الاستاذ الشاروني بين رواية نجيب محفوظ « اللـــص والكلا ب» ورواية فتحي غانم « الرجل الذي فقد ظله » من حيث تشابه التكنيك الروائي فيخرج من ذلك .

١ ـ بان شخصية الصحفي الوصولي نجدها في العملين ، وهمــا متشابهان مع اختلاف في التفاصيل .

٢ ـ ان كلا من الروايتين قد كتبت بضمير المتكلم .

٣ ـ كلتا الروايتين تستعملان الرمز .

٤ ـ ان شخصيتي الصحفيين قد خلفتا خلال صعودهما الكثير من الضحايا والتي يرى الاستاذ الشاروني انها تؤرقهما .

الا ان هنالك احكاما كثيرة قد اطلقها الاستاذ الشاروني على رواية « الرجل الذي فقد ظله » والتي اعتقد انها تجافي الحقيقة . ويبدو ان الكاتب اراد ان يبرر ان رواية من اربعة اجزاء تكاد كلها تسرد باسلوب خطابي مكتظ بالافتعال لعدم ملاءمتها للشخصية ولمنطق الاحداث عندمـا قال انها كتبت باسلوب « المونولوج الذي يفترض ان له سامعا » .

ان الخطأ الاساسي الذي تعانيه هذه الرواية هو الادعاء ان كــل الشخصيات فيها تستطيع رؤية نفسها بنفس الوضوح والموضوعية اللذين يراها الاخرون ، ولا تلجأ اي منها للتبرير او حتى للاعتذار عن موقفهـا. انه بامكاننا ان نبدل ضمير المتكلم بضمير الغائب في هذه الرواية دون ان تفقد شيئا ، بل قد يكون ذلك اوعى لمنطق الشخصيات والاحداث.

ويبدو ان الكاتب قد اراد ان يعتذر عن ذلك فبرره بارتفاع البطـل « الى مرتبة الوعي بخطئه » والى بلوغ مستوى البطل التراجيدي. ولكننا نتساءل : اذا كان ذلك صحيحا افلم يكن ليؤدي الى اي اهتزاز خارجي في سلوك يوسف وعلاقاته مع الاخرين ؟

واذا اخذنا ماكبث كمثال للبطل التراجيدي فاننا نجد ان عمليةالوعي بالخطأ قد اقترنت برعب لا يوصف دفعه الى سفك الدماء والارهاب ، وبمظاهر التحلل والجنون (منظر الخنجر المعلق في الهواء) ، كما انه في اللحظة التي تكشف له فيها وضعه اليائس اطلق هذه الصرخـــة المرعبة :

انها حكاية يرويها مجنون
ملأى بالصخب
ولا معنى لها

وهكذا فاننا نستطيع خلال الرواية كلها ان نلمس هذه الظاهرة ، وهي عدم لجوء اي من الشخصيات لاي من الميكانزمات الدفاعية لتتجنب التحلل ، ونجدها في الوقت ذاته ما تزال تتمتع بصحة نفسية وتماسك يحسدان عليهما.

ويقول الكاتب ان عدم مقدرة محمد ناجي نزول السلم تتميز بدرجة من الشفافية والشاعرية ترتفع الى مستوىالرمزويأتي بفقرة منهذاالنوع من المونولوج الذي يفترض ان له سامعا ليبرهن على ذلك ، وانا اعتقد انها خالية من الشفافية وان الرمز فيها ليس رمزا على الاطلاق . اننــا بدلا من ان نكتشف امامنا انسانا مصابا بالدوار ، يتبدى لنا شخص اخر مصحصح ثرثار يصف اخر مصاب بالدوار ولا يفوته ان يصف كل مــا حوله بعناية ودقة وان يستشف افكار الاخريـن وموقفهم منه .

واما كون هذه الفقرةرمزا لتدحرج محمد ناجي من القمة، فالسقوط غير ارادي ولا يستدعي استثارة البطولة ، كما ان المفروض ان يكــون الرمز كشفا مكثفا للواقع ، ولكن هذا الرمز في هذه الرواية قد سبقه اجزاء ثلاثة كلها ملأى بالتحليل والخطب والتأكيد على ان محمد ناجي قد هوى . فما فائد ة الرمز هنا وماذا يمكن ان يضيف ؟

ازمة الجنس في القصة العربية
بقلم غالي شكري

هذا المقال واحد من عدة مقالات كتبها الاستاذ غالي شكري عــن « الجنس والفن والانسان » . ويحاول في هذا المقال دراسة الجنس كمظهر اجتماعي وانعكاسه على القصة العربية . وعلى الرغم من ان الكاتب لم يحدد ماذا يعني بكلمة الجنس ، الا انها احيانا تعني العلاقات الجنسية بين الناس ، واحيانا اخرى تستعمل في سياق البحث لتدل على العلاقة بين الرجل والمرأة بشكل عام .

وهو عندما يبحث عن جذور تراثنا الجنسي يقتصر على ذكر بيوت الاثم ودور الدعارة ، وكيف ان الحانات في عصر الرشيد والمعتصم والمتوكل قد انقلبت الى دور للدعارة في العصر البويهي . وهو في مصر النتائج المريعة لسهولة الطلاق حتى ان بعض الرجال كانوا يتخذون زوجة كل شهر .

ومن الواضح ان الكاتب يقصر الحديث على المدن ، وعلى الطبقات المترفة الى حد ما . الا ان هنالك امرين يجب ان يؤخذا بالاعتبار :
الاول : ان هنالك بيئة مستقرة لم تعرف فيها هذه الاثام واستطاعت ان تحتفظ بتراثها وتقاليدها على مدى العصور ، وهم الفلاحون .
الامر الثاني : ان المدن الكبيرة في العالم العربي وبغداد بشكل خاص كانت تندثر مع اندثار السلطة المركزية . ففي حين ان عدد سكانها كان يبلغ اربعة ملايين نسمة في عهد العباسيين ، اصبحوا لا يزيدون على عشرة الاف منذ نصف قرن — ووضع كهذا لا يصح ان يكون اساسا لتراثنا الاجتماعي .

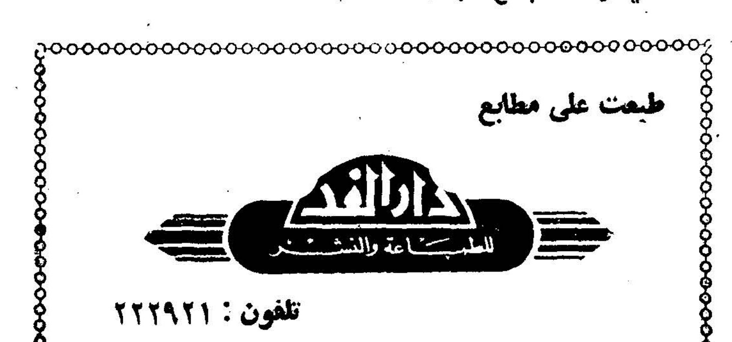
ثم يتحدث الكاتب عن القصة اللبنانية ويقول اننا لا نعثر على الاحساس الحاد بالخطيئة الا في لبنان باعتباره احساسا مسيحيا ، ولكنه يعود بعد قليل ليذكر لنا « ان مشاهد الخطيئة في الرواية تحيطها هالة من الاحساس بالذنب ، دفعت حامد لان يعترف بنواياه الى احد مشايخ الطرق » .
وهو يتحدث هنا عن رواية مصرية ، هي رواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل .

وانا اعتقد ان ما يسمى بالاحساس المسيحي بالخطيئة شيء لا وجود له ، فهنالك الرعب من خرق الطقوس والمحرمات وهو السائد في المجتمعات المتخلفة ، وهنالك الاحساس بالذنب الناتج عن احساس الانسان بمسؤوليته وفرديته وقد نشا في عصر النهضة .

الا ان هذا البحث والبحوث التي سبقته تتميز بالجهد الصادق المبذول فيها وبكثير من الاستنتاجات الهامة .. ان تحليل قصة طاهر لاشين يتصف بالنفاذ والعمق وكذلك تحليله لقصور توفيق الحكيم عن فهم المرأة فهما حقيقيا . ونرجو ان يستمر الكاتب في هذه المحاولة التي تستحق كل تقدير .

عيناك قدري — بقلم محمد حيدر

على الرغم من انني لم اقرا مجموعة « عيناك قدري » للاديبة غادة السمان فلا بد من ابداء بعض الملاحظات حول الطريقة العجيبة التي اتبعها الكاتب في تقييم هذه المجموعة .
يبدأ الكاتب بحثه بفذلكة عن الادب النسائي في العالم العربي فيقسم الاديبات الى ثلاثة انواع :
١ — تحت المراقبة وهي تلك التي تكتب وتحس انها عرضة لمختلف التأويلات التي تتناول سمعتها بالتجريح.
٢ — التمرد — وهي ان تندفع الكاتبة الى تعرية نفسها كرد فعل عكسي لموقف المجتمع منها .



٣ — اولئك اللاتي يكتبن بدوافع فنية صرفة وغادة السمان احداهن . ويشير الاستاذ حيدر في الهامش الى ان هذا جزء من دراسة مطولة عن « الادب النسوي في سورية » .

واذا اعتمدنا على عرض الكاتب لهذه المجموعة من القصص فاننا نرى انها تكرار لهذا الادب الذي اتخمنا به حتى الغثيان ، عن الفتاة التي يحاول اهلها قسرها على الزواج فترفض ، او عن هذا المفهوم السطحي لحرية المرأة المتمثل في بحثها الدائب عن رجل ، او محاولة تأكيد ذاتها باساليب طفلية .

ثم يقول الكاتب ان هذه القصص طبيعية ، ومعنى ذلك بالنسبة له انها يمكن ان تحدث لاية امرأة في العالم .
وبعد تقسيمات اسطورية كهذه بان طبيعة المرأة هي النزوع العميق للرجل والانفعال وما شابه يكتشف الكاتب ان غادة السمان تعتبر المبدعة الاولى لمنهج قصصي مبتكر وهي بهذا تغني القصة باتجاه جديد .
كيف ذلك ؟

ان غادة السمان تستعمل الصور الحسية وهي كما يلي .
حنين المرأة الى بيت الزوجية يصدر « غيمة الدفء تسيطر على حواسها .. فيها الكثير من رائحة ليالي غرفة نوم وردية معطرة ، وفيها من ابخرة حساء شفاف تبدو خلاله رسوم صحن انيق ، وفيها من زقزقة طفل يزحف مبتسما وتراه يتمسح بقدمي سلوى » والكاتب يرى ان ذلك كله رائع ، ولكن ابخرة الحساء لا تنال اعجابه لسبب غير مفهوم.
وهنالك صورة موفقة جدا عن الاحساس الانثوي بالرجولة ، فيما يرى الاستاذ محمد حيدر ، ان الرجل « دافيء كنيران المعابد ، مثير كاحلام العذارى ، رائع الرجولة كاله وثني » . وفي مقاطع اخرى « ضوء يتفجر من ركبتيه ، يتاوى بغبطة عند خصره ، احببته وهما نائيا ساحر البعد مدينة عجيبة الالتماع » ويعترض الكاتب على استعمال كلمة خصر .

واود ان اقول للكاتب ان الصورة الحسية — وهي والحق يقال ليست من اختراع الاديبة غادة السمان — تجسيد لانفعال او احساس لتقربه لنا وتغنيه لا لتزيده غموضا . ان نيران المعابد ليست دافئة ولكنها متوهجة اللهيب والرجل بهذه الصورة على الاقل مصاب بالحمى وكون الرجل رائع الرجولة كاله وثني ربما اعطانا فكرة عن الاله الوثني لا الرجولة ، هذا اذا كان هنالك صورة خاصة محددة يمكننا ان نطلق عليها اسم اله وثني .

ان هذه الجمل لا تدل الا على ثرثرة مراهقة ، كما ان ابسط قوانين علم النفس تدل على انه لا يوجد هنالك ما يسمى بالطبيعة النسوية المجردة !!

نظام الروح والمادة — بقلم جورج استور

في هذا المقال ، يتعرض الكاتب للمشكلة الكبرى التي يواجهها عصرنا والناتجة عن النمو الآلي المتزايد والتطور الذي يصل الى ذروته في كشف اسرار الطاقة الذرية والنووية التي تهدد — اذا استعملت في الحرب بتعريض الحضارة والانسانية للفناء .

ويبدي الكاتب تفاؤلا حذرا لاعتقاده بان الضمير الانساني سينهض ليحول معجزات العلم الى طاقات دافعة للتقدم الانساني وللرخاء .
وبالرغم من تفاؤل الاستاذ جورج استور فانني ارى ان عرضه للمشكلة بهذه الصورة يدعو للتشاؤم باقسى صوره . اذ هو يرى ان المشكلة في اساسها مشكلة اخلاق وان تهذيب النفس هو الكفيل وحده بحلها .
وانني بالفعل لعاجز عن فهم المراد بهذا القول : فهل هو دعوة لكل انسان على حده ان يحسن اخلاقه ثم يأتي بعد ذلك الفرج ؟ وهل يقترح الكاتب اسسا معينة لهذه الدعوة ام ندع المسألة لكل فرد يفعل مايراه ؟

ولكن لنبدأ بطرح المسالة الاساسية في هذا الموضوع :

هل المسالة المطروحة متسببه عن نقص في الاخلاق وحسب ؟ وهل قام ترومان بقذف هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية لسوء فـي تربيته ، ام كان ذلك بسبب اتجاه المصالح الامريكية الى استعجال سقوط اليابان تحت سيطرتها قبل وصول الجيش الاحمر الذي كان يتجه نحوها من منشوريا بعد ان استطاع احتلال سخالين ؟

ولنأخذ مثالا اخر . تقوم الحكومة الامريكية وعديد من المؤسسات هنالك بانشاء المخابيء الذرية لحماية الشعب من خطر الاشعاعات الذرية في حالة تعرض امريكا لهجوم ذري . ويعلن العلماء ان مثل هذه المخابيء لافائدة منها على الاطلاق ، بل انها تؤدي الى اضرار نفسية بسبب اثارتها للرعب والتوجس بالنسبة للشعب العادي . ولكن الرد الحاسم ياتي من بعض رجال الاقتصاد الذين يرون ان انشاء المخابيء سيؤدي الى ايجاد عمل لجيش المتعطلين ، ولازمة اصحاب الاعمال .

ونستطيع ان نقول نفس الشيء عن الخلاف بين كنيدي من جهـة وبعض رجال البنتاجون واصحاب الاعمال من جهة اخرى حول صنـع الطائرة ب ــ ٧٠ .

أن المشكلة هي ــ بشكل اساسي ــ مشكلة النظام الذي يعيش الناس في ظله ومشكلة مصالح الافراد والجماعات . اما الاخلاق فهـي تعبير عن ذلك . ولذلك فان علينا عندما نعالج المسالة ان نعالجها مـن جذورها . فهل ننتظر من اصحاب صناعات التسلح ان يخسروا الملايـين ويصبحوا معدمين حبا في السلام ؟

كما اننا نقف مدهوشين امام بعض الاراء التي يقدمها الكاتـب لينقضها بعد قليل كقوله ان المعرفة بذاتها المبراة عن الغرض هي انبل اتجاهات الفكر البشري . والكاتب هنا يعني تلك المعرفة التي لاتهـدف لمصلحة الانسان ولا تفيده في حياته اليومية . ثم يعود ليقول ان مثـل هذه المعرفة دون تجربة تدور في حلقة مفرغة لا جدوى منها .

او كقول الكاتب ان الضمير الاخلاقي في العصور الوسطى كـان متقدما بوجه عام على العلم في ذلك العصر .

عن اي ضمير اخلاقي يتكلم هذا السيد ؟ عن نظام القنانة ، ام عن الحروب الصليبية ؟ ام يتكلم عن سيطرة الكنيسة المطلقة على الـروح الانساني وعلى الجهد البشري ؟

السريالية والجنون ــ بقلم فرح سواح

في هذا المقال يعرض الكاتب بسرعة مفهوم السريالية عن الفـن والحياة وعن منجزاتها الخ .

ولنا بعض الملاحظات على المقـال :

١ ــ يقول الكاتب ان السريالية تسعى الى اكتشاف افاق جديدة لا سيطرة للعقل الواعي عليها الخ .. والحق ان هذا لم يكن هـدف السريالية ولكنه وسيلتها . لقد كان هدفها ــ على حد ادعاء بريتون وغيره من ممثليها ــ هو تحطيم البورجوازية وازالة قيمها .

٢ ــ ولذا فان قول الكاتب بان السريالية قد ادت دورا تاريخيا في الفترة الزمنية المحدده لها في التطور التاريخي للانسان ، هو امر مشكوك فيه كثيرا وبالاخص ان البورجوازية لم تتحطم في فرنسا والمانيا ولا اظنها متحطمة على ايدي السرياليين .

٣ ــ ان قول الكاتب أن فرويد يرى ان المجانين يعرفون عن الحقيقة الداخلية اكثر مما نعرف وان دراسة هذيانهم ليبعدنا عن الواقع العملي، هو قول ــ على حد علمي ــ لا صحة له على الاطلاق . ان فرويد لـم يقل شيئا كهذا في أي كتاب معروف من كتبه .

القاهرة — غالب هلسا

اغنية حب

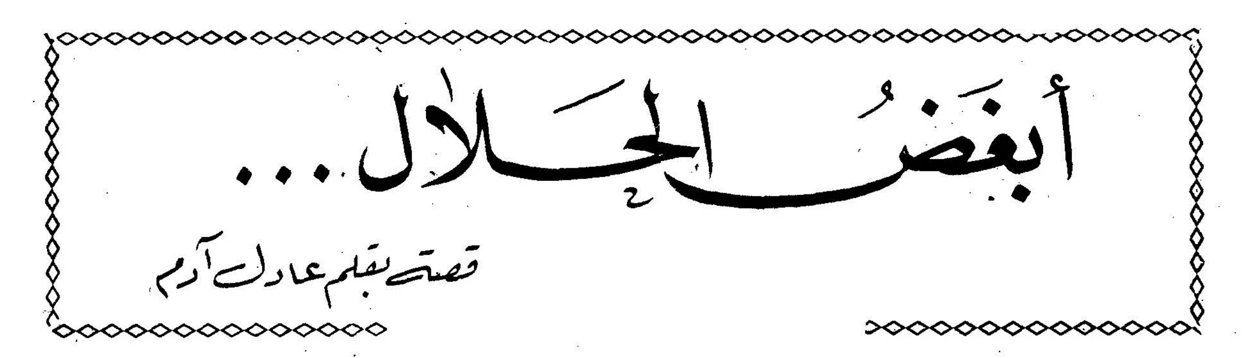
ــ ١ ــ

كالغيث يبل شجيرات مره
في قلب الصحراء ...
كفراشة صيف تحتضـن الزهره
وتميل على نبع الماء ..
وكألحان الراعي الثره ،
تدحو اصداء الاصداء
في ارضي الشاسعة الحره..
كنشيد يبعث في قومي الهمه
وكأعصار من حب يجتاح القمه
ويطل على كهفي النائي ..
كالله ... يفيض على الدنيا سره
من شرفة انواء !
يأتيني بوحك يا اخت الروح
يا خنساء الثوره
عبر الزنزنة والريح !

ــ ٢ ــ

بوحي ، يا اخت جميله
بالحب .. وبالحرف المسحور
يتفيا ظل خميله
ويغني اغنية للنور
فتدك اصول السور
وتبشر بالحريه
كل امراة عربيه
في عنابه .. في تونس .. في سوريه
وتخط مصيرا للانسان
من حبك ينهل .. يستاف الايمان !
بوحي ، يا اختي ،بوحي
بالحب .. وبالشوق الخلاق
ينساب .. ويكتشف الافاق
ويغوص الى اعماق الروح
فيمسد شعر الثوار العشاق !

بغداد — شاذل طاقة



البقاء في الحجرة القبلية بمنزل الشيخ عبدالله في مثل هـذا الوقت من شهر يوليو ، كان يعد ضربا من الجنون أو نوعا من الانتحار البطيء ، فالشمس تبدو وكان لا عمل لها الا املاء جوانب الحجرة باشعتها الملتهبة حتى ان القلة التي اخذها الشيخ معه في الحجرة ، جفت بعد وقت قصير واصبحت وكانها خارجة لتوها من احدى قمائن صنع القلل .

وكان الشيخ مستلقيا على بلاط الحجرة البارد بعض الشيء، يلتمس اي جزء بارد يلتصق به وكانت عيناه مثبتتين فوق نقطة معينة من الحائط .. كان أحد الفئران قد خرج من الشق الموجود في الحائط - والذي يجب عليه ان يصلحه - وقد اخذ يتمشى على الحائط حتى بدا للشيخ كفتاة خرجت الى الشرفة تلتمس بعض الهواء في هذا اليوم الخانق .

والذي جعل الشيخ يلجأ الى هذه الحجرة التي تشبه جهنم ، هو انه لم يكن يستطيع ان يلجأ الى حجرة اخرى ، فزوجته لا تسمح لاحد مطلقا بدخول حجرة الضيوف الا للضرورة القصوى .. اي حضور ضيف .. واما فيما عدا ذلك فالويل لمن يقترب منها .. والا فهل تفرح به وبأولاده اذا بلي الاثاث أو اتسخ .. وهو أيضا لا يمكنه أن يلجأ الى حجرة النوم لان زوجته واولاده لا يفارقونها علاوة على انه كان يريد ان ينفرد بنفسه والمصيبة أن هاتين الحجرتين اللتين لا يمكنه دخولهما بحريتان وجوهما الان غالبا ما يكون معتدلا ان لم يكن جميلا بالفعل .. وزفر الشيخ بشدة كآلة بخارية تطرد بخارها المحبوس ثم اخذ يستغفر بعد ذلك لمدة طويلة وكانه ارتكب جريمة هائلة ..

وانفتح الباب فجأة ودخل ابنه الصغير وصرخ - بابا .. أعطني قرشا .

وشعر المسكين بغيظ .. هذه المرأة اللعينة تسلط عليه الاولاد .. وقال وهو يشد بيده للخارج في حركة حانقة - اذهب وأطلب من أمك .. ولم يتحرك الولد الوقح وقال باصرار وعيناه مليئتان باتهام واضح وبنفاد صبر - هي قالت .. خذ من أبيك ..

وكان العرق ينسال بغزارة من وجه الشيخ عبدالله وسقطت قطرة كبيرة من عينه فلسعته بشدة وضايقه أنه كان يمكن أن يجففها قبل أن تصل الى عينه لولا دخول ولده عليه فصرخ فيه .. فخرج الولد مسرعا حتى كاد ينكفيء على وجهه .

واخذ يجفف العرق بمنديله المحلاوي الكبير والذي اشتراه ايام العز وعاد يزفر بشدة ثم يستغفر باخلاص وهو يتمعن الموقف السيء الذي آل اليه حاله .. والسبب في ذلك هو الاستاذ بركات الذي لم يحل له الموت الا الآن ..

وصعق الشيخ حينما اتجه تفكيره هذا الاتجاه حتى انه انتفض جالسا وكأن شخصا عظيما دخل عليه الغرفة واخذ يطلب من الله المغفرة بالحاح غريب .. غير أنه لم يستطع أن يمنع تفكيره من الانحراف الى موت الاستاذ بركات الذي ضيق عليه الخناق بصورة قاسية ..

فالشيخ هو مأذون الحي .. ومعنى موت انسان من حي مثل هذا الحي الفقير الذي يكسنه ، ان يلتزم الجميع الحداد حتى تمر شهور على الوفاة .. وأن تؤجل الافراح والليالي الى ما شاء الله .. وأن يموت المأذون من الجوع وأن يتعرض للسان زوجته السام كلسان افعى وهي تؤنبه لضيق رزقه وكانه هو الذي يرزق نفسه ، هذه المرأة الكافرة الجاهلة .

واخذ يبحث عن حل حتى انه وجد من العدل والانصاف أن تؤمن شركات التامين على أفراح الناس بمعنى أنه يجب أن يعوض المأذون عن كل وفاة تحدث في منطقته ... واعجبته الفكرة فاخذ يعدل فيها ويحور ثم يقترح أن يكون التعويض متفاوتا بمعنى أن الاطفال والعجائز يسكون التعويض عنهم بسيطا .. اما الشباب.. فيكون التعويض عنهم كبيرا لانهم يخربون بيته تماما ... وهذا هو المثال الحي .. أو الميت بمعنى أصح.. الاستاذ بركات .. فالشيخ لا يذكر أنه عقد قرانا واحدا بعد وفاة الاستاذ .. والحق ان الشيخ عبدالله حزن حزنا شديدا لوفاة الرجل فقد كان من معارفه ولكنه - وهذا ما يحنق الشيخ - لا يستطيع أن يعرف بطريقة قاطعة .. هل حزن لوفاة الرجل ؟ .. أو ان حزنه كان على رزقه الذي انقطع حتى انه شعر بالخزي والخجل لحين واجه نفسه بالحقيقة .

ورغم ان زوجته الشحيحة المليئة باللحم ذهبت الى دار الاستاذ بركات يوم مات وشاركت أهله في اللطم والندب والعويل لمدة ثلاثة أيام متوالية ثم في أيام الخميس ... رغم ذلك فانها لا تقدر موقفه ولا تهتم الا بما يدخل معدتها من طعام .. وأولاده صغار لا يفهمون ولا يقدرون .

وضاق صدره فخلع الصديري الذي يرتديه وكوره ووضعه تحت رأسه المنهك من ثقل الافكار التي تعربد داخله .. كان الشيخ عبدالله يقول في نفسه : « لو عقدت قران أحد الملوك .. فلا بد أن اشتري جهاز تكييف لهذه الحجرة اللعينة » . ولكن سرعان ما وجد الفكرة سخيفة فقد اكتشف أنه من الارخص أن ينتقل الى منزل متسع جميل على شاطىء النيل تهب عليه النسائم العليلة ليل نهار .. ثم عاد فتذكر أن في منزله هذا حجرات بحرية لا يستطيع أن يدخلها فايقن أن المشكلة مشكلته هو وزوجته ليس الا ..

وكان المسكين كلما حاول أن يجد حلا معقولا لمشكلته صدمته آلاف العقبات التي يقف ذهنه أمامها مشلولا كما يقف ابنه أمام مسائل الحساب لذلك سرعان ما اتجه تفكيره الى وجهات خيالية لا توجد حلولا عملية لحالته ولكنها كانت تخدره بعض الشيء كنسمة منعشة فيكاد ينسى نفسه وينسى العرق الذي جعل ملابسه تلتصق بجسده بشكل يضايقه .

وعاد تفكيره الى حكاية الملك .. ولكن لماذا يستدعيه هذا الملك بالذات ؟ .. بل كيف يعرف أن هناك شيئا اسمه الشيخ عبدالله ؟ . ولم يمكنه أن يعرف الطريقة التي سيقابله بها هذا الملك فاكتفى بأن يعزوها للصدفة .. وأيضا لم يستطع رغم تفكيره العميق الجاد ومحاولاته المتعددة ان يتخيل كيف تكون هذه الصدفة .. ثم يئس من البحث فترك هذه المشكلة حتى يختار شخص هذا الملك أولا .. ففوجيء لدهشته بأن كل من يعرفهم اما متزوجون او غير مسلمين .. احس المسكين بانه يختنق وهو يرى متنفسه الوحيد يكاد يطبق فوق صدره .. فصاح بحنق وكانه يبذل المحاولة الاخيرة لانقاذ نفسه - اذا يطلق .. ليس من الضروري أن يكون زواجا ..

ووجم الرجل .. وأحس بمدى الجرم الذي وقع فيه وبشاعة الخطأ

الذي تورط فيه لتفكيره الشائن وتأكد لديه أنه لا بد وارد على النار لانه خان ضميره ودينه .. ثم زاد ذعره حين فكر في أن النار ستكون أشد وطأة من هذه الحجرة اللعينة .. وعاد يستغفر ويطلب الرحمة رغم أنه كان قد انتهى بصورة لا نقاش فيها الى انه ليس ثمة حل آخر ..

وفتح الباب فجأة .. الابواب في هذا المنزل دائما تفتح فجأة .. وبدت في فتحة الباب زوجته بهيكلها الضخم وصاحت متسائلة بحدة : « نائم ؟ ! » فتحرك في رقدته ليشعرها بيقظته بدون أن يتكلم فقالت بصوت رتيب : « أحدهم يريدك » وتركت الغرفة .. واعتدل هو كالمنتفض .. هل تكون المعجزة حدثت .. وأسرع خارجا من الجحيم وانعطف الى دورة المياه فبلل وجهه ويديه بقليل من الماء وأسرع الى حجرة النوم ليرتدي ملابسه على عجل . وساعد جو الغرفة اللطيف على امتلاك أعصابه وان كان حنقه على زوجته قد زاد .. وما ان انتهى من ارتداء ملابسه حتى كان يبدو اقدر على التفكير والكلام ، وامسك مسبحته الكهرمان التي احضرها له الاستاذ بركات وكأنه يعتذر له وسارع الى حجرة الضيوف .. طرق الباب بهدوء ودخل بوقار وعيناه فوق وجه الغريب الذي كان قد ثبت نظراته في الارض .. وما ان رفع الرجل وجهه حتى ربع الشيخ عبدالله وقال في نفسه « وايم الحق ، ليس هذا وجه انسان سعيد ، ولا بد أن التعس يريد أن يطلق زوجته أو شيء من هذا القبيل » .

وألقى على الرجل التحية واقترب .. وشد على يده مسلما وكأنه يستنجد به فرد الغريب التحية باقتضاب زاد من قلق الشيخ .. وسادت فترة صمت كانت قصيرة ولكنها مشحونة بالتوتر ... تبادلا فيها النظرات ثم سرح كل منهما بعيدا عن الاخر للحظات وعاد الشيخ بسرعة وقال : أهلا وسهلا .

فاعتدل الغريب في جلسته وقد فهم أن هذا الترحيب الاخير لحمله على الكلام فقال على الفور :

ـ يا سيدنا .. أريد أن أطلق زوجتي ...

صدم الشيخ وانهارت آماله كلها وانقطع الخيط الواهي الذي كان يتشبث به وتماسك بعض الشيء .. ـ طلاق .. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ... ولكن لماذا يا بني ؟

دهش الغريب لبرهة ثم قال : لا داعي للسؤال ... طلقها من فضلك .

ـ أجل يا بني ، ولكني أريد أن أعرف السبب .

ـ يا سيدي عليك أن تخلصنا فقط ولا داعي للتحقيقات !

فغضب الشيخ قليلا وهو يقول ـ لا يا بني .. ان مهمتي أن أوفق بينكما قبل كل شيء .. ولو فشلت سيتم الطلاق ..

واحتد الغريب وقد شعر بأن الشيخ يتدخل فيما لا يعنيه ...

ـ لا فائدة من اضاعة وقتك ووقتي ... أنا مصمم على الطلاق ..

فابتسم الشيخ .. كم مر عليه من أمثال هذا الشاب وقال :

ـ نبحث الامر بهدوء .. لن تخسر شيئا ... الطلاق ليس أمرا سهلا لهذه الدرجة ..

والطلاق هو أكبر الكبائر في نظر الشيخ عبدالله وقد كان يفخر باستمرار بأنه يكاد يكون المأذون الوحيد الذي لم يفصم علاقة حللها الله .. وأن ما من رجل قصده لطلاق الا أعاده لزوجته نادما مستغفرا.. ولكن هذه المرة ... كان الامر يختلف ، ولم يكن يدري كيف يمكن للانسان ان يكون له رأي مخالف عن رأي سابق اتخذه لمجرد ان جيبه خاو .. كان قد مضى أكثر من شهر على وفاة الاستاذ بركات ولم يعقد عقدا واحدا .. ونفدت النقود ونفد خزين البيت واصبحت الحال لا تسر عدوا ولا حبيبا .. ماذا .. ماذا لو قبل هذه المرة ؟ ولكن هذا الفتى الاحمق يعتقد أنه يكفي أن يطلب الطلاق حتى يسرع الشيخ لتنفيذ رغبته .. هذا غير ممكن ... واخذ يتصور شكل زوجة الشاب ... شابة حلوة وادعة دقيقة الجسم على عكس زوجته الضخمة الكبيرة وشعر بحزن يغزوه حين فكر في الزوجة الشابة التي تشاجر معها زوجها وخرج مسرعا لكي يطلقها .. حزن من أجلها حزنا يكاد يعادل حزنه من أجل أولاده الجياع .. ومن أجل كرامته المهدورة ..

وحين جاءت القهوة كان الشيخ عبدالله والرجل قد غرقا في مناقشات طويلة .. وقد نسي الشيخ كل شيء الا أن بيده أن يمنع منزلا سعيدا أن يتهدم .

وكان جو الغرفة رائعا .. وكانت السيجارة التي ناولها له الشاب قد هدأت أعصابه تماما .. وأخذا يرشفان القهوة ويتبادلان الكلام ... وكان الشاب قد استراح لحديث الشيخ ـ رغم نفوره السابق منه ـ فاخذ يحدثه بمتاعبه والمشاكل العديدة التي تخلقها زوجته من لا شيء رغم حبه لها وحبها له ... وأحس الشيخ بحب مفاجيء لهذا الغريب الذي ذكره بشبابه فوجد نفسه يحكي عن متاعبه ، ويروي له عن شكاسة زوجته اللعينة التي تبدو كالرجل ثم وجد نفسه يذكر ـ بالرغم من أنه خجل بعد ذلك ـ كيف عرفها وكيف أحبها وكيف تزوجا.. « حقا كيف » وغرق في مشاعر لطيفة .. وأخذ يقص على الغريب بعض الطرائف التي وقعت لها .. ضحك لها الشاب حتى أن الشيخ أعجب لقدرته على اضحاك الناس .. ثم تحدثا عن موجة الحر .. وقال الشاب أن احد جيرانهم أغمي عليه من شدة الحر .. وذكر أن قلة الحدائق تزيد من قسوة الحر . فلعن الشيخ الحر وهو يؤكد للشاب ـ ولنفسه ـ أن الحر هو سبب خلافه مع زوجته ، واقترح على الشاب أن يشتري لزوجته هدية ثم يخرجان كي يترضاها ... وكان أحد البائعين يصرخ بشدة تحت النافذة ففطنا للوقت الذي انقضى من جلستهما فابتسما بدون كلام وحين هم الغريب بالانصراف شد على يد الشيخ عبدالله وهو في غاية السرور كمن أنقذ في آخر لحظة من السقوط في هوة مظلمة ... حتى كاد الشيخ يبكي من فرط التأثر والانفعال وودعه حتى الباب الخارجي وهو ينصحه بعدم الاستسلام للغضب والحر ..

وأغلق الباب وراءه وظل مكانه وهو لا يستطيع منع نفسه من الابتسام .. وشعر بحركة خلفه فالتفت ليواجه زوجته .. كانت تقف متنمرة تنتظر ما يقول .. فارخى نظراته الى الارض وابتسم قائلا :

ـ كان يريد أن يطلق زوجته ... انه شاب طيب و ...

ولما وجد وجهها لايبدو عليه أي تعبير وعيناها تنظران اليه ببرود قاتل ، تركها وغادر الحجرة ... ودخل الى الحجرة القبلية .. جحيمه الخاص ، وخلع ملابسه بهدوء ورقد على الارض الباردة بعض الشيء ولكنه هذه المرة كان هادئا تماما بل سعيدا ، حتى أنه نام .

القاهرة — عادل آدم

قضايا الأدب والأدباء

مؤتمر الادب العربي المعاصر في رومـا

بقلم : محيي الدين صبحي

عقد في منتصف تشرين الاول من العام الماضي مؤتمر للادب العربي المعاصر في روما تحت اشراف معهد الشرق الايطالي ومجلة «تمبوبريزنتي» الايطالية والمنظمة العالمية لحرية الثقافة . وقد دعي اليه عدد وافر من الادباء والمستشرقين اشتركوا في مناقشة المحاضرات التي القاها ادباء قدموا من مختلف البلاد العربية . وقد مثل مصر الدكتور ابراهيم مدكور والدكتورة بنت الشاطىء والاستاذ محيي الدين محمد ، ومثل العراق الناقد جبرا ابراهيم جبرا والشاعر بدر شاكر السياب ومثل الأردن الاستاذ عيسى الناعوري ومثل لبنان الشاعر يوسف الخال ومثل سوريا الدكتور جميل صليبا والشاعر علي أحمد سعيد . ولسنا ندري من الذي اعتمدته منظمة حرية الثقافة للاعداد للمؤتمر على هذا الشكل ، لكن المحاضرين تناولوا مختلف نواحي الادب العربي المعاصر ، وعالجوها بحسب مواقفهم الادبية . وقد وصلتنا مجموعة المحاضرات ، وان لم نطلع بعد على المناقشات التي دارت والمقررات التي اتخذت .

تحدث المحاضرون عن الادب العربي : الشعر والقصة والرواية والمسرحية ، كما تحدثوا عن اتجاهات الادب العربي في الالتزام واللاالتزام والتجديد والتقليد ، وبحثوا أيضا في موقف الاديب العربي في العالم الحديث وفي موقفه من الثقافة العالمية ، وتعرضوا أثناء ذلك الى مشكلة تطوير اللغة العربية سواء من حيث الاستعمال الادبي أو من حيث مشكلة الحرف والشكل في الكتابة . وبذلك تطرقوا الى أهم قضايا الادب والاديب لولا أن معالجاتهم تلك اتخذت شكلا انطباعيا وطابعا شخصيا في أغلب الاحيان ، مما أبعد دراستهم عن الروح الموضوعية في البحث العلمي ، وعرض علينا أفكارهم ومناهجهم الذاتية التي لا تخلو من طموح وتطرف وبعد عن اجماع الامة أو منطق الحوادث .

محاضرتان مدرسيتان

عالج الدكتور ابراهيم مدكور موضوع اللغة في محاضرته (الادب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف) فكان بحثه علميا اختصاصيا لا يخرج عن منهج علم اللغة وفقهها . وقد استعرض فيه حياة اللغة في الادب والمعاجم وجهود المجامع اللغوية في تسهيل اللغة وكتابتها بصورة لا تشكل خطرا على الصلة بين ماضي التراث ومستقبله .

أما الدكتورة بنت الشاطىء فقد تحدثت عن (الادب النسوي المعاصر) في مجالات الشعر والقصة والرواية . ومع أن المحاضرين تناولوا هذه الامور بشكل عام فقد آثرت الدكتورة أن تبين مدى مساهمة المرأة العربية في نهضة الادب . وقد بدأت محاضرتها بلمحة تاريخية عن عصر النهضة حين لمعت أسماء عائشة التيمورية وزينب فواز ووردة اليازجي ثم مي زيادة وباحثة البادية ، وفي العصر الحديث تفرع الادب النسوي الى اتجاهات عديدة لكل منها خصائصه وسماته . ومن الملاحظ أن بحثها يخضع للتسلسل التاريخي والصبغة التجميعية . وينظر الى حركة تحرر المرأة بمعزل عن العوامل الاجتماعية والتيارات العامة التي تسير المجتمع العربي ، كأن الحركة النسائية بمعزل عن تطور المجتمع . واعتقد ان افراد بحث خاص للادب النسوي أمر غير ذي أهمية ، ولعله بقية من رسوبات العقلية التي تفرد جناحا خاصا للحريم في الدار والمقهى والابحاث الادبية أيضا . ومن المؤسف أن تنجرف الدكتورة في هذا الاتجاه الضيق مع أن مثل هذا المؤتمر الذي يتعرض للاسس العامة للادب العربي يحتاج الى سعة علم الدكتورة بنت الشاطىء والى تجربتها الواسعة في عالم الادب قديمه وحديثه .

محاضرتان تعتمدان على الانطباع الشخصي

واذا كان البحثان الماضيان يخضعان لروح الدراسة الجامعية ، فان محاضرتي السياب والناعوري قد امتازتا بروح ذاتية محضة . وقد عالج السياب موضوع (الالتزام واللاالتزام في الادب العربي الحديث) فجاء موضوعه مليئا بذكرياته عن الحزب الشيوعي وسلوكه مع الادباء والفنانين، وموقف الادباء الشيوعيين من القضايا الادبية . ومع أن محاضرته تخضع لمشاعره وذكرياته فانها لا تخلو من ملاحظات صادقة وافكار صحيحة . وأهم ما ورد في محاضرته :

١ ـ ان الشيوعيين هم الذين طرحوا شعار الاختيار بين مذهبي الفن للفن والفن للمجتمع ، وبسطوا القضيتين تبسيطا أخفى جوهرهما .

٢ ـ ان الشيوعيين زيفوا الادب والادباء ، اذ أن في وسع جماهيرهم المهيأة للتصفيق وصحافتهم الممولة جيدا ، أن يرفعوا أي انسان يجاريهم في اتجاههم بصرف النظر عن مدى ثقافته وموهبته .

٣ ـ ان الادباء من حملة الفكرة القومية اعتنقوا الالتزام وساروا في موكب الشعر المنبري مستبدلين الشعارات الشيوعية بشعارات قومية .

٤ ـ ساعد الارهاب السياسي على اللجوء الى الرمز ، يعبر الادباء بواسطته عن تذمرهم من أوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية ، لكن الرمزيين غالبا ما كانوا من غير الشيوعيين . ويختلف الطرفان في أن الالتزام الشيوعي مفروض من الخارج . ومن المؤسف أن الرمزيين قد هاجمهم اليسار لانهم منعزلون غامضون ، وهاجمهم اليمين لانهم يساريون خارجون على نظام القصيدة العربية . ولذلك قد اندحروا أمام هذا الضغط المزدوج .

٥ ـ في غير الشعر ، ما زالت أشباح دوستويفسكي وجويس وفولكنر تسيطر على القصاص الملتزم أيا كان مذهبه .

وعلى هذا فقد صور السياب الالتزام كمشكلة طرحها الشيوعيون ثم تبناها القوميون بوحي من نظرية سارتر في الادب . والسؤال : الا تدعو أوضاع الامة العربية بعد نكبة فلسطين ، الى اثارة قضية الالتزام في ضمائر الادباء ولو لم يطرحها الشيوعيون ؟ وهل كان بوسع الادباء أن يظلوا في بروجهم وهم مع أمتهم يشردون ويمسهم الضر ؟ ان قضية فلسطين ربطت الادباء بوطنهم أكثر مما ربطتهم به الفوغائية الشيوعية . وبذلك لا تعود قضية الالتزام دخيلة على الادب العربي المعاصر بتأثير النظريات التي اعتنقها السارتريون والماركسيون ، بل تصبح جزءا من معركة الامة العربية في تقرير مصيرها .

ولعل اهمال هذه الملاحظة يعود الى اعتماد الشاعر على ذكرياته الحزبية ، دون الالتفات الى الجذور الشعبية للقضية . والدليل على وجود جذور شعبية هو استجابة معظم الادباء لنداء الالتزام بصرف النظر عن الجبهة التي وجهت ذلك النداء . مما يدل على أن الشيوعيين قد استغلوا ـ كعادتهم دائما ـ نقمة الامة وأخضعوا مطالبيها لاهدافهم . بالاضافة الى أن فترة ازدهار الالتزام بدأت بعد نكبة فلسطين ، وهي فترة كان الشيوعيون فيها يواجهون نقمة شعبية بسبب موقفهم من قضية فلسطين ، ولم يكونوا قبل ذلك بمركز يسمح لهم بتوجيه ذلك النداء واتخاذ مركز القيادة الفكرية . بالاضافة الى أنهم يعالجون موضوع البؤس عامة ولا يتقيدون بالواقع العربي ، وحين عادوا الى الظهور بعد سنة ١٩٥٥، كان الالتزام شعارا سائدا . وعلى هذا لا يجوز ان يعزى الى الشيوعيين فضل طرح قضية الالتزام في الادب العربي . ان التأثير الشيوعي في الادب العربي أو النضال العربي أمر مبالغ فيه كثيرا ، لان

الحزب ليس بذي بال ، ولولا أن الاحزاب الوطنية القومية قد تعاونت مع الحزب الشيوعي في فترة ١٩٥٠ – ١٩٦٠ وأظهرته على أكثر من حقيقته لظل حزبا منطويا على نفسه لكن التعاون بين الاشتراكيين والقوميين والشيوعيين أظهر الاخيرين بمظهر القوة الضاربة . إنني أقدم هذا الحكم استنادا لما شاهدناه في سورية ابان فترة الوحدة مع مصر ، اذ انفصل الشيوعيون واتخذوا موقف المعارضة فظهرت قوتهم الحقيقية ومقدارها من الضآلة والتخاذل .

الاديب العربي والثقافة العالمية

هذا هو عنوان محاضرة الاستاذ عيسى الناعوري . ولست اجد بحثا يدعو الى الموضوعية كمثل هذا البحث ، مع ذلك فان الرأي الشخصي تحكم بهذه المحاضرة أكثر من سواها . وكان بودنا لو تطامن المحاضر بدعواه في أن (الفكر العربي اليوم يتفاعل مع الفكر الانساني العصري تفاعل الند المبادل) ! ! ولعل الأديب قد نسي أن كلمة (فكر) تعني البحوث العلمية والاجتماعية . وما اظننا في هذه ، ولا في الادب ، نقف من الغرب موقف الند المبادل .

وأهم الافكار التي أثارها المحاضر :

١ – قلة انتشار الادب العربي في الغرب . ويعزوها المحاضر الى أن الغربيين يعتبرون العرب من الشعوب المتأخرة . وأعتقد أن هذا السبب غير كاف . لان طاغور قد حاز اعتبار الغرب رغم أن الهند دولة متأخرة .

٢ – ان الادب العربي أدب كفاح وتحرر لان المشكلات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمع العربي لا تترك للادب فرصة الاعتزال . وقد أكدت نكبة فلسطين طابع المقاومة في الادب العربي . وقد أهمل المحاضر سببا آخر لطابع المقاومة وهو موضوع الوحدة والاشتراكية ، هذا الموضوع الذي يلتزم به معظم الادباء العرب .

٣ – ان المشاكل الاجتماعية والسياسية لم تشغل الاديب العربي عن المشاكل الفنية .

واذا كان ثمة عنصر يضعف المحاضرة فهو المسحة التاريخية التي طغت عليها ، في حين أن مثل هذا البحث يقتضي تقسيم الثقافة العالمية الى قسمين : ماركسي وغربي ، ثم تحديد موقف الاديب العربي من هذين الاتجاهين .

محاضرة جذرية

وقد استدرك الاستاذ محيي الدين محمد النقص الذي وقع فيه سلفه ، في تقريره عن (الادب العربي بين التقليد والتجديد) . فعرض (الفصام بين الحياة التي يعيشها الاديب العربي الشاب وبين ما يمكن أن نسميه « جذوره الثقافية ») وفي سبيل توضيح هذا الانفصال بين الثقافة العالمية الجديدة وتراثنا الثقافي يعود المحاضر الى تحليل الحضارة العربية منذ نشوئها فيقرر أن القرآن (أصبح القانون الوحيد لهذه الارض العربية الكبيرة ، والحكم المطلق لكافة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم في أي شكل من اشكال المجتمعات المتطور منها والبربري) .

وأعتقد أن هذه النظرة الى الحضارة العربية تمسخها الى حد لا يصدقه عقل ! لانه اذا كان القرآن حكما مطلقا في كافة المشكلات ، فما هو مكان العقل والاجتهاد في الحضارة العربية ؟ ألم يبذل الانسان أي جهد فكري في النظر الى العالم ؟ ان القرآن لم يكن سوى الاساس الفكري والروحي للحضارة العربية الاسلامية . وصدور هذه الحضارة عن القرآن أعطاها طابعا موحدا ما كان ليتاح لها بدونه . اذ لا بد لكل حضارة عالمية الطابع من أسس فكرية – حياتية تلم شملها . وقد انتبه فقهاء المسلمين الى التفاوت بين المشكلات الاجتماعية بحسب التفاوت بين المجتمعات والعصور فوضعوا قاعدة اختلاف الاحكام باختلاف الازمان . وهذه القاعدة يسرت للعقل العربي مرونة ساعدت على الاجتهاد وازدهار الحضارة . اذ تأقلمت الحضارة العربية بحسب المناخ البشري لكل فئة اتصلت بها . ان المرونة والاجتهاد طابعان مميزان للحضارة النامية ، ولا نستطيع أن نتهم القرآن بتجميد الحضارة العربية الا كما نستطيع أن نتهم « رأس المال » بتجميد العالم الاشتراكي بدعوى تطبيق تعاليمه على موسكو الصناعية وأوزبكستان الزراعية ! ! أو كما نستطيع اتهام كتاب « الآلة الحديثة » لباكون بتجميد الابداع العلمي عند الغرب . ان الكتب الكبيرة تكتفي باقتراح الطريق فقط . فاذا كان الانسان ديناميكيا اجتاز طريق الحضارة ، واذا كان هيابا تقاعس عنه . ان العبرة دوما بالانسان وليس بالاتجاه الذي يسير فيه . وفي اعتقادي أن الحضارة العربية أصيبت بتصلب الشرايين حين أقفل باب الاجتهاد فانفصل التشريع عن مشاكل العصر وتجمد الانسان أيضا بتجمد الفكر الذي يدفعه . والدليل على هذه النظرة أن أوروبا القرون الوسطى اعتمدت لشرعة حياتها الكتاب المقدس ، وما زالت أوروبا الغربية الى الآن تعتمده كعنصر موحد لحضارتها ، والفرق بين الحقبتين فرق في الفهم والتفسير . وعلى ذلك ليس باستطاعتنا أن ندين الكتاب بل ندين الانسان الذي لم يتابع تطوير حياته وقوانينه .

وحين يستعرض المحاضر عصر النهضة الحديث يقرر أن الادب قد أصبح بكل فروعه (خاضعا في كثير من جوانبه للحركات الفكرية الاوروبية التي تجد صداها في الشرق العربي سريعا في صورة أعمال أدبية قليلة المدى الانتشاري وقليلة التأثير لانها تحمل هموم الغربي بصفة عامة ولا تستجيب لمطالب العربي الاساسية) . وعلى ذلك فالمشكلة التي تتحدى الاديب العربي هي : هل يرفض ماضيه ويسير غير عابيء بالجماهير الغريبة عنه ، أم يرفض التبعية للغرب ويلتزم ماضيه ؟ ولكي يجيب المحاضر على هذا السؤال يستعرض الوضع الاجتماعي العربي ويقرر أن الفقر أساس الداء ، مما يجعل التطور مستحيلا ويترك المجتمع في حالة ثبوت . ويستنتج من ذلك نتيجة صحيحة مفادها أن عقل العربي الحديث يتغير في حين ان مشاعره هي هي . ذلك لان عقله تلقح بالافكار الغربية بينما ظلت مشاعره ثابتة في مجتمع لم تتطور أدوات الانتاج فيه منذ العصر البابلي ! وينتهي المحاضر الى أنه على الاديب العربي تقع مسؤولية تقريب المسافتين بين الفكر والشعور بتدعيم الدعوة الى الوحدة والحرية والاشتراكية ، لان تحقيق هذه المطاليب سوف يطور الحياة الرعوية الزراعية الى حياة صناعية جديدة ، وسوف تستتبع هذه الحياة – بمساعدة الادباء – تطوير التقاليد الحياتية والقضاء على عناصر الجمود والتحريم والتقليد في المجتمع العربي ، وابتداء عهد جديد موار بالحركة والخلق والابداع .

ان المشكلة الاساسية التي طرحها الاستاذ محيي الدين محمد حول تبعية الاديب للغرب أو للجماهير هي مشكلة مغلوطة لانها تفترض أن هذه الجماهير ما زالت متعلقة بالماضي . واذا كان هذا يصدق على جماهير بعض الارياف – ولا أدري – فانه لا يصدق بحال على جماهير اخرى . ان مشاهداتي تدلني على أن الشعب السوري مثلا يرفض الماضي بصورة متفاوتة ، ولكن لم يستدل على طريق جديد بعد ، ولم توجد القيادة الفكرية التي تدعم رفضه ذاك وتدله على طريق متطور . وعلى هذا فان ثمة اتصالا بين رفض الاديب الشاب للماضي ورفض الجماهير له . وان هناك ايمانا يشمل الجميع بضرورة تطوير الحياة الصناعية وتدعيم الوحدة والحرية والاشتراكية . فالخلاف مفقود بين الشعب والاديب في سوريا على الاقل والمشكلة هي في الاتفاق على تنفيذ هذه المباديء . ومع ذلك فان المنهج الذي سار عليه المحاضر في الاستنتاج منهج قويم لولا بعض الاستطرادات والاندفاعات التي تفرضها عليه حماسته . وانني لمتفق معه تمام الاتفاق في كل ما ذهب اليه لولا أني – اذا سمح لي – سوف أتجاوزه في النظرة الى مهمة الاديب ، بخطوة واحدة قد يوافق عليها هو أو تجعل هذه الخطوة الشقة بيننا بعيدة جدا . ذلك أن المحاضر يجعل الوحدة والاشتراكية والحرية هدفا نهائيا بحد ذاته . اذا تحقق أوفينا بعده على النهاية السعيدة بضمير مستريح تجاه الله والوطن والتاريخ . الا انني أعتقد اعتقادا جازما أن ضميرنا لن يستريح أمام الانسان الذي نقوده الى انجاز هذه الاهداف . ذلك أنها أهداف دنيوية لا تتعلق بضمير الانسان ولا مصيره .

ان الرجل العادي يرغب في أن يكون شبعان آمنا في ظل مجتمع اشتراكي ودولة موحدة . لكن استشهاده في سبيل ذلك لا يحوز القيمة

الاخلاقية لصراع الانسان في سبيل مصيره . ان الدعوة الى الوحدة والحرية والاشتراكية دون منح ذلك قيمة أخلاقية لا ترفع مستوى الانسان الروحي ، ولا تجعله يشعر أنه يحارب – لا من أجل قضية عادلة فقط – وانما من أجل رسالة سامية .

في احدى الغزوات كان الرسول محمد يلقي خطبة عن الجهاد ، وكان أحد البدو يأكل تمرا . التفت الرجل الى محمد وقال : أليس بيني وبين الجنة الا هذه التمرات ؟ ثم رماها وقاتل حتى قتل .

ان هذا الموقف لا يصدر عن وعدك الجائع بالشبع والذليل بالعزة والكرامة ، وانما يأتي عن طريق تقرير مصيره الوجداني : هدف حياته وتبريرها . راحة ضميره وامتلاؤه . علينا أن نمنح قلبه النور ونعطي لروحه السلام رغم أن العالم الخارجي يدفعه دوما الى الغضب والحقد فيتحول الى هدام مخرب .

اننا اذا قصرنا دور الاديب على التبشير بالوحدة والحرية والاشتراكية كأهداف نهائية ، فانما نحيله الى اذاعة حية . ونربط الادب بالصحافة ونجعل دور التوجيه أعظم من دور الابداع ، ونصل الى الميكانيكية التي أصيب بها الادب في الدول الموجهة ، ونفسح المجال للمهوبين من الكتاب أن يستغلوا المبدأ في سبيل الشهرة عن طريق الاذعان والحماسة الفارغة . ولا ينكر انسان أن الهوة بين دوستويفسكي وأي أديب شيوعي هوة مفجعة ليست بذات قرار . والسبب في ذلك يعود الى انعدام الحرية الداخلية لدى هذا الاخير ، بينما كانت الحرية الروحية عند دوستويفسكي تتدفق كأنها أمواج المحيط : أزلية أبدية عظيمة على الدوام لانها تصدر عن ضمير انسان عظيم . ان فقدان الهدف الروحي للماركسية قد جمد الابداع في انامل الفنانين الروس وقعد بالادب عن تقرير المصير الوجداني للانسان الروسي ، وقصر دور الاديب على الدعاوة عن طريق تصوير سطوح الحياة بدلا من الغوص الى اعماقها . ان اجهزة الدعاية بما فيها من راديو وتلفزيون ومطابع وصحف مؤممة وحزبيين مبشرين .. ان كل ذلك يكفي لنشر الفكرة وتدعيم الدولة وتجنيد الجماهير والضغط على الاعصاب . والمزيد من ذلك يملأ الحياة بالظلام والظلم . ومن واجب الادباء ان يجعلوا من تلك الاهداف رسالة تؤجج ايمان الجماهير وتوقظ توقهم الى المثل الاعلى فترتفع حياة الرجل العادي ومصيره الى مستوى الرسالة التي يموت من اجلها متطوعا بدل ان يساق سوق النعاج عن طريق التوجيه المباشر والقسر . فاذا استطاع الادباء ان يحولوا الاشتراكية والوحدة والحرية الى رسالة تصهر الضمير بالهدف يكونون قد ادوا واجبهم كفنانين . وعند ذلك لا تعود الوحدة والحرية والاشتراكية مجرد اصطلاحات تهدف الى اصلاح اقتصادي واعتبارات ستراتيجية ، وانما تتحول الى مشروع حضارة . فاذا آمن الادباء بانها حضارة عربية كفوا عن الاتكاء على البراهين الاقتصادية والسياسية والعسكرية وتركوها لاصحاب الاختصاص ، بدلا من ان يمضغوها دون فهم ولا نتيجة . يجب ان يملك الاديب المؤمن بهذه الاهداف رؤيا كاملة عن الحضارة العربية المقبلة يمنحها من اعماقه الخاصة ويستمدها من ايمانه الذاتي بثورة خلقية ومصير بطولي . أن روسيا ستبقى جزءا من الحضارة الغربية حتى اللحظة التي يستطيع فيها الادباء الروس ان يجعلوا من المذهب الماركسي مصيرا انسانيا يتعلق بهدف الحياة وخلاص النفس ونقاء الضمير . وان هذا لن يتاح لاية دولة ذات نظام موجه طالما انها تعتبر الاديب آلة يمكن الحاقها بجهاز الدعاية وتغير لهجته كلما تغيرت سياسة المرحلة !

من كل ذلك يتضح امران :

١ – يجب ان نعتبر الوحدة والحرية والاشتراكية وسيلة لتحقيق هدف وواسطة لتحقيق غاية هي الرسالة التي تقرر مصير جهود الشعب. وهل هذه الجهود سوف تصرف لخدمة الانسانية وارتقاء ضميرها، ام انها سوف تستخدم للاغراق في الظلام ونشر الفناء ؟ وبمعنى اخر:هل توجهجهود الشعب لبناء الاكروبول ام لبناء الاهرام ؟ وهل هي لاستئصال السرطان ام لاستئصال هيروشيما ؟ وهل هي لاخماد صوت باسترناك والمجر والتيبت ام لاخماد لهيب الجوع والظلم في آسيا وافريقيا ؟

٢ – يجب ان يعتبر الادباء خالقين لفحوى هذه الرسالة وموجدين المعنى الاخلاقي لنضال الشعب ومقررين لمصيره : جلادا او بناء . وعلى ذلك فهم ليسوا دعاة مذهبيين ولا صحفيين اخباريين ولا معلقين سياسيين بل انبياء يصعدون الطور ويأخذون الالواح ويستشرفون ارض الميعاد لشعبهم وللانسانية جمعاء .

اراء متطرفة

واذا كان الاستاذ محيي الدين محمد قد جعل من وصول الاديب الى جماهير شعبية غاية محاضرته فان الشاعر يوسف الخال في تقريره عن « الاديب العربي في العالم الحديث » قد عالج نمو الثقافة كشيء مجرد بعيد عن غير المختصين ، وحين فكر في الجماهير اخضعهم لحدود جغرافية ضيقة جدا

يقرر المحاضر منذ البدء وجود التناقض بين كوننا شكلا في العالم الحديث وكوننا جوهرا خارجه مما يؤدي بالاديب الى (معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث ، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم .) ثم يعترف ان بوسع الاديب ان يتخطى هذه الصعوبة بان يكتب ادبا يعكس حياتنا ويعالج قضايانا الخاصة على نحو يهم القارىء في كل مكان ، لولا وجود صعوبات اربع :

١ – اللغة : يقول المحاضر : « اننا نفكر بلغة ونتكلم بلغة ونكتب بلغة » . ويرى « اننا – منذ ابي نواس قد استنفدنا مكان تطويع اللغة بلغة » . ويرى « اننا – منذ ابي نواس قد استنفدنا امكان تطويع اللغة لا نكتب بلغة الشعب ويستشهد بدانتي وتشوسر وادباء عصر النهضة الاوربية .

ان الاستشهاد بادباء عصر النهضة الاوربية ليس في صالح المحاضر الخال، لان دانتي حين كتب بالايطالية ، كان يستجيب لانفصال الشعب الايطالي عن العالم الروماني .. اي ان القومية الايطالية اظهرت انفصالها عن الحضارة الرومانية بنبذ اللغة اللاتينية . وكذلك فان تشوسر حين كتب بالانكليزية كان يؤكد انفصال الشعب الانجليزي عن اللغة اللاتينية والعالم الروماني . لقد كتب هذان الاديبان بلغة الشعب بدافع قومي . وعلى هذا القياس فان الادباء العرب اذا اخضعوا للدافع القومي فعليهم ان يكتبوا بالعربية الفصحى . واذا كان المحاضر يعني بعبارة « لغة الشعب » اللغة العامية ويدعو اليها ثم يستشهد بدانتي وتشوسر ، فانني اتساءل : كيف نتيح لادباء الغرب ان يختاروا لغتهم بدافع القومية ولا نبيح لادبائنا ذلك ؟ ان الاستاذ يوسف يقترح استعمال اللغة المتطورة على السنة الشعوب ، لكننا نرى ان هذا تفسخ وليس تطورا . ونعتقد اننا حين نرفع المستوى الثقافي للفرد العادي فان لغته الفصيحة سوف تدور على لسانه من جديد . ان اعماق العامة هي اعماق فصيحة بدليل انهم يتداولون تراثهم الشعبي (الف ليلة ، الملك سيف ، الملك الظاهر) بفصيحة مبسطة .

٢ – الفكرة القومية : يقول المحاضر (انها تشغل الاديب عن فهم بيئته الطبيعية ومجتمعه الذي ينبت فيه) ويرى (ان هذه الفكرة سلبتنا الاستقرار والتعمق والتأصل في حدود تاريخية معينة .)

انه يحاول ان يضع بيئة الاديب ومجتمعه بموضع مناقض للبيئة القومية . وانني لا ارى مبررا لهذا التعارض لانني حين اطرح مشكلتي الفردية او مشكلة اسرتي طرحا صحيحا فانني اكشف الشروط التي تعيش فيها بيئتي الصغيرة ، وانفذ من خلال ذلك الى الشروط السيئة للمجتمع العربي باكمله . ذلك ان البيئة الطبيعية والمجتمع الصغير ليسا دائرتين مغلقتين وانما تنفتحان على كل المجتمعات التي تعيش بالشروط ذاتها . واقرب تلك المجتمعات البيئة القومية . فالقومية انفتاح المجتمعات الصغيرة على مجتمع كبير يحوز على وجه التقريب صفات متجانسة واسسا موحدة . وليس في الدنيا انسان يعتقد ان

بيئته الطبيعية هي الدار او الحي او المدينة . ان البيئة الطبيعية لكل انسان هي مجتمعه . ويحد المجتمع نفسه حسب حدوده الاقتصادية والجغرافية والتاريخية والمرحلة التي يمر بها . وهذه الحدود الثلاثة بالنسبة لاية جماعة عربية تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي. واذا كان المحاضر يرى ان هذا المجتمع اكبر من ان يتعمقه اديب فليذكر ان التعمق يعتمد اولا على الشروط الخاصة بكل مجتمع محلي ثم الانفتاح على البيئة القومية ثم على الانسانية . اما اذا اراد المحاضر ان تنغلق تلك البيئات على نفسها فكأنه يريد ان يعود بتاريخ العالم الى عصر دويلات المدن ، مع اننا في عصر الجماعات التي يفوق تعدادها المائة مليون غالبا .

٣ ــ انغلاقنا على انفسنا : يقرر المحاضر ان (حضارة الانسان واحدة لا تتجزأ . وعلينا ان نصنع ادبنا بالاعتماد على جلقامش وهوميروس وفولكنر وسان جون بيرس) .

من الغريب ان يهاجم الانغلاق من يكرس اقامة مجتمع محلي وصيانته من الفكرة القومية التي (تشغل الاديب عن فهم بيئته الطبيعية) !! ولعله يتصور ان الانفتاح يكون على العالم مباشرة بدعوى فكرة وحدة الحضارة.

وفي الواقع ان مؤرخي الحضارة ــ وخاصة في العصر الحديث ــ ينكرون فكرة وحدة الحضارة الانسانية . ويقررون ان كل حضارة تشكل وحدة مكتملة لا تتعلق بغيرها الا اذا تسلسلت احداهما من الاخرى ، كما تسلسلت الحضارة الغربية من الحضارة الهلينية الرومانية . وعلى ذلك تتعدد الحضارات بتعدد القوميات التي ابدعتها . ولعل فكرة الحضارة الواحدة قد جاءت من شيوع الحضارة الغربية في كل العالم وبالرغم من ان حضارة الغرب حضارة عالمية فانها تظل حضارة غربية فقط . ولا يعني هذا ان من واجبنا ان نقفل دونها الابواب ، ولكن ذلك يعلمنا وجوب اتمام النقل بشكل يؤدي الى العطاء من ذاتنا نحن .

٤ ــ « ان الفكرة القومية تعد ببناء مجتمع واحد كبير تسود فيه العدالة وتتوافر له عناصر القوة والكرامة والتقدم . لكن السؤال الذي يجابه الادباء هو : كيف يتم ذلك وعلى حساب ماذا ؟ ويعلن انه يرفض هذه الوعود اذا تمت عن طريق الارهاب والطغيان والتضحية بالحاضر على حساب المستقبل ».

ان المشكلة التي طرحها العصر الحديث هي : الخبز او الحرية ومن المؤسف ان احداهما دوما تطغى على الاخرى . اما الشعوب التي تنعم بالحرية فهي شعوب تتناول خبزها من مستعمراتها . وما دام ليس لنا مستعمرات فليس لنا سوى مواطنينا . وهل يرضى الاستاذ ان يخبز طعامه بدماء مواطنيه ؟ ولماذا يتصور ان القومية في تعارض مع الحرية مع ان الواقع هو العكس ، اذ لا يمكن ان توجد الحرية الا بعد سيادة القومية في نقد الشعر القصة ..

بعد المحاضرات التي استعرضت المبادىء العامة للثقافة العربية ، هناك محاضرتان اختصتا بالشعر والقصة . وقد تحدث الاستاذ علي احمد سعيد عن (الشعر العربي ومشكلة التجديد) . وقد بدأ المحاضر موضوعه بالحديث عن الشعر العربي القديم فقال : لقد نشأ الشعر العربي وعاش في عالم من الثبات في القيم والنظرة . وكان عند العربي مثل اعلى للرجل والمرأة لذلك يتعذر علينا ان نتعرف من خلال الشعر على امرأة بعينها ، ذلك ان صفاتها ليست صفات شخص بل صفات انموذج قائم في الذهن . ومن هنا نشأ اهمال المضمون باعتباره مبذولا للجميع . ثم يتحدث عن موقف النقاد من المحدثين ، واعتبار القصيدة الجاهلية مثلا يطالب الشاعر باحتذائه الى اليوم . ويتحدث عن القصيدة الحديثة من الناحية الفنية فيصفها بانها وحدة متماسكة تقوم على الرؤيا وتعتمد على الايقاع ، وتعتمد على لغة شخصية حية وتتمرد على الذهنية التقليدية وتتخطى الموقف الحضاري السلفي .

ان حديث المحاضر عن القصيدة الحديثة غاية في الدقة والتمكن اما وصف الثقافة العربية بانها ثبوتية فلعل هذا يرجع الى ان هذه الاثار وصلتنا بشكلها النهائي البعيد عن ملابساتها الاجتماعية والثقافية ولو اننا استطعنا ان نضع النصوص في مجالاتها لاكتشفنا انها مليئة بالحياة وقابلية التطور . واعتقد ان استعصاء القيم الفنية القديمة على الاستعمالات الجديدة هي التي بثت في نفوس المثقفين الاعتقاد بان عالم الثقافة العربية عالم مغلق ضيق . ولعلنا سنكف عن اتهام الحضارة العربية حين يصبح لدينا ما نتحدث به عن انفسنا وعندما نكف عن البحث عمن يمد لنا يد العون في كل مشكلة تعترضنا ، ان التقصير منا وليس من الحضارة العربية التي انتهت بخيرها وشرها من عالمنا المعاصر.

وفي النهاية تحدث الاستاذ الناقد جبرا براهيم جبرا عن « الرواية والقصة والمسرحية » فعرض ناحية هامة من نواحي ادب الخيال في اللغة العربية ، هذه الناحية هي خلو الرواية العربية المعاصرة من الموضوع الكبير ــ من الموضوع المأساوي . فليس ثمة رواية تصور الفرد وهو يجابه القوى الكبرى . كما ان الكتاب اقتصروا على الدعوة للمذاهب التي يعتنقونها . ولم توجد بعد ، الرواية التي تقدم رؤية خاصة لوضع اجتماعي معين. وعلى ذلك فقد قصرت الرواية على الصعيد الفردي كما قصرت على الصعيد الجماعي . ثم يستعرض انتاج ليلى بعلبكي ومطاع صفدي ، فينعي على « الالهة الممسوخة » تفاهة الحادثة . ويحكم على (جيل القدر) بانها ركام غير متماسك من المبالغات الميلودرامية والنص المباشر . وحين يتعرض للقصة القصيرة يقرر بانها تكاد تكون انجح اشكال الادب . ثم يتوسع في الحديث عن القصة اليسارية في العراق وعن الواقعية الاجتماعية عند الكتاب اليساريين الذين يمثلون البورجوازي حين يكتب عن نماذج مكررة من البروليتاريا . ثم يتحدث عن عدد من قصاصي البلاد العربية مطلقا احكاما صحيحة في الغالب وان كان البحث باجمله تعوزه الدقة والمراجع .

دمشق **محيي الدين صبحي**



دفــاع عن «الجــوانية»

بقلم محمود رجب

حضرة رئيس التحرير

تحية طيبة وبعد ـ فقد اطلعت على ما جاء في باب «قضايا الادب والادباء» بخصوص الجوانية . ولما كنت أحد الذين تناولتهم المناقشة بطريقة غير مباشرة ، باعتباري الشخص الذي قام بالرد ـ الذي لم يصلكم كما ذكرتم ـ على نقد الاستاذ محيي الدين محمد للجوانية، اراني ـ بناء على هذا ـ ملزما بتوضيح أربع نقاط :

النقطة الاولى خاصة بوجهات النظر المختلفة الى الجوانية ، فهناك وجهة نظر تؤيدها تأييدا مطلقا ، وأخرى تعارضها معارضة مطلقة أيضا . ومع ذلك توجد وجهة نظر ثالثة ـ هي التي أعتنقها ـ تأخذ على الاولى أن أصحابها يذوبون في شخصية الاستاذ الدكتور عثمان أمين وآرائـه ، بحيث يفقدون استقلالهم ، وقدرتهم على التفكير الشخصي ، خاصة وأن غالبيتهم من الشباب الذي لا يزال في بداية تكوينه الثقافي . وتأخذ على الثانية أن معتنقيها قطعيون ، متسرعون في أحكامهم ، تسوقهم الى ذلك دوافع مختلفة ، كالمعارضة من أجل المعارضة ، أو ـ وهـذا للاسف الشديد ـ خلافات شخصية . اما الوجهة الثالثة من النظر فتتخذ من قول الغزالي بأن «رد المذهب او اعتناقه قبل فهمه رمي في عماية» شعارا لها ، ومنظورا تتناول من خلاله التيارات الفكرية عامة . والفهم الذي يعد شرطا ضروريا لتأييد المذهب او معارضته لن يتأتى الا بالتحدث عنه والكتابة فيه ، لا بالصمت أو الترقب كما يفعل البعض .

على ضوء وجهة النظر هذه قمت ـ منذ سنتين تقريبا ـ بالرد على الاستاذ محيي وقلت ما نصه : «كتب الدكتور عثمان امين مقالا في مجلة «المجلة» القاهرية عن «الفلسفة الجوانية» ، رسم فيه ملامح اتجاهه الفلسفي . وقد تصدى الاستاذ محيي الدين محمد لهذا المقال فكتب نقدا في مجلة «الآداب» البيروتية بعنوان «الجوانيـة أو البرجسونيـة الشائهة» ومضمون النقد معروف من عنـوانه . والاستاذ محيي مشكور على اهتمامه بدراسة الجوانية ، معذور في اساءة فهمه لاقوال صاحبها ، ذلك أنه لم يستمع الى أحاديث الدكتور عثمان ومحاضراته ، وقد لا يكون ممن قرأ كتبه التي يوجد فيها بلا شك بذور هذا الاتجاه ، الـذي استخلصه وخطط أبعاده في مقاله سالف الذكر ، لكنه ـ مع ذلك ـ وقع في اخطاء لا عذر له فيها سنذكرها فيما بعد» .

وكاتب هذه السطور ليس من الجوانيين ، لكنه ـ على العكس من الاستاذ محيي ـ تلميذ للدكتور عثمان ، استمع الى محاضراته وقرأ كتبه، معجب بجهده الدائب نحو خلق اتجاه فلسفي أصيل غير منقـول ولا مستورد من الخارج . فالتلمذة والاعجاب يفرضان علي واجب المناقشة لانتقادات الزميل عن الجوانية .

ولا بد قبل المضي في هذه المناقشة من توضيح نقطة البدء للجوانية من حيث هي اتجاه فلسفي ينبت في عصر متأزم قلق ، وفي أرض عربيـة لها نوعيتها الخاصة . فالجوانية ـ شأنها كشأن بقية الحركات الفلسفية الاخرى ـ تهتم بظاهرة يعانيها الانسان الحديث هي غربته عن ذاتـه Alienation فتكدس الناس ـ بالملايين ـ في المدن ، بعد أن هجروا القرى وقطعوا صلتهم بالطبيعة ، وازدياد الانتاج الالي بحيث اصبح الانسان عبدا للآلة التي خلقها هو . وأخيرا اكتشاف أخطبوط داخـل نفسه اسمه اللاشعور ، بحيث ضاقت منطقة وعيه ـ كل هذه العوامل أدت الى شعور الانسان الحديث بالغربة عن ذاته الحقيقية الجوانيـة (النومينالية بتعبير كانت) ، وأنه منسلخ عنها ، ملتصـق ـ في نفس الوقت ـ بذات أخرى ، غريبة عنه ، تسيره ، هي الذات الزائفة البرانية (الفينومينالية بتعبير كانت ايضا) ، والتي كونتها مظاهر العالم البراني وعاداته . لذلك كان اهتمام انسان هذا العصر هو القضاء على هذه الغربة التي يستشعرها ، واللحاق بذاته الجوانية الحقيقية ، وتحقيقها . لكن ، كيف يكون ذلك ممكنا ؟ . اختلف الفلاسفة المعاصرون في وصف الطريقة التي يتم بها تحقيق الذات الاصلية : فهو سرل ـ أبو الفلسفة المعاصرة ـ يذهب الى ان الخلوة هـي الوسيـلة التي عن طريقها يستطيع الانسان الوصول الى ذاته الترنسندنتالية اي الذات البكر ، بعد ان يكون قد وضع العالم الخارجي بما فيه من أشياء وأشخاص بين قوسـين . والماركسيون يذهبون الى أن الثورة البروليتارية المرتقبة هي التي ستحرر الانسان من عبوديته للمجتمع الرأسمالي وللالة ، وستجعله سيـدا على وسائل الانتاج . والوجوديين ـ خاصة ياسبرز ـ يقولون ان الاختيـار الحر ، غير المقيد بظروف العالم الخارجي هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الوجود الزائف للذات ، حيث تكون هناك في العالم Dasien ولتحقيق الذات الشرعية الماهوية Existence وقد يبدو أن الوصفية المنطقية بعيدة عن هذه المشكلة ، وبالتالي عن التماس حل لها . لكن الواقع خلاف هذا ، فاللغة في نظرها على الرغم من أنها من خلق الانسان، الا أنها تعود فتتحكم فيه وتسيطر عليه . وعندها أن الحل الوحيد للهرب من هذا المأزق هو تحليل عبارات اللغة ، بغية اعتناق العبارات ذات المعنى ونبذ الفارغة من المعنى . أما الجوانية فقد جاءت بحل يتفق مـع واقعنا العربي ذي التراث الروحي ، ويتركز هذا الحل في اهتمام الانسان بجوهر الامور ونبذ القشور والاعراض ، والابتعاد عن المظاهر التي مـن شأنها تخدير الانسان وسلخه عن نفسه ، كالمقاهي التي تستخدم عندنـا وسيلة من وسائل قتل الوقت ، لذلك كان اهتمام الدكتور عثمان عظيمـا بنقد تلك المظاهر .

فغربة الانسان الحديث اذن عن ذاته وخضوعه لقوى العالم البراني ومحاولته التخلص من هذه القوى للوصول الى ذاته الحقة البكر هـي نقطة البدء للجوانية . ولقـد كان عدم الالتفات اليها سببا في اتهام الاستاذ محيي للجوانية بانها برجسونية شائهة ، انها بعيدة عن واقعنـا ومشاكلنا . ولنناقش الآن ـ بالتفصيل ـ انتقادات الزميل للجوانية :

ان لكل فلسفة فروضا سابقة تقوم عليها ، وفي الغالب تكون هـذه الفروض كامنة في أقوال صاحبها . فاذا ما أراد المرء فهما وبالتالـي نقدا ، لهذه الفلسفة فلا بد وأن يسأل نفسه باديء ذي بدء : ما هـي الفروض السابقة التي تقترحها أقوال هذا الفيلسوف ؟ . وبدورنا علينا أن نسأل : ما الفروض السابقة التي تقوم عليها الجوانية ، والتي كان عدم تبينها سببا في سوء فهم الزميل الناقد لمقال الدكتور عثمان الذي اعتمد عليه في نقده ؟ هناك فرضان تنبني عليهما الجوانية. احدهما خاص بالناحية المعرفية (الابتمولوجية) وهو أن الانسان الجواني هو ذلـك الذي يعرف الاشياء «من الداخل» بالحدس ، بعد ان يكون قد عرفهـا «من الخارج» بالعقل . والآخر خاص بالناحية السلوكية الاخلاقية وهو أن الانسان الجواني ـ كالحكيم الرواقي ـ يواجه ما في العنصرية مـن ضيق وتعصب بما في الانسانية من شمول وتسامح . وجلى أن هذيـن الفرضين واضحان ومتميزان ، ولكنهما ـ كشأن الاشياء الواضحة المتميزة دائما ـ في حاجة الى جهد كبير لتثبيتهما في الاذهان ، والى امعـان

النظر في تبين ما ينطوي عليه كل فرض منهما من دلالات شتى . وهذا ما فات الزميل فهو يقول : « ان الجوانية فلسفة تعود بنا الى الغيبية ، وتبعدنا عن العلم » ثم يستطرد قائلا بعد كلام خطابي « ونحن معشر العرب في أمس الحاجة الآن الى الايمان بالعلم » . والغريب أن السيد الناقد قد أورد تعريف – ان صح تسميته تعريفا – الفلسفة الجوانية ، ولو أمعن النظر فيه لما ادعى هذه الدعوى . فالجوانية – كما يقول صاحبها – « هي الفلسفة التي تحاول أن ترى الاشياء والاشخاص رؤية روحية ، بمعنى ان تنظر الى « المخبر » ولا تقف عند « المظهر » ، وان تلتمس « الباطن » دون ان تقتنع « بالظاهر » ، وان تفحص عن «الداخل» بعد ملاحظة « الخارج » . والمعروف ان العلم يهتم بدراسة مظهر الاشياء او ظاهرها من الخارج . وواضح من التعريف السابق – الذي أفضل تسمية بالايضاح بدلا من التعريف – ان الجوانية لا تنكر هذا ، ذلك أنه لا ينص على ان الجوانية تهتم بالمخبر والباطن والداخل فقط ، وتنكر المظهر والظاهر والخارج . كل ما في الامر انها لا تقتنع بدراسة هذه الاشياء وتلتمس « ما وراءها » أي ما هو جوهري وأصيل فيها . وفرق كبير بين الانكار للعلم – الذي ظن الناقد ان الجوانية تدعو اليه – وبين عدم الاقتناع ، كوسيلة وحيدة لتفسير الكائنات كلها . وان بدا للبعض ان هذا تأويل للنص السابق فالدكتور عثمان قد قال بصريح العبارة في نفس المقال : « الفلسفة قبل كل شيء قلب وعقل : انها تعتمد على العلم كما تعتمد على الايمان . ويقول في كتابه « محاولات فلسفية » : «الميتافيزيقا مكملة للعلم ... فالعلم نفسه بمهمة الاكتشاف الذي لا يتم أبدا ، يمهد للحدس الميتافيزيقي ويستدعيه الى روح الانسان القائم دواما في ذهن العالم » .

ودعوى الناقد الفاضل هذه قائمة على الظن بان الحدس والعقل متضادان بالضرورة . وهذا ظن خاطيء ، ذلك أن كلا منهما يكمل الاخر ، فاحدهما وهو العقل يدرك الحقيقة جزءا جزءا ، والاخر وهو الحدس يدركها في جملتها . والحدس – كما يقول الغزالي في « معيار العلم » – لا يكون الا بعد تحصيل جميع المعارف واخذ الحظ الاوفر من أكثرها . وتحصيل العلوم لا يكون الا بالعقل» . والعقل – كما يقول في الاحياء ج ١ فصل ٧ منبع العلم ومطلعه واساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة » . ومعنى هذا كله هو ان الحدس لا يضاد العقل وانما يكمله « وبذلك تنهدم دعوى الزميل الذاهبة الى ان الجوانية تنكر العلم ، لانها تعتمد على الحدس كمنهج للمعرفة ، في حين ان العلم يعتمد على العقل . وقد تبينا ان لا تعارض بينهما .

ويقول الاستاذ مجيي « ان الجوانية تبعدنا عن واقعنا ، تؤدي بنا الى الهرب من التاريخ ، وسوف تموت هذه الجوانية ، لانها سمكة ولدت فوق الارض يلزمها البحر لتعيش وتتنفس ، ويعذبها هذا الهواء الذي نتنفسه نحن ونشمه » . ويكفي للرد على هذه الدعوى ان الدكتور عثمان قال في مقاله المذكور : « ان الانسان الجواني – كالحكيم الديكارتي – لا يعيش في برج من العاج ، معتزلا الناس ، انه رجل كريم . فهو لذلك يمضي قدما لغزو الطبيعة بعد الكشف عن إسرارها . ومتى تم له ان ينمي وعيه لذاته ، ويتعمق صلته بالكون ، ومتى تم له أن يتبين القيمة الحقيقية للاشياء وان يزهو في كل ما هو براني ، فلا شيء يحول بينه وبين ان يغامر في الدنيا لكي يستمتع بها في الحدود المشروعة ، ولكي يقدم المحبة والمعونة لغيره .»

وان قال الزميل : ولكن ، ما الجديد في الجوانية ؟ قلت : الجديد هو القدرة على اكتشاف اوجه الشبه بين سلسلة من المفكرين الشرقيين والغربيين ، واطلاق لفظ يفسر افكارها هو لفظ « الجوانية » . وليس التفكير العلمي سوى هذا فهو لا يخلق وانما يكتشف الاطرادات والمتشابهات بين الظواهر الطبيعية المتعاقبة ، واطلاق عبارة موجزة تفسرها هي القانون . والعبقري هو الذي يدرك بلمحة من الحدس – بعد طول درس وتأمل ومعاناة – هذه المتشابهات بين الاشياء او الاشخاص المختلفين . لقد جرت سنة بعض الدارسين للفلسفة على معالجة اغلب المفكرين ، وكأن كل مفكر منهم كالرجل المعلق في الهواء ، لا رابطة بينه وبين الاخر من ناحية ولا بينه وبين الواقع الذي نعيش فيه من ناحية اخرى ، حتى جاء الدكتور عثمان واوجد هذه الرابطة ، وهذا هو الجديد – اذا فهمنا الجديد لا بمعنى الخلق من العدم وانما بمعنى الاكتشاف – وهذه هي الجوانية ».

اما النقطة الثانية فتتعلق بمآخذ السيد الجنيدي خليفه على ما قاله الدكتور عثمان في محاضرته عن « الجوانية في الادب » . والمأخذ الرئيسي عنده هو ان الجوانية تفتقر الى التعريف الفلسفي الدقيق . والرد على ذلك هو ان التعريف ينبثق تلقائيا من خلال احاديث المفكر وكتاباته ، ولن يتضح ولن يكتمل الا بعد شوط طويل من الكتابة في الاتجاه المراد تعريفه . ولئن كان الدكتور عثمان مضطرا الى ايراد بعض الايضاحات عما هي الجوانية فليست في الحقيقة سوى تعريفات وقتية تعدل وتتجاوز ، لان الجوانية مفتوحة ولا تقر بالانغلاق والجمود. بل اذهب ابعد من هذا واقول : ان مسألة التعريف ذاتها اصبحت غير مستساغة عند فلاسفة العصر ، ذلك ان التعريف يفترض انتهاء الشيء واكتماله . ومن المسلم به ان الجوانية لا زالت في البداية . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نجد التعريف ما هو الا اجابة عن سؤال يبدأ ب « ما » : مثلا ما الوجودية ؟ او ما الجوانية ؟ . والاجابة – التي هي

التعريف – تكون في العادة الماهية الثابتة للشيء المعرف . ولئن صح هذا بالنسبة للارسطيين في القرون الوسطى المغرمين بالتحديد والتصنيف فانه لا يصح بالنسبة للفلاسفة المعاصرين – وخاصة الوجوديين – الذين يهتمون بعرض المواقف وتحليلها ، بدلا من ايراد التعريفات وتقسيمها . فالحرية مثلا لا نجد سارتر يقدمها لنا عن طريق عدة عبارات موجزة تكون بمثابة التعريف الجامع المانع الجاهز لها ، بل نراه يجسدها لنا من خلال عدة مواقف ملموسة يحققها اناس مختلفون ، وذلك في روايته « دروب الحرية » ، اننا لا نستطيع معرفة الى اي موقف ينحاز ، وان كانت « ايريس مردخ » تذهب الى ان ماتيو صورة مصغرة من سارتر، وانظر الى ما قاله في « جمهورية الصمت » حيث يؤكد ان الحرية لا تكون الا في موقف نهائي قهري ، كموقف الاحتلال الالماني لفرنسا : « لم نكن في يوم من الايام اكثر حرية مما كنا خلال فترة الاحتلال الالماني. لقد فقدنا اثناءها كل حقوقنا ابتداء من حق الكلام . كنا نتلقى الاهانات في وجوهنا كل يوم ، متقبلين اياها في صمت . وباسم ادعاء او اخر – كعمال او يهود او مسجونين سياسيين – كنا ننفى بالجملة ، وكانت تواجهنا في كل مكان – في الجرائد ، وعلى الشاشة البيضاء – صورتنا الباهتة التي اراد منا قاهرونا ان نتقبلها . لهذا كله كنا احرارا . فلان سم النازي قد تسرب الى افكارنا كانت كل فكرة تعد انتصارا ، ولان البوليس ذا القوة الشاملة حاول تكميم افواهنا بالقوة كانت كل كلمة تحمل قيمة اعلان المبادىء . لاننا قتلنا كل حركة من حركاتنا كانت لها خطورة الالتزام الجليل.. النفي والاسر، والموت خاصة – وهي الامور التي نرتعد خوفا من مواجهتها في الايام السعيدة – صارت بالنسبة لنا الموضوعات العادية لاهتمامنا . ادركنا انه ليست بالاحداث التي لا مفر منها ، وليست كذلك بالاخطار الدائمة ، وانما اعتبرناها كانما هي قدرنا ومصيرنا والمصدر العميق لحقيقتنا كبشر . عشنا في كل لحظة المعنى الكامل لهذه العبارة الصغيرة : « الانسان فان ! » والاختيار الذي اتخذه كل منا لحياته كان اختيارا حقيقيا لانه اختيار اتخذ وجها لوجه مع الموت .. ان سر الانسان لا يكمن في عقدة اوديب ولا في عقدة نقصه ، بل هو حد حريته ، وقدرته على مقاومة التعذيب والموت ».

أعتقد ان السؤال الذي كان في ذهن سارتر – وهو يكتب هذا الذي سبق – لم يكن : ما الحرية ؟ والا لسرد علينا عدة قضايا مجردة عقلية عن الحرية ،وانما كان : الحرية .. لماذا ؟ لان هذا السؤال يفترض شروط الحرية ووظيفتها والمواقف الملموسة العينية التي تنبثق من خلالها .

ان السؤال الذي يبدأ ب « ما » يثير الخلط والغموض . فلو قلنا : ما الوجود ؟ فلسوف نجد تعريفا مألوفا هو ان الوجودية هي تلك الفلسفة التي تسلم باسبقية الوجود على الماهية . والخلط والغموض يأتيان لان التعريف سيدخل فلاسفة – هم في الواقع ابعد الناس عن الوجودية ، ضمن قائمة الوجوديين وسيستبعد فلاسفة وجوديين بحق وحقيق مثل هيدجر من هذه القائمة، فالمسيحيون الإرسطيون (التومايون) في القرن الثالث عشر الميلادي وجوديون بناء على هذا التعريف ، الم يذهبوا الى ان الوجود سابق على الماهية ، بعكس الاوغسطينيين ، وذلك في محاولة كل من الفريقين اثبات وجود الله ؟ وقبل هؤلاء ، الم يقل فريق كبير من علماء الكلام المسلمين باسبقية الوجود على الماهية ، كما يبين لنا ذلك الايجي في كتابه « المواقف » ؟

هذا بالضبط ما اثار الخلط والغموض في ذهن السيد خليفه فالسؤال : ما الجوانية ؟ يلح عليه الحاحا كبيرا ، وعلى الرغم من مأخذه على الجوانية ، بانها تفتقر الى التعريف الا ان لديه اجابة عن السؤال السابق هي بمثابة التعريف للجوانية ، ثم يتحير بعد ذلك عندما يجد ان هذا التعريف يعتنقه غالبية البشر ان لم يكن جميع البشر . يقول : « الجوانية في احسن احوالها لا تعدو ان تكون طلبا للب وراء القشور وللحق وراء الباطل ، وطبعا فنحن لا ننتقص من قيمة مثل هذا المطلب ولكننا نشجب ان يؤتى اليه فيزعم له زاعم انه فلسفة وانه هو صاحبها . ذلك بان هذه الفكرة كما سبق ان اشرت هي من الشيوع والاشتراك بين العموم بحيث تكون تراثا يعم جميع الناس، او مثلا اعلى ينشد » ..

الجوانية .. لماذا ؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي علينا – ان اردنا فهما للجوانية – ان نبدأ به . واعتقادي ان الاجابة عليه تنحصر في بيان وظيفة الجوانية في واقعنا من حيث هي وظيفة تعمل على تحرير الانسان من رق « البرانيات » سواء في الدين او الفن او العلم ، وذلك بان ينتبه الى ذاته الجوانية والى ما هو جوهري واصيل في الاشياء ، وان لا يكون عبدا لها بل سيدا عليها. ولا شك اننا لفي حاجة كبيرة الى فلسفة من هذا النوع ، تنبه الوعي وتوقظه ، خاصة واننا على ابواب نهضة صناعية وتقدم تكنولوجي مطرد اخشى معهما ان نضيع وان نتحول الى مجرد الات صماء .

وهذا يؤدي بنا الى النقطة الثالثة وهي تتعلق بوضع الجوانية بين غيرها من الاتجاهات الفلسفية في مصر . ففي مصر يوجد اتجاهان فلسفيان بارزان : احدهما هو الوجودية ويمثله الدكتور عبد الرحمن بدوي ، والاخر هو الوضعية المنطقية ويمثله الدكتور زكي نجيب محمود. وكل من الاستاذين يحاول – بكل ما اوتي من قوة – ان يثبت دعائم اتجاهه الذي اعتنقه وارتضاه . ولا يسع المرء سوى ان يعترف بفضلهما الكبير في تعريف الجمهور المصري – بل والعرب – بهذين الاتجاهين. لكن .. هل ظفرنا بعد ذلك بفلسفة اصيلة نستطيع ان نقول انها فلسفتنا ؟ فالوجودية نستطيع ان نكيفها وفقا لظروفنا ومشاكلنا كما هو الحال في ايطاليا واسبانيا حيث اصبحت الوجودية في كل من البلدين ذات سمات تميزها عن الوجودية الالمانية والوجودية الفرنسية. لقد حاول الدكتور بدوي هذه المحاولة في كتابه « الوجودية والانسانية في الفكر العربي » ، لكنه – للاسف الشديد – توقف عن اكمالها توقفا غير مبرر . اما الوضعية المنطقية فهي الفلسفة التي تحاول ان تقضي على المشكلات الفلسفية باعتبارها مشكلات زائفة ، وتستهدف تحليل القضايا

العلمية ابتغاء توضيحها . لكن هل بلغنا مرحلة الادراك العميق للشمكلات الفلسفية بحيث نعتقد ان في نبذها خلاصا لنا ؟ وهل بلغنا مرحلة من التقدم العلمي والتكنولوجي بحيث نقصر مهمة الفلسفة على تحليل قضايا العلم ؟ لعل هذا هو السبب في ان الدكتور زكي يكاد يكون الوضعي المنطقي الوحيد في العالم العربي كله ، وهذا في الحقيقة تحمس واصرار يثيران الاعجاب .

مطلبنا اذن هو ان تكون لنا فلسفة اصيلة معبرة عن روحنا ، والجوانية جاءت لتحقيق هذا المطلب تحقيقا يتطلب منها الالتزام بالشروط التالية :

ا ـ تقديم ضرب من التفكير جديد او منهج جديد للتفلسف

ب ـ ايجاد شكل محدد خاص يميزها عن غيرها من الاتجاهات الفلسفية .

حـ ـ التعبير عن مبادئها لا بالصور والتشبيهات وانما بالمفاهيم الواضحة ، ذلك ان الفيلسوف ـ كما يقول هيجل ـ عليه ان يجهد نفسه من اجل التعبير عن فكره تعبيرا يستخدم المفاهيم بدلا من الصور.

د ـ النقد بالاتجاهات الاخرى .

واعتقد ان الشرط الاخير بحاجة الى مزيد من التفصيل ، لان الجوانية لم تلتفت اليه حتى الان ، ان النقد ـ في حياتنا الفلسفية الراهنة ـ لفريضة واجبة على كل اتجاه يريد ان يكون اصيلا ، ذلك ان التيارات الفلسفية المستوردة تغمرنا ، والحس النقدي نفتقر اليه، ومن ثم بات من اللازم على الاتجاه الجديد ان يبين لنا اوجه الاختلاف بينه وبين هذه التيارات ، ولن يكون ذلك ميسورا الا بنقدها وتحليلها. فترتنا التي نعيشها تشبه الى حد كبير الفترة التي عاشها الغزالي في القرن الخامس الهجري ، حيث كانت المذاهب السائدة فيه كالبحر المتلاطم الامواج . وكان لزاما عليه ازاء هذا ان ينقد هذه المذاهب لكي يمهد لاتجاهه . والحق انه ظل طوال حياته نقديا لدرجة ان اتجاهه الغالب عليه ـ فيما ارى ، هو النقد . يقول في ((المنقذ من الضلال)) : ((ولم ازل في عنفوان شبابي ـ منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الان ، وقد اناف السن على الخمسين ـ اقتحم لجة هذا البحر (اي بحر المذاهب المختلفة) ، واخوض غمراته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة .. واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ، لاميز بين محق ومبطل .. فلا اغادر متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا فيلسوفا الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولاصوفيا الا واحرص على العثور على سر صوفيته)) . هذا هو ما قام به غزالي القرن الخامس الهجري . وعندي اننا لن نصل الى فلسفة اصيلة ، ما لم نقم اولا بنقد التيارات الفلسفية الموجودة من حولنا ، فلا نغادر وجوديا الا ونجتهد في الاطلاع على غاية وجوديته ومجادلته ، ولا وضعيا منطقيا الا ونقصد الوقوف على كنه وضعيته المنطقية ، ولا ماركسيا الا ونحرص على العثور على سر ماركسيته . اننا لفي حاجة ماسة الى غزالي جديد .. غزالي للقرن العشرين .

اما النقطة الاخيرة فخاصة بتلخيص السيد ب.ع.ع ـ ولست ادري لم هذا التخفي ؟! ـ الذي لم يكن موضوعيا . فبينما يعرض مآخذ السيد خليفة التي استغرقت نصف ساعة في اربعة اعمدة ، نراه يشوه محاضرة الدكتور عثمان التي استغرقت ثلاث ساعات في عامود واحد . ونستطيع ان نتبين هذا التشويه واضحا ان قارنا تلخيصه ـ ان صح ان نسميه تلخيصا ـ بعرض مجلة ((المجلة)) للمحاضرة في عددها مايو سنة ١٩٦٢. هذا فضلا عن ان السيد ب.ع.ع لو عرض محاضرة الدكتور عثمان بامانة لاتاح لقراء ((الاداب)) الفرصة لان يوازنوا بين حجج كل من الدكتور عثمان والسيد خليفه ، ولتسنى لهم قدر اكبر من الاستفادة .

القاهرة　　　　**محمود رجب**

الثورية ومصادرها

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

كنوز الحوار والوصف والسرد والجو الانفعالي التي تختبيء في كل مقطع منها كما في مناظر الجبل اللبناني والتي سوف تخلد في الادب العربي كما خلدت في الادب الفرنسي « حكايات طاحونتي » لالفونس دوديه . ولنكتشف الان بتتبع مولد احاسيس مارون عبود وذوقه وخياله في ذلك الاطار الجبلي المدهش الذي تنتثر فيه القرى والكروم والذرى والاودية والاديرة ذات التاريخ العريق في الاستشهاد في سبيل العقيدة والمغاور والكهوف التي كان يلتجيء اليها على السواء قطاع الطرق واحرار اللبنانيين الهاربين من جور الحكام المستبدين .

ولنصغ اليه يحدثنا عن رفقته وهو بعد صبي يافع لجده يوحنا عبود ، معلمه الاول في احد تنقلاته بين تلك القرى والاديرة ويعيد علينا اقوال هذا الشيخ في وصف استشهاد مار عبدا وكهنة الدير الثلاثمائة ثم لنسمعه وهو يتابع هذا الحديث (١) ذا المغزى الهام في تفسير تكون افكار مارون عبود :

« وحدثني في الطريق عن فرار المطران يوسف اسطفان من وجه المير بشير بعد عامية لحفد ، واختفائه مدة في هذا الدير لانه اتهم بكتابة صك الاتحاد بين الدروز والنصارى على ان لا يدفعوا للامير الا المال المعين .

واقام المطران في الدير منتظرا صفح الامير بشير ، ولما بلغه ان التوسط لم يجد . عزم على الرحيل الى اضاليا مسقط رأس المردة ، فلحق به الشيخ يعقوب سمعان البيطار فادركه عند النهر البارد ، وابلغه صفو خاطر الامير، وارجعه ، ومثل بين يدي ابي سعدى فسقاه القهوة القاضية .

« ولما انهى جدي قصة المطران اخذني من كتفي وهزني بعنف قائلا : كيف يا مارون اما رأيت مطرانا يمشي!

قلت : ولكن يا جدي هذا مطران ... فقاطعني بنبرة قائلا : ما هذا مطران هذا يا جدي ، شهيد مثل مار عبدا» .

ولنتصور أثر هذا الحديث عن المطران ، احد شهداء الحرية وابطال الوحدة الوطنية في لبنان ، في تلك الحقبة الحالكة من التاريخ اللبناني على مخيلة الصبي مارون عندما يجد نفسه وجها لوجه مع بقايا المسرح الطبيعي والانشائي الذي كان يتنقل فيه هذا البطل وكثيرون ممن سبقوه ولحقوه من احرار اللبنانيين في معاركهم ضد الاستبداد .

اليس في ذلك ما يكفي لغرس بذور التعلق بالحرية وبالاحرار والافكار الثورية في نفس الصبي مارون ولدفع طاقات الصراع المقبلة في اتجاه البحث عن قلاع الشر والطغيان يجرب قواه في مقارعتها .

وكيف يسعنا ان نغفل اثر هذه البذور الثورية الاولى التي بذرتها اقوال الجد الشيخ ، وحكايات القرويين عن ابطال منطقتهم ، في فهم الاندفاع الاول الذي حدا بمارون عبود اولا الى ترجمة كتاب الفيلسوف الفرنسي لامنيه « أقوال مؤمن » الذي يمجد فيه مبادىء الثورة الفرنسية انطلاقا من التعاليم المسيحية ثم الى التجند للكشف عن آثار احمد فارس الشدياق ، هذا الفارس الثوري الاخر ، ولاحياء ذكراه بمقالاته الصحفية المتلاحقة في سنوات والتي جمعت في كتابه « صقر لبنان » (١) وقد رأينا في المقطع الذي استقيناه من هذا الكتاب (٢) جانبا من المغزى الثوري الكامن فيه . والرغبة في تصوير بشاعة الاستبداد الاقطاعي ووحشيته من خلال النزاع الذي حمل احمد فارس الشدياق على ان يتجند بعد موت اخيه في السجن البطريركي لمقاومة السلطة الدينية المتحالفة مع السلطة الزمنية المتمثلة بالامير الحاكم .

وجدير بالذكر ان مارون عبود في احد مواضع الكتاب يعطي تفسيرا طبقيا للنزاع حول المقام البطريركي وللعلاقات بين السلطة الدينية والسلطة المدنية . فهو يقول بالنص الحرفي (٣) :

« واخيرا امتدت يد الاقطاعية الى سيامة الاساقفة وانتخاب البطاركة ، ويحصل الامر كذلك حتى زمن

(١) « مار عبدا والمطران » ـ من مجموعة « وجوه وحكايات » ص ١٧٦

(١) منشورات دار المكشوف، بيروت ١٩٥٠

(٢) انظر اعلاه ص ٦٠

(٣) «صقر لبنان» ص ٣٢

البطريرك يوسف اسطفان الذي توفي سنة ١٧٩٣ في هذا العهد الذي يعنينا أمره .

كان يناوىء هذا البطريرك خصم من سلالة اقطاعية هو المطران مخايل الخازن . ولما كان هذا البطريرك من غير الاقطاعيين فقد تعصب له اساقفة من غير الاقطاعيين . فالتجأت رومة الى السلطة المدنية الاقطاعية لتنفذ اوامرها التي تخلع بها البطرك يوسف اسطفان وتقيم مقامه نائبا بطريركيا هو المطران مخايل الخازن المذكور . . »

ويعود مارون عبود في روايته « الامير الاحمر » التي صدرت ، بعد ان جاوز السبعين من عمره الى الخط الثوري الذي انطلق منه في بداية حياته ، عندما عاد الى تفصيل وصفه لفظائع الحياة الاقطاعية في عهد الامير بشير وبطولة الشعب اللبناني في مقاومة طغيانه بقيادة احد الاحرار الذي كان يختبىء في مغاور عين كفاع .

وفي هذا الاثر الروائي ، يحاول مارون عبود ان يجدف ضد التيار السائد في لبنان وان ينسف الصورة الزاهية التي يشاء بعض الكتاب الذين يحبون ان يصنعوا التاريخ اللبناني على هواهم ، او هوى بعض الاتجاهات ان يرسموها للامير بشير الشهابي ولعهده . فيصور هذا الامير على حقيقته جزارا يلغ في الدماء البريئة ويبني مجده على خرائب الشعب .

وبذلك يعطي مارون عبود دليلا جديدا على امانته للحقيقة وان اغضبت من كان رضاهم دربا الى الرفقة في دنيا الجاه والبسطه في العيش .

ولعل أحب شيء كان الى قلب مارون عبود هو اغضاب الاقوياء وارضاء الحقيقة ، وصدم الرأي العام في المتواضع عليه من الاراء .

لقد كان رحمه الله عدوا للدرب السهلة في تكوين الاحكام على الاشياء . وكيف لا يكون كذلك وهو ابن الجبل الوعر ؟ وهل من سبيل الى توخي السهولة عند من اعتاد الا يصل الى غايته الا بعد سلوك كل الدروب بالغا ما بلغت وعورتها وطولها ومشقاتها ؟

ولعل روح التحدي والمعاكسة وغريزة المقارعة اللتين كانتا تغلبان على طباع مارون عبود في حياته وكتابته هما اللتان تفسران موقف السخرية والنقد الذي كان يقفه من بعض فئات رجال الدين .

وبالحقيقة ، فان موقفه من الدين ومن الكهنوت كان يختلف اختلافا كبيرا ، حسب الظروف وخاصة حسب انواع رجال الدين الذين يتحدث عنهم . انه لم يبحث في المطلق من هذه الناحية .

فهو مثلا ، عندما يتحدث عن المظاهر الدينية كما كانت تبدو في اعمال واقوال الاناس الطيبين ، وابناء القرى البسطاء ، كانت كلماته ترق وتحنو وتزخر بالعطف والحب والحنين وان حديثه مثلا عن الاعياد المسيحية في لبنان وعن قديسيها وشهدائها (١) قد اغنى الادب العربي والعالمي بأروع الصفحات عن ذكريات روح الفداء التي يهبها التعلق بالعقيدة الدينية الحقة ورسم أبهى اللوحات عن جو الايمان العميق الذي يضفي على حياة القرى السحر الفائق ويبث المعنى الجمالي البهي والطرافة والحرارة في افعال القرويين واقوالهم

ولا يسع القارىء الا ان ينساق مع عدوى الحنين المهيب الذي يعصف بقلم مارون عبود وبقلبه عندما يتحدث عن رنين الاجراس المتجاوبة في أودية ومغاور عين كفاع وفي ذرى المنطقة المجاورة ليلة عيد الصليب ، وعندما يتحدث عن استشهاد القديسة بربارة ومارعبدا والمطران يوسف اسطفان ، وعندما يروي لنا افعال واحاديث الشدياق اسطفان (٢) وجده يوحنا وعمه أجناديوس الذين يحببهم الينا رغم تشددهم في مراعاة الطقوس الدينية يصور البساطة في العيش والصدق في الايمان والخشية من الله .

وبالمقابل ، تأخذ كلماته طريق القسوة والسخرية عندما يمر قلمه على حديث بعض رجال الدين الذين يستغلون سذاجة الرعية ويتخذون من شعورها الديني الراسخ وسيلة وطريقا للاثراء والامتلاء والشبع (٣)

(١) عيد الصليب في عين كفاع « ووعظة بونا اسطفان » و « مار عبدا والمطران » في مجموعة « احاديث القرية » ـ دار الثقافة بيروت

(٢) « بابا نويل » من مجموعة « احاديث القرية »

(٣) «الارملة مارينا» من مجموعة احاديث القرية

وقد استغل مارون عبود الكثير من المناسبات لفضح البذخ والثراء الذي يرتع فيه بعض رجال الدين بينما الرعيه تشقى وتجهد وتعاني صنوف الحرمان ، ولاظهار ان هذا الوضع بعيد عن التعاليم المسيحية الاصيلة التي تدعو للتقشف والزهد ، هذه التعاليم التي رسخها في ذهن مارون وهو بعد في طراوة الصبى الكهان جداه وعمه ، ووالدته ، ابنة الكاهن وكنة الكاهن ، تارة بالقول الصريح وتارة بالمثل الحي ، بالسيرة الصالحة والعيش المتقشف.

وهذا الموقف الذي يضع مارون عبود دائما في صف القرويين والكهان الاتقياء الفقراء ، البسطاء ، ودائما على مخاصمة الكهنوت القوي والثري مثلما كان في نفرة من الحاكم المستبد ، يتفق مع الحقيقة التي تكمن في جوهر طبيعته وفي قاع كتاباته : حقيقة الكائن التائق ابدا للصراع في سبيل احقاق العدل والثائر المنساق خلف ما يشبه روح الفروسية في العصور القديمة الى مقارعة الاقوياء وحماية الضعفاء .

كانت صواعق غضبه او سخريته تزداد شدة ولذعا ومضاء ، كلما ازدادت الصعوبة التي يواجهها ، اي كلما ارتفع قدر الخصم موضوع هجماته في السلم الاجتماعي.

ولا عجب ان رأينا مارون عبود مشدودا باواصر الصداقة والمحبة او الاعجاب الى كتاب العربية والفرنجية ، رواد النضال في سبيل الحرية ، مثل لامنيه الذي ترجم كتابه « اقوال مؤمن » للعربية ، ومثل فولتير ورينان اللذين كان كثيرا ما يستشهد باقوالهما ، واحمد فارس الشدياق الذي خصص له المقالات الطويلة التي جمعها في كتاب « صقر لبنان » وفرح انطون والكواكبي واديب اسحق ومحمد عبده والشميل ومصطفى كامل وقاسم امين الذين افرد لادبهم النضالي فصلا كاملا من كتابه « رواد النهضة الحديثة » (١) وجبران خليل جبران (٢) وامين الريحاني وغيرهم .

اما الجانب الثوري الثالث من حياة مارون عبود وهو الذي يلقي بعض الضوء على اتجاهاته واندفاعاته في الميدان الادبي الصرف ، فيضيق بنا المجال لبحثه الان . ونأمل ان نتمكن من معالجته في بحث اخر .

علي سعد

---

(١) من مطبوعات « دار العلم للملايين » ـ بيروت ١٩٥٢

(٢) انظر اغنية الحرية التي وردت في رواية جبران « خليل الكافر » كيف يصدر بها مارون كتابه « صقر لبنان »

تتمة ابك يا بلدي الحبيب

التعبير عن الخوف

« لاتشك ابدا في ان مايهيمن على هذا البلد هو الخوف . ماذا يصنع الناس حين يرون المئات والمئات يخالفون القانون ؟ كيف يمكن تذوق المناظر الجميلة ، والاحساس بسبعين سنة من الحياة ، والشمس التي تتلألأ ، عندما يكون قلب الانسان مليئا بالرعب ؟ كيف يكون في وسع الانسان ان يسير في ظلال الاشجار ، عندما يغدو جمالها تهديدا للانسان؟ أي عاشقين يقدمان على التمدد تحت النجوم عندما يحف بهما الخطر بسبب من انفرادهما ؟ ٩٨ »

ابشالوم بعد الجريمة - في السجن -

« وامتلأت العينان من جديد بالدمع . من يدري ما اذا كان يبكي للصبية التي هجرها ؟ من يدري ما اذا كان يبكي بسبب وعد اخلفه ؟ من يدري ما اذا كان يبكي على نفسه ، في صورة شخص ثان كان يمكن ان يعمل من اجل المرأة، ويؤدي الضرائب ، ويقتصد الدراهم ، ويحترم الشرائع ، ويحب أبناءه . شخص اخر مغلوب ابدا . أم تراه لايبكي الا لنفسه عسى ان يترك وشأنه ، عسى ان يترك وحده ، وان يتجنب هذا السيل من الاسئلة التي لاترحم . لماذا . لماذا . لماذا . مع انه لايعرف لماذا . انهم لايحدثونه ، لايمزحون معه ، لايجلسون اليه بكل بساطة ويدعونه وشأنه ، لكنهم يسألونه ، ويسألونه ويسألونه . لماذا . لماذا . لماذا ... أبوه ، الشاب الابيض ، موظفو السجن ، الشرطة ، القضاة ، لماذا . لماذا . لماذا . - ١٣٠ - »

من كتابات جارفس - من اجل السود -

« كان مشروعا انتهدم نظاما قبليا يعيق تطور البلد . وكان مشروعا الاعتقاد بان الامر لابد منه . اما غير المشروع ، فهو ان نرى هذا النظام يتهدم ، دون ان نحل محله شيئا على الاطلاق ، او ان نحل محله أشياء تافهة ، تتلف شعبا كاملا ماديا ومعنويا . »

« كان نظام القبيلة العريق ، نظاما اخلاقيا ، رغم قسوته وهمجيته ، رغم خرافاته وايمانه بالسحر ، وها ان الوطنيين اليوم يغدون مجرمين، وموسسات وسكارى ، لا لان ذلك من طبيعتهم . بل لان مبادئهم في النظام والتقاليد والعهود قد تهدمت ، تهدمت بسبب اغارة حضارتنا عليها ، ولذا فان واجب حضارتنا الرئيسي اقامة منهج اخر للنظام والتقاليد والمواثيق . ١٩١ »

اعترف « بحق ، ليس من قبيل التزويق » بقصور المقال عن الكتاب . وانه كان بالامكان ان يكتب بطريقة افضل ، لولا انني اضطررت للاسراع ، وانني لازلت مغمورا بجو الكتاب ... الامر الذي جعل العاطفة ، تحد من سلطة العقل .

دمشق **محمد حيدر**

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجمهورية العربية المتحدة

الثورة الثقافية والتخطيط

لمراسل الاداب الخاص

اذا سألت اديبا شابا : ما هي المشكلة الاساسية التي تعاني منها لقال لك : ان مشكلتي هي النشر.. لا احد يهتم بي او بانتاجي ، واذا سألت اديبا كبيرا ما هي مشكلتك الاساسية التي تعاني منها لقال لك : مشكلة النشر ايضا . ذلك لان النشر يمثل ازمة كبيرة في حياتنا الادبية. ولكن الغريب انك اذا القيت نظرة عابرة على الارصفة كل يوم لوجدت الكتب الجديدة تظهر بشكل غزير كانها سيول لا تنتهي.

فما هو سر هذه الازمة ؟ وما هو سر هذا التناقض ؟ ان المشكلة الحقيقية هي ان دور النشر الكثيرة في بلادنا لا تخضع لتخطيط ثقافي دقيق بحيث تكون صورة واضحة لحياتنا الادبية ، بعد دراسة دقيقة ومعرفة واضحة للهدف . واذا تسامحنا في هذا الامر مع دور النشر التجارية ، فهل يمكن ان نتسامح مع المؤسسات التي تحمل طابعا رسميا او شبه رسمي ، والتي قامت اساسا لخدمة الثقافة والحياة الادبية ؟.. احب ان اناقش هنا مؤسسة عامة تقوم بمجهود ضخم في الانتاج الادبي، وكان هذا المجهود كفيلا بحل معظم جوانب ازمة الانتاج الادبي لو انه خضع لتخطيط واضح عميق .

هذه المؤسسة هي الدار القومية للنشر بعد ان اصبحت مؤسسة عامة تابعة للدولة ، وبدأت تلعب دورا خطيرا في حياتنا الفكرية والادبية، فهي تصدر كتابا كل ست ساعات أي اربعة كتب في اليوم الواحد .

ومسؤولية هذه المؤسسة اكبر من غيرها ، لانها ليست مؤسسة تجارية تهدف ـ اولا ـ لتحقيق الربح بل هي مؤسسة عامة تهدف قبل كل شيء الى خدمة الثقافة وانتشارها على نطاق شعبي واسع .

ولذلك ينبغي ان نناقش انتاج هذه المؤسسة الثقافية مناقشة صريحة واضحة ، فمثل هذه المؤسسة بانتاجها الضخم تعتبر جامعة عظيمة للثقافة الشعبية ، وانتشار الثقافة بهذه الطريقة هو « فتح لمخزن الذخيرة البشري » . كما يقول احد المفكرين ـ على اوسع نطاق ،فالكتب هي القوة الحية التي تفجر كل اثار المجتمع القديم ، وتنسف جذور التخلف الروحي والمادي في حياتنا ، خاصة اذا كانت هذه الكتب خاضعة لاختيار سليم دقيق يتناسب مع روح حياتنا الجديدة ومجتمعنا الجديد .

وما دامت هذه المؤسسة قد وضعت لنفسها هدفا عظيما هو المساهمة في تحقيق الثورة الثقافية ، فان من الواجب ان يصدر انتاج المؤسسة على احسن صورة ، والا فان هذا الانتاج الضخم لن يكون نافعا بل سيكون على العكس ضارا .

والملاحظة العامة على انتاج هذه المؤسسة انه غير خاضع لتخطيط دقيق بحيث يكون تعبيرا عن احتياجات مجتمعنا ومطالبه .

كما ان هذا الانتاج من ناحية اخرى تنقصه الرقابة الفكرية الدقيقة خاصة في ميدان الترجمة .

فالمؤسسة مثلا تصدر سلسلة اسمها « روايات عالمية » وتقوم هذه السلسلة علي مبدأين اساسيين كلاهما لايتفق مع روح الثورة الثقافية، والمبدأ الاول هو اختصار النص الادبي الذي تقدمه اختصارا اضحا . وقد نغفر هذا الموقف من مؤسسة تجارية تسعى الى الكسب السريع العاجل ، فتستغل اسماء الادباء العالميين الكبار لاجتذاب القراء والتغرير بهم وخداعهم دون الحرص على النص الادبي وقيمته الفنية والفكرية . ولكن ماهي حجة مؤسسة ثقافية عامة تهدف الى خدمة الثقافة وخدمة الشعب .. ولا يشك احد في ان المؤسسة تحرص على هذا الهدف ؟

لقد قال الفنان الفرنسي الكبير بول فاليري « ان الترجمة خيانة » أي ان مجرد نقل عمل فني من لغته الاصلية الى لغة اخرى هو خيانة للنص الفني وخيانة لصاحبه ،فماذا يمكن ان نسمي الترجمة اذا كانت ناقصة مشوهة ؟.. لاشك انه لو كان « فاليري » حيا وسألناه هذا السؤال لاطلق على هذا النوع من الترجمة أسماء قاسية عنيفة .. أقسى واعنف بكثير من كلة « الخيانة » .

انها مسألة خطيرة الى ابعد حد ، ان نستمر هذه السلسلة في الصدور بهذه الترجمات المشوهة ، فهي لاتخلق في النهاية سوى عقليات مشوهة ، وفكرة عامة مشوهة عن الادب العالمي ، وهي امور يجب ان نحاربها حربا لاتهدأ ، فمثل هذه الثقافات والافكار المشوهة لايجوز ان تعيش في مجتمعنا الجديد ، لانها نبات طبيعي لمجتمعنا القديم ، بل هي ثمرة لمثل هذا المجتمع ... اما الان فلا يمكن ان يكون لها مبرر على الاطلاق ..

والمبدأ الثاني الذي تقوم على اساسه روايات عالمية هو مبدأ « التسلية » لا مبدأ « التثقيف » ولذلك تتجه السلسلة الى تقديم روايات سطحية مثيرة ،مثل رواية « عقد الملكة » التي تتحدث عن انحلال ماري انطوانيت ، وكثير من الروايات الاخرى تتضمن الوانا من قصص المغامرات والجرائم . ولعل مما يوضح لون هذه السلسلة انها تعيد نشر « روايات الجيب » القديمة ، ولا اعتقد ان سلسلة نالت من السمعة الثقافية السيئة في بلادنا مثل « روايات الجيب » .. فهل يجوز ان تعود هذه السلسلة الجديدة لترث تلك السمعة القديمة السيئة ؟ .. على ان هذه السمعة في الحقيقة ليست سمعة ظالمة ، وانما سمعة مبنية على وقائع محددة ، فروايات الجيب مثلا ، هي « الباسبور » الذي دخل به « ارسين لوبين » بلادنا .

ان الموقف الصحيح هو ان تتغير سلسلة روايات عالمية من اساسها، وان تجعل هدفها هو ترجمة الاثار الادبية الكاملة لاعلام الادب الانساني ، فان ذلك وحده هو الذي يخدم ثقافة المواطنين ، ويرفع مستواهم الروحي والعقلي الى المستوى العالمي ، فمثل هذا الانتاج الادبي الرفيع قد اصبح جزءا من ثقافة الانسان في جميع انحاء العالم المتحضر .

تستطيع هذه السلسلة مثلا ، ان تقدم الاعمال الادبية الرئيسية لبلزاك ، وروايات هذا الكاتب الفرنسي تعتبر على غاية من الاهمية من حيث قيمتها الفنية ومن حيث قيمتها في النقد الاجتماعي ، وهناك ايضا فلوبير وفيكتور هيجو وديكنز من كتاب القرن الماضي الذين يتميزون بالقوة والاصالة في الميدان الادبي ، ويتميزون في نفس الوقت بالاحساس الاجتماعي القوي ، لانهم كانوا يعبرون عن مشاكل المجتمع الانساني تعبيرا دقيقا عميقا يتناسب مع مواهبهم العظيمة ، وفي الحدود التي كان يمكن الحديث فيها عن هذه المشاكل في ذلك الوقت .

وفي القرن الحالي ظهر ادباء عظماء كتبوا القصة فلماذا لاتقوم سلسلة « روايات عالمية » بترجمة إنتاجهم ؟ لماذا لاتترجم على سبيل

المثال انتاج هـ.ج ويلز الذي كان يكتب القصة ليثير طموح الانسان الى اكتشاف العالم ، وليزرع فيه ايمانا عميقا بالعلم ، هذا الايمان الذي نحن في اشد الحاجة اليه لانه طريقنا الصحيح الى التقدم خاصة في هـذه المرحلة التي نسعى فيها الى تجديد مجتمعنا حتى يصبح مجتمعنا عصريا قويا .

امثال هؤلاء الادباء من كتاب القصة العالمية هم الذين يجب ان نترجم لهم ونعرفهم ، لانهم اقرب الى حياتنا واحتياجاتنا من الذين يكتبون بقصد التسلية العابرة .

وليس من المعقول بحال من الاحوال ان تكون الاشتراكية هي فلسفتنا واتجاهنا العام ، ثم يكون الغذاء الروحي للقارىء هو روايات تحدثه عن مغامرات ماري انطوانيت ، او عن الشاب الفقير الذي تحول فجأة الى مليونير .

فبالاضافة الى الضعف الفني الواضح في هذه النماذج الادبية فاننا لسنا بحاجة ابدا الى هذه النماذج الانسانية في مجتمع انتهى الى غير رجعة من اصحاب الملايين ، لان المهم في مجتمعنا الجديد هو اصحاب القلوب الواعية والعقول الراقية وليس اصحاب الملايين .

ان سلسلة روايات عالمية يجب ان تغير الاساس الذي تقوم عليه ، لان الاساس الراهن ضار الى ابعد حد ، ولن يخدم ثقافتنا في قليل او كثير بل على العكس انه يضر اكثر مما ينفع .

ومن بين ماتصدره الدار القومية للنشر ايضا ترجمات متفرقة لاتخضع لاختيار معقول واذكر مثلا كتاب الابطال للمفكر الانجليزي الكبير توماس كارلايل وهو كتاب من أهم الاثار الكلاسيكية التي يجب ان تكون تحت يد القارىء العربي ليعرفها ويناقشها . وقد اصدرت الدار القومية ترجمة قديمة لهذا الكتاب قدمها الاستاذ محمد السباعي منذ اربعين سنة ، ولهذا جاءت الترجمة في بعض اجزائها كثيرة التصرف في النص، كثيرة الاضافة اليه ، وهذا الاسلوب يخرج تماما على أسلوب كارلايل ، ويبتعد عن روح الاصل ، بحيث يعطينا صورة للمترجم واسلوبه اكثر مما يعطينا صورة من اسلوب كارلايل .

ويكفينا ان نعرف ان السباعي قد ادخل الكثير من ابيات الشعر العربي في الترجمة لندرك انه بذلك قد ابتعد عن روح النص ، فاستخدام الشعر العربي يمكن ان يكون طبيعيا فيما يكتبه الكاتب لا فيما يترجمه عن كاتب غربي .

واكثر من هذا فان الترجمة نفسها في بعض الاجزاء تبدو صعبة الفهم ، مغلقة ، لانها مكتوبة بلغة قديمة جدا بحيث تحتاج هي نفسها الى ترجمة .

وهذا نموذج من الترجمة استخدم فيه المترجم كثيرا من الالفاظ القديمة التي تحتاج الان الى الشرح والتفسير ، انه يترجم رأي كارلايل في فصل البطل في « صورة ملك » فيقول :

« ان الغاية القصوى للمجتمع الانساني هي الاهتداء الى اعقل الرجال الذين هم ايضا اكرمهم وأبرهم وأرحمهم .. أقول الغاية القصوى والله يعلم ان الغايات تبلغ بالامل ولا تنال بالفعل ، وللاماني جياد سابحات تسبق وفد الرياح يرسلها الفكر في مضمار الوهم فتطير باجنحة الرجاء الى كل غاية ابعد منالا من الثريا ، فاذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل في ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والافات ، وسقطت الجياد اثناء المضمار طلى أنضاء ، حسرى الجهد والاعياء ، دامية السنابك من الكفاء ، مهزولة الاعطاف من الاين والوجس ، وكذلك تبقى الغايات متناطمة المنى ، سخرة الواقع كالخيال في المرآة لبيبج العين ما يمنع الكف :

او كالسماء وكـل مازينـت بـه
وكبعدها وكقربها مـن لاق »

مثل هذا الاسلوب في الترجمة لايمكن ان يفيد احدا ، ولا احد يلوم السباعي فأسلوبه كان احد الاساليب المفضلة في عصره ، وطريقة شائعة من طرق التعبير في تلك الايام ، بل اننا نجد اجزاء اخرى من الترجمة رصينة قوية واضحة ، والحل بالطبع هو ان مثل هذا الكتاب كان بحاجة الى مراجعة دقيقة قبل نشره لتبسيط هذه الاجزاء الغامضة واعادة ترجمتها ، ولا اظن ان هذا يعتبر اعتداء على تراث السباعي ، بل هو احترام لاحتياجات القارىء ، وللمستوى العصري من التعبير العربي الذي وصلنا اليه اليوم .

ثم ماهو موقف الدار القومية من خياتنا الادبية ؟ ... كان على هذه المؤسسة الهامة ان تدرس واقعنا الادبي دراسة كاملة قبل ان تبدأ في العمل ، وبذلك تستطيع ان تعرف اوجه النقص واوجه الكمال ، وتعرف تماما ماذا ينبغي ان تقدمه للحياة الادبية .

هناك مثلا مشكلة الجيل الجديد الذي يتخبط في البحث عن وسيلة لنشر انتاجه ، ألم يكن في امكان الدار القومية ان تأخذ على عاتقها نشر الجيد والاصيل من هذا الانتاج ، بعد ان تؤلف لجنة من ادبائنا المعروفين لقراءته ومعرفة قيمته ؟.. كان باستطاعة الدار ، ومـا زال باستطاعتها بل من واجبها ، ان تنشر سلسلة بعنوان « الكتاب الاول » او « من ادب الشباب » او أي اسم اخر يحمل هذا المعنى ، على ان تقتصر هذه السلسلة على نشر الادب الجديد في أي فرع من الفروع ، سواء كان هذا الجديد قصة قصيرة او قصة طويلة . او شعرا فصيحا او شعرا شعبيا او دراسة ادبية ، على ان تحرص الدار حرصا كاملا على نشر الانتاج الجيد الاصيل فقط ... بهذا تساهم الدار في ايجاد حل جوهري لازمة الجيل الجديد ، وتضرب بذلك مثلا واضحا لاسلوب جديد في النشر يتلاءم مع الموقف الاشتراكي وينبع منه .

ان هذا الموقف يفتح الطريق امام المواهب الجديدة ، ويُحررها من الضياع الذي تعانيه ، والذي لم يعد له مبرر لان مجتمعنا يحتاج الى المواهب كما يحتاج الى كل المواد الخام الاصيلة ، ويعتمد على هـذه المواهب كما يعتمد على تلك المواد في بناء صورته الجديدة .

بل ان بعض الكتاب الكبار انفسهم يعانون من عدم وجود وسيلة سهلة ميسورة لنشر انتاجهم ، ولذلك يجب ان تفتح الدار القومية صدرها لنشر هذا الانتاج حتى يصل الى اوسع دائرة من القراء ، وحتى يتحرر ادبنا من الجمود الذي يعانيه في هذه الايام الى حد ما ، فتتفجر بذلك الوان جديدة من الانتاج الخصب .

هناك مشروع اخر على غاية من الاهمية هو اعادة نشر انتاج ادبائنا ومفكرينا من الجيل السابق ، وقد بدأت الدار القومية في هذا المشروع ثم توقفت ، وذلك عندما اصدرت كتب المازني ... لماذا لاتنشر الدار كتب قاسم امين وهي كتب يصعب على القارىء الجديد ان يعثر عليها رغم اهميتها وقيمتها وروحها العصرية ، بل لماذا لايعاد طبع كتب توفيق الحكيم والعقاد طه حسين وسليم حسن وساطع الحصري حتى تكون قريبة الى يد القارىء العام ؟

وهناك ايضا سلسلة « اخترنا لك » وهي سلسلة ناجحة ودقيقة، ولكنها يجب ان تتخلص نهائيا من الاختصار فهي كثيرا ماتقدم كتبا مختصرة او فصولا متفرقة من كتاب واحد . كما يجب أن يظهر اسم المترجم على غلاف الكتاب حتى يشعر بالمسؤولية الادبية وحتى يمكن محاسبته على هذا الاساس .

ان مثل هذه المؤسسة الثقافية تعتبر جامعة شعبية عظيمة ، يمكنها ان تجعل من الثقافة شيئا يسيرا في متناول ابناء الشعب ، ولكن هذه الجامعة لن تؤدي دورها الحقيقي دون ان تتخلص نهائيا من المنهج الذي تسير عليه ، وهو منهج نشر أي كتاب هكذا بدون تخطيط او دراسة، وهذا المنهج نتيجته الوحيدة هو ان يصيب مرة فيقدم كتابا جيدا ،ويخطىء مرة فيقدم كتابا رديئا . ولو فرضنا احسن الفروض وهي ان الدار تقدم كل يوم اربعة كتب من بينها كتاب واحد رديء لكانت النتيجة خطيرة . وهي نتيجة يمكن تجنبها تماما ، بل ويجب تجنبها تماما بالتخطيط الثقافي الدقيق ، وتكوين لجان مسؤولة للاشراف على هذا الانتاج الغزير الذي يملأ السوق ... وبذلك وحده تساهم الدار في حل الازمة الادبية ، ودفع الثقافة الى اوسع دائرة شعبية بشكل مثمر ومفيد يتلاءم مع ثورتنا الثقافية الشاملة .

ر . ن

المسرح القومي في ســوريا

لمراسل « الاداب » الخاص

المسرح من أهم المؤسسات الثقافية التي تعتمدها الامم الناهضة لرفع مستوى الجمهور ، ولرواج الفن المحلي والعالمي وتقديم خبرات بشرية عن طريق الادب المسرحي . وهو الحافظ على تقاليد الشعب الحياتية والفكرية ، كما أنه يستوعب تطور المجتمع والحلول التي يقدمها لمشكلاته المادية والروحية . فهو عامل محافظة وتطوير بقدر ما هو عامل انتقاد ودفع وثورة . وهو أداة تقارب بين الشعوب والامم في مختلف عصور الحياة الانسانية .

ولقد كان في سورية فرق مسرحية موقتة أو دائمة ، يؤلفها هواة أو محترفون ، ولكن لم يكن لدينا مسرح . كانت الفرق تستأجر دور السينما حينا والمسارح الشعبية حينا آخر ، أو تحول النوادي الثقافية والاجتماعية الى مسارح موقتة تقدم على أخشابها بعض الاعمال التي تحمل طابعا مسرحيا . ومع ذلك فقد كان ذلك النشاط مائعا متفرقا لا يضمه اطار ولا يثبت دعامته أساس . الا أن الوضع المسرحي قد بدأ يتغير بالتدريج منذ عام ١٩٥٨ حين أنشئت وزارة الثقافة والارشاد القومي وضمت في ملاكها مديرية للمسارح . فأعطت العمل المسرحي صفة رسمية حالت بينه وبين هجمات الرجعيين من جهة ، وأصبحت الوزارة مسؤولة عن ازدهار الحركة المسرحية من جهة أخرى . وقد تأسس المسرح القومي في مطلع عام ١٩٦٠ وأحدثت فيه ثلاث شعب :

١ – المسرح الكلاسيكي ويدير فرقته الاستاذ نهاد قلعي وفيه من الممثلين الاوانس والسادة : فهمي البكار وموسى العكرماوي ، عدنان عجلوني ، يعقوب أبو غزاله ، ياسر أبو الجبين ، عمر قنوع ، رفيق السبيعي وثناء دبسي وثراء دبسي وفطمة الزين وهيلدا زخم ونجوى صدقي .... الخ . ومعظمهم قام بدور البطولة في عدد من المسرحيات .

٢ – المسرح الشعبي ومديره الاستاذ محمد علي عبده . ٣ – مسرح العرائس ومديره الاستاذ عبد اللطيف فتحي .

وقدم المسرح الكلاسيكي منذ تأسيسه الى الآن ست روايات . وفي شهر أيار من هذا العام دفعت وزارة الثقافة بحركة المسرح خطوة كبيرة حين أسست مسرحا لها على نفقتها وأطلقت عليه اسم مسرح (أبو خليل القباني) تكريما لذكرى رائد من كبار رواد المسرح في سوريا والبلاد العربية قاطبة في القرن التاسع عشر . وقدمت فرقة المسرح القومي حتى الآن ثلاثة مسرحيات هي « الاشباح » و« الفخ » و « البورجوازي النبيل » . والجديد في التطور المسرحي هنا أننا لاول مرة في تاريخ سورية نشاهد فرقة منظمة تستطيع أن تقدم موسما مسرحيا ـ يستمر شهرين متواصلين وتعرض فيه ست مسرحيات . ومن الملائم هنا أن نستعرض المسرحية الاولى التي افتتح بها المسرح وهي : (الاشباح) من تأليف هنريك ابسن واخراج هاني ابراهيم صنوبر : تتلخص أحداث المسرحية في أن مسز الفنج تريد أن تبني مؤسسة خيرية تخلد ذكرى زوجها الراحل . وتضع المؤسسة تحت اشراف الراعي ماندرز . وفي هذه الاثناء يأتي من باريس ابنها الفنان أوزفالد ويتناقش مع الراعي حول موضوع الحياة الطبيعية الخارجة عن اشراف الكنيسة على العلاقات بين الزوجين ويعلن الشاب احترامه لهذه الحياة وما فيها من بهجة وسعادة فيلقي الراعي ماندرز مسؤولية تحرر الشاب على عاتق أمه منذ

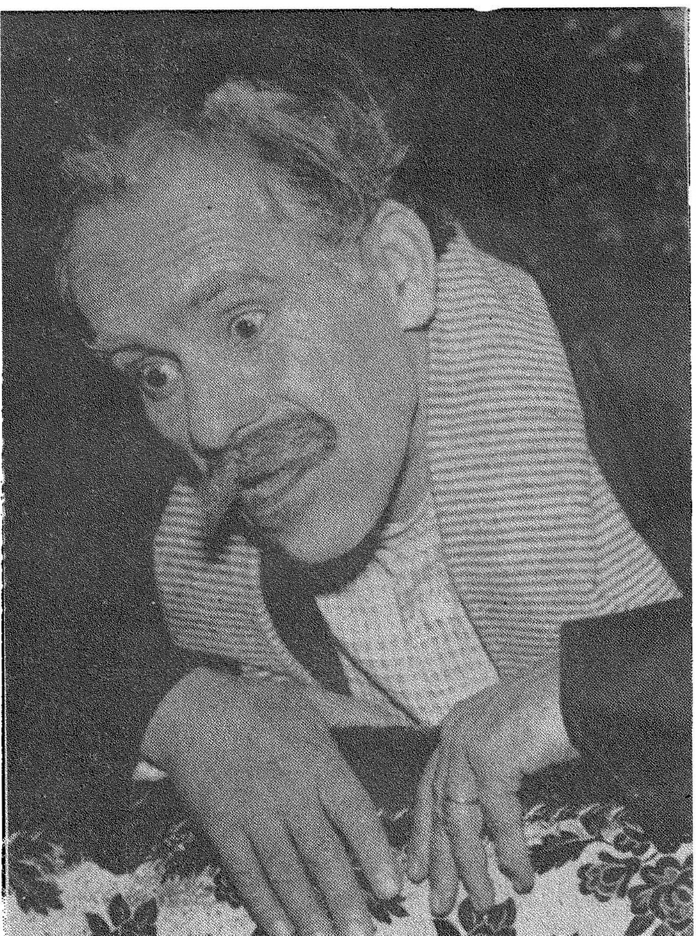


مشهد من الفصل الثالث من مسرحية « المفتش العام » : نهاد قلعي ـ عدنان عجلوني ـ هيلدا زخم ـ ثراء دبسي

فتكشف له حقيقة أبيه وتهدم مثله الاعلى وقلبه العليل بوقت واحد حين تكشف له أن ريجينا أخته من أبيه . وتقوم بدور الام التعيسة حين تسبب احراق المؤسسة انتقاما من زوجها وتتهم بالعملية غيرها لكنه تواجه عقاب القدر في انهيار ابنها تجاه وطأة المرض .

ان فطمة الزين - بشهادة جميع النقاد - هي الممثلة الاولى في سوريا . وقد حاولت جهدها أن تعطي مختلف الانفعالات التي يتطلبها دورها في مسز الفنج وقد نجحت في ابراز الحقد . أما دور الامومة فقد اعتمدت على صوتها أكثر من اللزوم وان ظلت تعبيرات وجهها وحركاتها في مستوى مقبول .. ان الدور كبير وقد جهدت فاطمة في الوصول اليه ولم تفشل في ذلك أبدا . وقد استعانت بموهبتها وذكائها أكثر مما أعانتها خبرتها .

وقام رفيق السبيعي بدور الراعي ماندرز . ان رفيق ممثل محترف اشتغل في المسرح قبل أن يظهر المسرح القومي بسنوات . ولا أبالغ اذا قلت ان رفيق السبيعي يزيد في الدور الذي يمثله . انه يضفي عليه من شخصيته وتجربته المسرحية والخاصة . وقد استطاع أن يوحي بالشعر الحزين في موقف الراعي الطيب الذي تفاجئه الدنيا بأكثر مما يحتمل ولعل المشاهد التي قدمها بالاشتراك مع فطمة الزين تعد قفزات رائعة في تاريخ المسرح السوري . ان رفيق كسب لقضية المسرح فهو فنان يجمع بين الخبرة والموهبة ويستطيع أن يترجم النص الذي يمثله الى انفعالات وتعابير تسمو بالعمل المسرحي الى آفاق جميلة رائعة . وقد تعاون مع موسى العكرماوي تعاونا جبارا أعطى الموقف الذي يقصده المؤلف من التعارض الظاهري والتطابق العميق في موقف رجل الدين ورجل الدنيا . وقد مثل موسى العكرماوي دور الافاق أنجستراند والد ريجينا تمثيلا يتطابق مع شهرته الماضية كممثل محترف يجيد اظهار الجشع الكامن في نفس الانسان . وقد مثلت ثناء دبسي ريجينا ، وهو دور يقتضي القيام بأعمال الخادم المتكبرة لانها حصلت من أوزفالد على



موسى العكرماوي (انجستراند) في مسرحية ((الاشباح))

★ ★

الفنج ويتهمها بانها تخلت عن واجب أمومتها هذه المرة كما تخلت في المرة السابقة عن واجب الزوجية حين هربت من زوجها الى الراعي ، وينكشف الوضع على أبشع ما يكون اذ يظهر أن الفنج الراحل رجل متفسخ سكير وزير نساء وقد اعتدى على كل ما طالته يداه حتى على الخادم التي كانت تعمل معه وأولدها الخادم الحالية ريجينا ، لكن الاحداث تكشف عن أن أوزفالد يحب ريجينا وهي في الواقع أخته لابيه وان كانت أمها قد تزوجت من أفاق يدعى أنجستراند . ولا تتردد مسز الفنج في اخبار ابنها بالحقيقة فينهار الشاب أوزفالد ويخبر أمه بأنه مصاب بالزهري الوراثي .. وفي هذه الاثناء تحترق المؤسسة كما تنهار مكانة الاب في نفس ابنه أوزفالد وحين يكاد ينتهي النقاش تشتعل المؤسسة ويأتي عليها الحريق ويعود الراعي ماندرز منهكا مفكرا بمسؤولية احتراق البناء لانه رفض أن يؤمن عليه . وكما رضي انجستراند أن يستر فضيحة الخادم ويتزوجها كذلك يرضى أن يستر أخطاء الراعي ويعرض عليه أن يتحمل مسؤولية الحريق . وتنتهي المسرحية باشتداد وطأة المرض على أوزفالد بعد رحيل ريجينا وبقاء مسز الفنج وحيدة عزلاء مع ابنها المريض .

قامت فطمة الزين بدور البطولة عن الام مسز الفنج وهو دور معقد يقتضي اظهار القناع الاجتماعي الذي عاشت به في البداية من حيث تكريم زوجها مع الاغراب ومع ابنها اذ أنها صورة له مثلا أعلى . كما يقتضي اظهار الحقد المكبوت في نفس امرأة يخونها زوجها وتعترف للرجل الذي هربت اليه مع أنه رجل دين تقي . وهو أخيرا دور الام المتلهفة التي تريد أن تنقذ ابنها من زواجه بحبيبته مع مراعاة شعوره لانه مريض فتحتج في البداية بأن ريجينا خادم ثم تنهار تحت وطأة الضغط



ثناء دبسي (ريجينا) في مسرحية ((الاشباح))

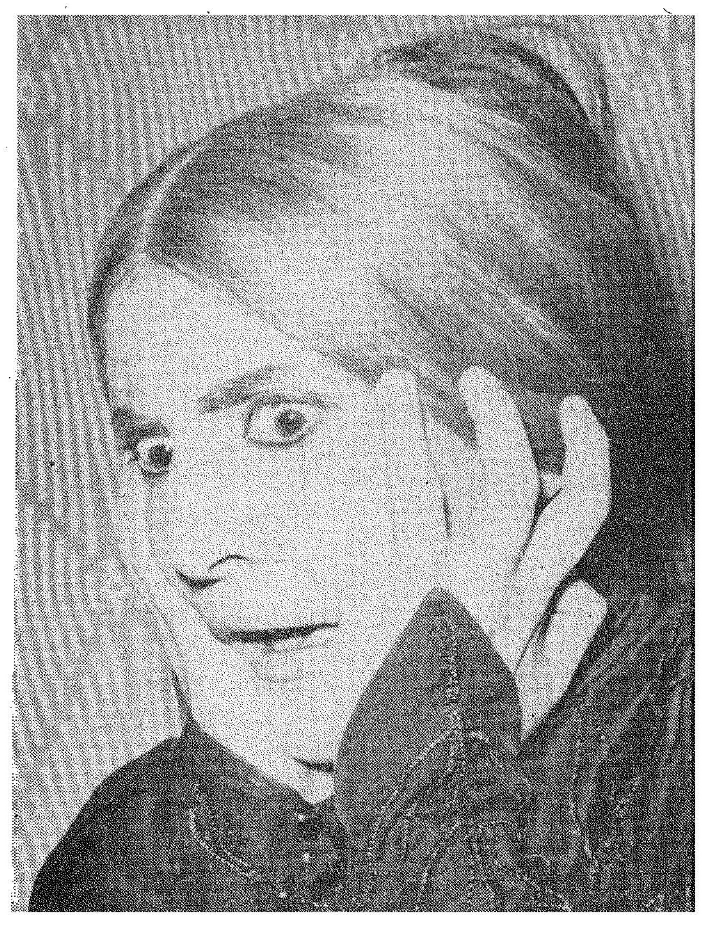
وعد بالزواج فهي خادم في الحاضر وسيدة في المستقبل . وكان أداؤها لهذا الدور المربك اداء يقوم على الفهم التام والانصياع لطلبات المخرج والتعاون مع ابطال المسرحية . واذا كان هذا الدور لا يبرز مواهب ثناء في المسرح فان دورها في مسرحية (رجل القدر) يوفيها حقها ويعطيها المجال الواسع لتنطلق كوجه أصيل يدعم المسرح في سوريا . ولقد أتيح لي أن أشاهد بعض المشاهد وهي في طور التجربة فأدهشتني مقدرتها على تمثل حوار برناردشو الصعب ونفاذها الى أغراضه الخفية . ولا ريب في أن هذه المسرحية مع مسرحية الاشباح هي خير ما قدمه المسرح القومي . أما فهمي البكار فقد قام بدور أوزفالد العاطفي المريض الثائر ولولا أنه أغرق في العاطفية لكان مثلا مجيدا وان كان خطؤه هذا مبررا بأنه يقوم في هذا الدور بمجابهة الجمهور لاول مرة .

• وقد عرضت على مسرح القباني مسرحية بوليسية من تأليف روبرت توماس واخراج هاني صنوبر تحت اسم « الفخ » كما قام نهاد قلعي باخراج نهاد مسرحية (البورجوازي النبيل) لموليير ، ويمكن أن نحكم بوسطية المسرحية الاولى . أما مسرحية موليير فان الاستاذ نهاد القلعي نحا باخراجها منحى شعبيا لا يقوم على التقيد بالنص بقدر ما يعتمد على استغلال المواقف الهزلية فيه .

ولا بد بعد هذا الحديث عن المسرحية أن نتحدث عن المخرج الاستاذ هاني ابراهيم صنوبر . ونود في البداية أن نسجل عنه أنه ليس مخرجا هاويا ، بل هو مجاز من كلية شيكاغو للفنون وعليه اعتمد المسرح القومي في اخراج معظم مسرحياته ، بل ان الحركة المسرحية في سوريا مدينة له باتجاهها نحو توسيع القاعدة الجماهيرية لرواد المسرح بعد أن اقتصرت جهود رفيق الصبان على عرض مسرحيات كلاسيكية ذات قيمة أدبية عالية لكنها لا تجذب اليها سوى جمهور قليل بين المثقف والمتحذلق . أما هاني صنوبر فقد اتجه بقوة وفهم نحو المسرح الذي يعالج مشكلات قريبة من حياة المجتمع في فترة تطوره الراهنة .

وقدم على التوالي : أبطال بلدنا ، شيترا ، المفتش العام ، الاشباح ، رجل في الفخ ، رجل القدر ، مروحة الليدي وندرمير . وقد رضي في العام الماضي أن يبدأ من الصفر مستعينا بجرأته وقدرته فدخل الحرم الجامعي وألف فرقة مسرحية قدمت بنجاح فني وجماهيري لم يسبق له نظير كلا من بيت الدمية لابسن ودنيا المصالح من تأليف خنسنتو بنفنتي . ومن المؤسف بل من المحزن أن تتخلى الجامعة عن تشجيع الحركة المسرحية ولا تجدد العهد معه على تأثيل دعائم المسرح الجامعي الذي كان بامكانه اذا نما أن يصندر الى فرقة المسرح القومي شبانا مثقفين اجتازوا مرحلة التمرين واتجهوا في طريق الاحتراف ، وهم بذلك يضمنون رفع مستوى الفرقة وتطويرها باستمرار نحو الافضل والاحسن .. وما دمنا بصدد الحديث عن رجل استطاع بجرأته ومواهبه أن يساهم في مصير المسرح في سوريا عامين متتالين فلا بد أن نذكر شيئا عن طريقته في اعداد المسرحية . انه يبدأ بتوزيع النسخ على الممثلين وبعد أن يقرأوها يناقشهم فيها مناقشة أدبية صلبة ثم يوزع الادوار ويطلب من كل ممثل أن يؤدي دوره بحسب فهمه وتصوره له ، وندر ما طلب من الممثل أن يقوم بحركة معينة بل يظل يستعيده الدور حتى ينسجم فيه مع اتجاه المسرحية تاركا له المجال لاكتشاف طبيعة الدور الذي يمثله فتقوى بذلك شخصية الممثل وتزداد حصيلة تجاربه دون أن يصبح دمية بين يدي المخرج أو نسخة عن شخصيته . انه يتيح لكل ممثل أن يكتشف نفسه وقدرته على الفهم والاداء . وان خدمات هاني صنوبر للمسرح في سوريا لا تقتصر على مجال اعداد الممثلين فقط ، وانما تتعدى ذلك الى قدرة هاني صنوبر على تلافي النقص الحاصل في مسرح جديد في بلد متأخر كسورية ، ولهذا فان هاني يعد الاكسسوار ويصمم الديكور ويعين الازياء ويخطط للاضاءة ويختار الموسيقى والتأثيرات الصوتية . انه يعمل تقريبا كل شيء رغم أن كل أمر من هذه الامور يحتاج الى مختص يقتصر نشاطه على مجال اختصاصه .

ومن الانصاف أن نذكر شريكا لهاني صنوبر في أتعابه واخلاصه وهو مدير المسرح القومي الاستاذ نهاد قلعي وهو ممثل قدير وله تجارب في



فاطمة الزين (مسز الفنج) في مسرحية « الاشباح »

❋

الاخراج وماض طويل مع المسرح السوري . ان نهاد قلعي يواجه كل العقبات التي تجعل المسرح يتعثر في طريقه السوي . وهذه العقبات داخلية وخارجية . أما العقبات الخارجية فيمكن تلخيصها بما يلي :

١ ــ موقف الاذاعة والتلفزيون من الفرقة القومية : وهو موقف شاذ . اذ حتى الآن لم يحصل أي تعاون رسمي بين الفرقة القومية وبين الاذاعة والتلفزيون المؤسستين اللتين تتجاهلان وجود الفرقة القومية بكل امكانياتها الفنية وتفضلان العناصر الهزيلة الباقية أو تستوردان من خارج سورية مسرحيات ومشاهد دون أن تتعاملا مع الفرقة القومية . يضاف الى ذلك فقدان العنصر الدعائي الذي يمكن أن يسوق الجمهور الى المسرح اذا عرضت أعمال الفرقة على نطاق هاتين المؤسستين الخطيرتين . بالاضافة الى رفع المستوى المادي لاعضاء الفرقة .

٢ ــ موقف الصحافة في دمشق خاصة وسوريا عامة من الفرقة القومية . ولنبدأ القول بتقرير مستوى الصحافة وتدهوره الى حد يجرف معه كل قضية يتولى معالجتها . يضاف الى هذه العوامل الشخصية والتعليقات التي يوجهها الصحفيون الى أعضاء الفرقة ممثلين وممثلات ، مما يسيء الى سمعة المسرح رغم أن واجب الصحافة ازالة مفهوم العهر عن العمل المسرحي وقرنه بالتكريم والاحترام .

أما الصعوبات الداخلية فهي :

١ ــ فقدان المختصين في العمل المسرحي ، وعجز المساعدات المادية عن استيفاء المسرح لحوائجه .

٢ ــ المستوى المادي المنخفض الذي يعيش عليه الممثلون ، مما يضطرهم الى اتخاذ مهنة ثانية فيبتعدون بذلك عن طريق الاحتراف ، رغم أن الاحتراف هو الضمان الوحيد لكي يبذل الممثل كل طاقته في عمله . ومع ذلك فان الممثل الذي يقوم بعمل آخر يخسر أكثر من نصف راتبه

في الفرقة فهناك مرسوم برقم ٩٥ يحدد راتب الموظف الذي يقوم بعمل اضافي ، بثلثي راتبه الاصلي . يضاف الى كل ذلك التسوية في الرواتب بين جميع أعضاء الفرقة المجيد منهم والمقصر . وهذا عمل غير عادل، وأرى أن يعمل مدير الفرقة على الغاء المرسوم ٩٥ أو تسريح الممثلين الذين ينطبق عليهم هذا المرسوم ثم الارتباط معهم بعقد يضمن لهم حقوقهم . هذا من جهة ومن جهة ثانية الغاء نظام المساواة في الرواتب ودفع مكافآت مالية للممثلين المجيدين والنشيطين . ولكي ترفع الحكومة من قيمة المسرح أمام المجتمع يجب أن تحدث وزارة الثقافة أوسمة شرف تمنح للممثلين والممثلات الذين يحوزون الاعجاب والنجاح .

٣ ـ فقدان العنصر النسائي خاصة وقلة عدد أعضاء الفرقة بصورة عامة . وتعود قلة الممثلات الى أن المجتمع ما يزال محافظا وأن الصحافة لم تساعد في تكريم المسرح بل هدمته . أما قلة الشبان الذين يعملون في الفرقة ، بل وتناقصهم فانه يعود الى الاسباب السابقة أولا والى قلة المردود المادي ثانيا . أما تناقصهم فلان عضو الفرقة ينسحب منها بمجرد حصوله على عروض أفضل . لكن الاقتراحات الماضية التي قدمتها يمكن أن تساعد على تنمية الفرقة بالاضافة الى أن من الواجب افتتاح معهد للمسرح ينظم الموهبة ويثقفها . ولكي تضمن الفرقة ثبات شكلها يجب أن تتبع طريقة التعاقد لخمس سنوات على الاقل لا يحق للممثل بموجبه أن ينسحب من الفرقة أبدا .

وانني في النهاية أفتخر بالخطوات المطردة التي سارت بها الحركة المسرحية وأتمنى لها متابعة النجاح في ظل وزير الثقافة الاديب الفنان الدكتور عبد السلام العجيلي .



الروابط الادبية بين ايران والعراق

***

ان الروابط الادبية بين الشعبين الايراني والعراقي ليست بنت اليوم ، فهي تمتد الى ابعد العصور التاريخية ، وذلك واضح من دواوين الشعراء والكتاب ، الذين ظهروا في البلدين ، وقد تأثر كل منهما بالاخر. وقد زادت هذه الاواصر توثقا وهذه العلاقات توطدا في العصر الحديث وظهر ذلك جليا في الاثار الحديثة . فالعراق رفد الحركة الادبية في ايران ، وقدم وجوها مشرقة ، أثرت تأثيرا بليغا في تطور الادب الايراني المعاصر . حتى ان الكثيرين من شعرائه كانوا ينظمون الشعر باللغة العربية امثال المرحوم « سميعي » والشاعر « فيروز كوهي » وغيرهما من الشعراء الذين لاتحضرني اسماؤهم . اما في ميادين الادب الاخرى ولا سيما في التاريخ والفلسفة والدين ، فأمر معروف غني عن الاشارة اليه . وحسبنا ان نذكر الاستاذ « رهنما » مترجم كتاب « محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، والاستاذ « راشد » و « علي دشتي » و « تقي زاده » و« فروز نفر » و « دهخدا » واضرابهم الذين كان لهم اثر مشهود ومحمود في الادب الفارسي الجديد ، وكانوا في الوقت نفسه يجيدون العربية ويكتبون بها بعض الاحيان ، ويحبونها حبا جما ، ولهم فضل عميم على ترابط الادبين وتوثيق صلاتهما المتينة الوطيدة . وكما كان للادب الفارسي القديم اثره البين في الادب العربي ، فان الادب الفارسي الحديث اثر تأثيره في الادب العراقي المعاصر ، فالشرقي والصافي والجواهري واحمد حامد الصراف وهم من ابرز ادباء العراق ، قد تأثروا بالادب الفارسي ، وترجموا كثيرا من الشعر الفارسي ، وفي الايام الاخيرة بدأ الاستاذ جعفر الخليلي بترجمة غرر الشعر الفارسي ، والاستاذ الخليلي قاص بارع ، وقد تجد اثارا من قصص « صادق هدايت » الايراني على ماوضع من قصص وروايات . وهناك ادباء اخرون يعنون بالادب الفارسي ، وتأثرهم به واضح جلي امثال الاستاذ زكي الصراف الذي نشر بحوثا قيمة عن الادب الايراني المعاصر ، والذي عرف قراء العربية بشخصيات الادب الفارسي الحديث لاول مرة ، امثال « سرمد » و « سميعي » و « رجوي » و « سليمي » والشاعرة الايرانية « بروين اعتصامي » و « منيرطه » . وكتب بحثا عن اللغة العربية في ايران منذ بضع سنين على صفحات جريدة « الحرية البغدادية ، أي قبل ان تبادر مجلة « الاخاء » وتتصدى الى هذا الموضوع ، وعندما أثارته « الاخاء » ، كتب مجددا في مجلة « الاداب » اللبنانية بحثا بهذا الشأن ، عدد فيه مشاكل اللغة العربية في ايران والحلول الناجعة لذلك . وهناك اديب اخر هو الاستاذ مهدي جاسم الذي ترجم « رباعيات نخعي » الى العربية ، الى جانب ترجمة الدكتور مصطفى جواد وصالح الجعفري . وتتميز ترجمة الاستاذ مهدي جاسم بالرقة والعذوبة . ومن الذين عنوا بترجمة القصص الفارسية والمقالات الاستاذ احمد ناجي القيسي والعلامة توفيق وهبي والاستاذ مشكور

اما من ابناء الناطقين بالضاد ، فعددهم كبير ، فمن مصر عبد الوهاب عزام والخشاب والشواربي الذين ترجموا غرر وعيون الادب الفارسي ، ومن لبنان الدكتور البستاني وسواهم من العاملين في هذا السبيل ، وفي العراق الى جانب ماذكرت الدكتور احمد شاكر شلال الذي نال الدكتوراه برسالته عن الخيام ، وهو اليوم رئيس قسم اللغة العربية في كلية الاداب ببغداد .

من هذا يتضح بان العراق اقرب البلدان العربية الى ايران ، وخير ما يمثل هذه الروابط ، مدن العتبات المقدسة ، حيث ان اكثرية من جاء ذكرهم ، ان لم يكن كلهم سواء من الايرانيين او العراقيين هم من ابناء هذه المدن ، او نشأوا وترعرعوا في كنفها . ولا شك ان هذه العلاقات ستتوطد يوما بعد يوم بفضل المخلصين من ابناء الشعبين وما يقدمه من خدمات جلى بهذا الشأن .

كربلاء — سلمان هادي الطعمة

رجال محاصرون

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٦ ـ

ابراهيم ـ ايتها المرأة اللعينة ، أيتها الزانية .. اعترفي لي الآن قبل ان يذهب رأسك الجميل هذا الى جهنم ...

خديجة ـ كُنت أبحث عن مأساتي ، لن تعرف أنت ما هي .. لن تعرف أبدا حتى لو قطعت رؤوس النساء كلهن ...

(يسمع في تلك اللحظة جلبة سيارة وأصوات خارجية . يقف ابراهيم متجمدا كمن ينتبه الى نفسه ، ثم يسرع فيدس السكين تحت غطاء المنضدة .. تظل خديجة تحملق في مكان السكين ، بينما يتجه ابراهيم الى النافذة ثم يرجع نحو الباب وهو يتمتم بصوت خفيض).

ابراهيم ـ لن تهربي مني ، سوف أنال رقبتك في لحظة أخرى ، عاد هؤلاء الناس ليتدخلوا بيننا حتى في هذه اللحظات .. الاشقياء هاه ...

(يتوقف للحظات مواجها النظارة ، يرفع يديه الى وجهه فجأة كمن أدرك ما كان مقدما عليه يخرج ابراهيم من غرفة خديجة ، يسمع صوت باب خارجي ، يفتح ثم تعلو بعض اصوات من الداخلين . خديجة تتجه بخطوات ثقيلة الى المرآة ، توجه الاضواء الى الوجه وحده ، نظرات حزينة شاردة . ولكن الملامح تتجمع فجأة على تصميم ، تصغي خديجة الى الاصوات التي تعلو تدريجيا من الردهة الخارجية يدخل تباعا كل من منيب وحسين وابراهيم) .

حسين ـ (بسخرية) ها قد اجتمع الحبيبان ثانية .. رأيت الاخ منيب يسأل عنك حارس القرية في الساحة . امتطى سيارة وأتى بها خاصة لينقذك ...

منيب ـ خديجة ، ارجو عفوك ، ما كان يبدو لي الامر بمثل هذه الخطورة ، لقد فكرت فيماقلته لي في الشام ، وفجأة اكتشفت الخطر المحدق بك هنا . ما كان ينبغي أن أدعك ترجعين ، ولكنني أتيت .. أتيت في الوقت المناسب .. أليس كذلك ، أليس كذلك .. (يتطلع حوله متسائلا ..)

ابراهيم ـ أحسنت في مجيئك على كل حال .. فانه كان ينقصنا أمر هام .. لم تشأ خديجة أن تكشف لنا عنه ..

حسين ـ (متراجعا نحو الباب) انا الآن سوف أنصرف الى بيتي ، عسى أن تصلوا الى حل قريب (ينظر الى منيب وخديجة متوعدا) .

(يخرج حسين بينما يسير منيب الى أقرب كرسي ليجلس عليه ويأخذ بمسح العرق المتصبب على جبينه يقف ابراهيم قريبا منه ، تتلهى خديجة بترتيب شعرها أمام المرآة ..) .

منيب ـ اوه .. لا أدري لماذا لا تسهرون في الخارج تحت الاشجار ، لديكم هذا الريف الجميل الرطب ، بينما تحبسون على أنفسكم في هذه الغرفة .. المقفلة . الحر قاتل هذه الليلة . تركت دمشق وقد ذاب الاسفلت في شوارعها .. لا بد أن هناك ما يشغلكم حتى تسهروا الى مثل هذه الساعة .. ابناء الريف لا يحبون السهر .. انهم ينامون مبكرين .. فماذا جرى بحق الشيطان ؟

(صمت طويل . ابراهيم يجول قليلا ، يجلس الى مقعد خشبي ، يطرق ، ثم لا يلبث أن يقوم ، بينما تظل خديجة جامدة ، أمام المرآة قد انحل شعرها وانسدل على كتفها .. يتابع منيب ، وهو يحس لصوته صدى موحشا ...) .

منيب ـ ماذا تنوون أن تفعلوا ، لماذا أنتم جامدون هكذا بحق الشيطان ، اوف ، الحر خانق هنا هل أستطيع أن أفتح النافذة ...

(يقوم الى النافذة لكي يفتحها ، يقف ابراهيم في دربه ، يتراجع هذا الى مقعده ، ينظر الى ابراهيم برهة ، ثم يندفع نحو خديجة فجأة ..)

منيب ـ خديجة ، انظري الي قليلا يا عزيزتي .. أتودين أن تأتي معي ؟ لست أعرف ماذا سنفعل معا . ولكن تعالي معي ، تعالي ، هذا هو طريقنا الوحيد ..

ابراهيم ـ (متقدما ، بلهجة جافة) أتعني أنك تريد أن ترجعها ثانية الى بيتك يا منيب ؟

منيب ـ (مرتبكا) أنا .. أنا أريد أن ترجع معي خديجة ..

ابراهيم ـ أفصح ، مالك ترتعد هكذا ؟

منيب ـ لست أرتعد .. ولكنني حائر .. ما هذه القسوة يا ابراهيم ؟ ظننتك صديقا لي ، صديقا لنا معا أنا وخديجة ..

ابراهيم ـ (مشيحا بوجهه) كنت لكما هذا الصديق ولكنكما أسأتما الى معنى الصداقة ، كان ينبغي أن أظل الحارس ، وليس الصديق ...

منيب ـ المصيبة أنك لا تفهم ، وأنك تسيء الظن ، تسيء الظن الى درجة الجريمة .. ما بالكم قد انقلبتم جميعا الى جزارين ؟ لعلنا نستطيع أن نثق ببعضنا ولو قليلا ..

ابراهيم ـ انظر الى نفسك يا هذا جيدا .. ماذا تراك جئت فاعلا ؟ أنك لا تدري ما تريد . كل ما هنالك انك تدعو خديجة الى الذهاب معك .. ولكن ماذا تريد أنت من ذهابها معك ؟

منيب ـ (ينظر متأرجحا بين خديجة وابراهيم) صحيح .. أنا لا أعلم بعد .. لا أعلم ..ولكنني مصمم أن أعيدها الى دمشق .. حسنا عندي فكرة .. فكرة لا بأس بها سوف نرضى بها جميعا .

(تتلامح على ثغره ابتسامة باهتة ، لا يجيبه أحد ، يتابع بحماس أقل) .

منيب ـ ما رأيكم لو وضعنا خديجة عند احدى صديقاتها في المدينة بضعة أيام فقط ، بل يوما واحدا ريثما ، ريثما نستطيع أن نجد حلا .. حلا نهائيا . نعم .. نعم ، نحن بحاجة الى هذا الحل ، لا بد أن أحدنا يعرفه ولكن ينبغي الجهر به .. حل نهائي هذا ما نحتاجه الآن . بل حتى مساء الامس ما رأيكم : ما قولك أنت يا ابراهيم .. (يلتفت الى خديجة بضراعة) ما رأيك يا خديجة أتأتين معي الى زميلتنا (سعاد) لقد أضافتك عندها مرات عديدة ، ولا بأس هذه المرة ... أنت تثق بها وبأهلها يا ابراهيم أليس كذلك ؟ ....

ابراهيم ـ أنا .. انا لم أعد أثق بأحد من سكان البيوت النظيفة هناك ..

منيب ـ دعها تفصح عن رأيها قليلا ، قولي لي يا خديجة هل تأتين معي ؟.

خديجة ـ (ببطء رهيب) أهذا كل ما تطلبه مني ؟ أهذا ما جئت من أجله في مثل هذه الساعة ؟

منيب ـ (يخاطب ابراهيم) يا أخي أنت تعلم أنني ما زلت طالبا ، ماذا أستطيع أن أفعل بمثل هذه السرعة ؟

خديجة ـ اصمت يا منيبُ .. أنا لا أستجدي الزواج منك ، أنت تعرف رأيي بالزواج ، وبالزواج منك خاصة .

(ابراهيم ، ترتخي ذراعاه الى جانبيه ، تظهر عليه علائم تعب ثقيل ، يميل بجذعه الى الامام مغمضا عينيه . لقد وصل به التوتر النفسي الى ذروته وكأنه يتخلى فجأة عن دوره الاول القاتل ، تلحظ خديجة التغير الذي طرأ على أخيها ، تتقدم منه وكأنها تريد أن تمسك به قبل أن يقع ، يوقفها قائلا بصوت متهدم) :

ابراهيم ـ لا .. دعك مني ، لا تقتربي من جزارك .. يا لذل النساء في شرقنا ، يظل الحنان يفسد شجاعتهن ! أنا تعب ، أحس بتعب مفاجيء ، اوه .. أكاد لا أستطيع أن أقف على قدمي . سأتركما الآن ، هذه فرصة اخيرة لكما .. فرصة أخيرة ...

(تشحب الاضاءة في الغرفة . الضوء يتحول من خلف النافذة الوحيدة ، الظلال تملأ الغرفة تماما .. الموسيقى تموجية ذات أصداء توحي باللاتناهي والسر ..) .

منيب ـ ها نحن وحدنا ثانية .. ولكن كأننا سوف نفترق الى الابد ، هيهات أن أقتل هذا الاحساس الذي لازمني منذ أن عرفتك ، كان هاجس خفي يقول لي هذه الفتاة ستكون جحيمك الدائم هذه الفتاة لن تعرفها قط ، لن تذيقك طعم السعادة ..

خديجة ــ ليتك تملك مثل هذا الاحساس حقا .. ألا تدرك أننـــا مطالبون الآن من كل الناس أن نفصح عن أنفسنا ، أن نقول لهم من نحن وماذا نريد ، أتراك قادرا على هذا ؟ ...

منيب ــ السخفاء .. انهم يسمون كل علاقة تقام بين رجل وامرأة باسم واحد هو الحب ، والحب دائما . وليس للحب عندهم سوى معنى واحد ، معنى واحد . الاخلاص لدرجة الاستشهاد وقصائـــد الغــزل والرومانتيكية ، ومن ثم النهاية المحتومة الزواج .. وتربيـــة الاولاد .. خديجة بربك هل نحن متحابان حقا .. آه ليتني أستطيع ان أختصر هذه القصة كلها بلفظة واحدة الحب ... وننتهي .

خديجة ــ لا تعد الى الاعيبك القديمة ، لقد أصبحت أشك في هذا الهراء .. الذي عودتني أن أتلقاه منك وكأنه سحر وروعة .. خصوصية. أليست هذه كلمتك المفضلة .. شيء خاص بيننا .. علاقة مبهمـــة .. تفاعل سري ، لا نعرف ما هو ولكنه شيء يقربنا من وجودنا الحقيقـــي أليس كذلك ، أليس هذا ما كنت تسمي به علاقتنا ؟

منيب ــ أنت تعلمين أنني كنت دائما أكره أن أكون مثل الآخرين ، لا أحب حياة الاطارات ، لا أريد ان يسجنني اطار من اطارات المفاهيـــم العامة ، لا أحب أن أسمي محبوبا أو عاشقـــا ، فاســـدا أو صالحـــا .. عظيما أو حقيرا .. كل ذلك لانني لست مثلهم أبدا ..

خديجة ــ هكذا أنت اذن ، انك لست مثلهم . ولكنك فجأة تجــد العالم أجمع يطالبك من حولك وبصرخة واحدة أن تكون انسانا ما .. انهم ينادونك بضراوة الآن فبماذا سترد عليهم ؟

منيب ــ أود أن أكون شيئا .. ما . أنا مللت هذا التيه . ليتنـــي أستطيع أن أقدم لهم هويتي ، ليتني استطيع أن أتقبل أية صفة يصفونني بها .. فليقولوا عني انني ..

خديجة ــ (صارخة) جبـــان .. !

منيب ــ جبان .. هذا كل ما هنالك .. ربما كنت سأهتدي أنـــا نفسي الى هذه الكلمة .. يا لها من كلمة بسيطة. انها أشبه بعود كبريت صغير ، يبدد ظلاما حالكا ، كان يختفي فيه ألف شيطان .. جبـــان .. جبان .. وكل الموسيقى الشيطانية تنهار أمام هذا الصوت الوحيد .. آه .. ولماذا لم تلق بهذا الصوت من زمان ، من قبل ؟

خديجة ــ (بأسى عميق) ما كنت أجرؤ يا منيب ، ما كان لي تلك الشجاعة كيما أنتحر وأنا في ذروة أحلامي .. لقد حملتك أوهامـــا .. كثيرة .. كنت شيئا رائعا بالنسبة لي وأما الآن .

منيب ــ (مقاطعا) فنحن مجرد متهمين .. أنا جبان .. وأنت ؟

خديجة ــ وأنا فاجرة ..

(موسيقى حادة ، تنفرج الاضواء قليلا قليلا .. لتعكس بعد لحظات على الجدار الخلفي للمسرح ظلال قضبان حديدية على طول الجدار وعلى وجه منيب وخديجة معا) ..

(تجلس خديجة على المقعد الخشبي وتلقي برأسها الى المسنـــد ، ينحني الى جانبها منيب ..)

منيب ــ خديجة .. هل نحن حقا هكذا ؟ أيمكن هذا ، أيمكـــن أن تسمي كل هذه البراءة ، كل هذا التيه .. الذي تجولت فيه روحانـــا ، كل تلك النشوة الضريرة ، الامل المتسكع في ضباب أوهامنا أنحن فـــي النهاية مجرد جبان وساقطة ؟

خديجة ــ (ببطء وهي شبه مغمضة العينين) يا الهي ما زلت كما أنت ، حتى في هذا الموقف .. تكذب وتهرب ، وتجد لنفسك الف دهليز تنفلت منه ..

منيب ــ (يقف منفعلا بتأثر شديد) وماذا نفعل ؟. هل سنقر ، هل نقر بأننا مسجونون ؟

خديجة ــ آه .. لا شيء أفضل من هذا .. لا شيء ابدا افضل من هذا عندئذ لا بد أن نستريح ...

منيب ــ (واقفا) هل تستسلمين يا خديجة ؟ هل توافقين علـــى هذه الراحة المسكينة ؟

خديجة ــ لقد التهموا مستقبلنا ولم يبق لنا شيء ، فلماذا نحاول ؟

(لحظات من الصمت ، تعود خديجة الى حالة الحلم ، وتتمتم كأنها وحدهـــا ...)

خديجة ــ لن أصعد ثانية الى مفارتي .. ربما طال العوســـج الآن على بابها وتكاثف بعروقه العنكبوتية الجافة .. سوف يطمرها الشـــوك الازرق النحيل .. والفتاة الناحلة ذات الثوب الرخو الطويل ســـوف تفرق في الظلمة ، وتأكلها الوحشة العمياء .. لن تلمسها البروق ، لـــن تملأ صدرها عصفات الريح ، لن تفسل لحمها زخات المطر الجبلي البارد، الشوك يطمرها ، والوحشة العمياء تبدد نشوتها . لن يطول معدنها أي نور ناري ، الصواعق سوف تضل معدنها الطفلي . لن تتحول من مجـــرد ترابة مرصوصة كثيفة ، الى ألماسة شفافة . انهم يزرعون العوسج علـــى باب مفارتي ، العنكبوت القذر يسد علي منافذ الفضـــاء الـــرهيب .. أموت ، أخمد في طينتي اللعينة الاولى .. لن يلتمع مني أي جوهر ما أنا الا امرأة تزحف على الطين ...

(تدير رأسها نحو منيب ، تنظر اليه بشرود وحنان طارىء ، ترفـــع كفها ، يمسك منيب بكفها ، ويضغط بها على صدره ...)

منيب ــ (بحشرجة تختنق بعبراتها) أريدك يا خديجـــة . أحس أنني اريدك كما لم أحس ابدا من قبل . اواه يا حبيبتي لن أدعك لـــهم ابـــدا ..

خديجة ــ وما الفائدة يا منيب ؟ لقد تأخر كل شيء ، وأنت الآن تحاول شيئا لم يعد بامكاننا ابدا ..

منيب ــ سأقول لهم شيئا .. سأعلن أنني سأتزوجك.. غدا صباحا .. غدا صباحا .. لا بد أن نتحرر من هذا الاختيار البشع ، اما أن تقتلني واما الزواج ...

خديجة ــ (تنتصب واقفة ، بينما لا يزال منيب راكعـــا قـــرب الكرسي) هل نحن نتحرر بهذا الحل ؟. كلا .. انما نفعل ما يريدون . اننا بذلك نعترف بأننا لم نكن سوى ذلك الجبان وتلك الفاسقة .. لـــن يكون هذا زواجا .. وانما اقرارا بالجرم ، اقرارا الى الابد .. لا لـــن أرضى بذلك ..

منيب ــ (ينتصب منهالكا على نفسه) كما تشائين.. كما تشائين.. لا مهرب لنا ، نحن ما زلنا في سجنهم ، ومهما فعلنا .. ولكن يا حبيبتي (يقترب منها بينما تسير هي نحو النافذة) لنقبل تصنيفهم لنا .. لنقبل ان تكون علاقتنا الماضية اثما ومعصية ، ولنقبل الآن الصورة المشروعة التي يفرضونها علينا ، لنقبل هذا الزواج .. ثم لنبدأ حياتنا كما نريد بعـــد ذلـــك ..

خديجة ــ أية حياة هذه ، بعد أن يكون النبع قد غاض نحو الطين؛ هل تستطيع أن تحيا هذا الزواج يا منيب ؟ انه لن يكون الا زواجهم هم. لن يكون الا ارادتهم البشعة تتدخل كل لحظة بين جسدينا ، سوف ترى وجه حسين وابراهيم في كل لحظة تقبل فيها علي .. سيعيشون بيننا ، سيدنسون حياتنا ، سيلاحقوننا الى نهاية العالم ، لن نكون الا صنيعتهم ، لن نكون الا فعلتهم ، وما نحن بعد ذلك سوى اشباح ، تمثلنا وقد متنـــا واندرسنا .. منذ أن قبلنا ارادتهم ...

منيب ـ (يقف خلفها ويطوق خصرها) خديجة .. ماذا نفعل بهذا الحب ، لقد كنا غافلين حتى الآن عن هذا الشيء الخفي الذي كان ينمو بيننا دون أن ندري .. ان المحنة تكشف لنا الآن عن حقيقة عواطفنا .. نحن متحابان بنوع من الحب ، ألا تحسين معي هذه العاطفة التي يمكنها ان تتحدى العالم كله ؟ ان قوة غريبة تنبثق من أعماقي يا خديجة .. لم أعرفها من قبل ولا بد أن تكون هي هي هذا الذي بحثنا عنه طويلا ولم نجده الا الآن في أحلك الظروف ...

خديجة ـ هذه العاطفة لا تهمني ... ومع ذلك .. ومع ذلك فأنا امرأة ، ولكنني لست مستعدة الآن . الآن خاصة ان أقبل هذا الضعف .. (تلتفت اليه بعنف) انت أحسست الان فقط بهذا الحب ، أليس كذلك يا منيب ؟ ...

(يظهر الارتباك على محياه مجددا ، يعبث بشيء في يده ، يسير قليلا نحو الامام ، ثم يتوقف ويدور نحوها نصف دورة)

منيب ـ أنا أشعر يا خديجه انني أريدك ، أشعر بأنني سوف أدافع عنك ضد وحوش الارض قاطبة ، وانني مستعد ان أفعل أي شيء في سبيل أن أفوز بك .. هل تسمين هذا الشعور حبا او أي اسم آخر ، فليكن ، ماذا تريدين ان أفعل اذن ؟

خديجة ـ (بقسوة جريحة) حبك هذا يا سيدي مجرد ثمن .. نبت فجأة في جيبك ، وليس في قلبك . انه ثمن تقترحه بديلا عن حياتي ، انت الآن بطل ، بطل ، بطل جديد تنضم الى أبطال الضيعة كلهم ، الى حسين ومنصور وابراهيم .. هم ابطال لانهم سيقبضون على حياتي ، وانت بطل لأنك ستنقذ حياتي .. هاهاها ... أف سئمت البطولات ، سئمت الابطال ، وشريعة الغاب المزيف الجديد هذا ..

(لحظات من الصمت ، يخفي منيب رأسه ويتوجه الى المقعد يتهالك عليه .. بينما تتسمر خديجة وراء النافذة ، تبدأ طلائع النور بالظهور ..)

خديجة ـ (كمن يخاطب نفسه) سأقف الآن هنا حتى يبزغ الفجر ، ولن احول وجهي عن طلائع النور تترامى الي من خلف الجبل .. سوف تمر في طريقها على مفارتي ولكن الاشعة الباردة ، أشعة الفجر الباهتة سوف تضل بين عروق العوسج العنكبوتية على باب مفارتي .. ومفارتي لن تعرف ان الفجر قد حان ، وسوف يظل جوفها غريق ترابه الاعمى . لن تكون هناك عملية تحويل رائعة ، ليس من معجزة ، ولا شيء سوف يصبح جوهرا شفافا بعد ان كان طينا كثيفا قذرا ....

ـ ستار ـ

(في بيت المختار منذ الصباح الباكر)

(المختار وسعيد بك وحسين يتناولون طعام الافطار ، يبدو انهم منهمكون بحديث ذي أهمية)

سعيد بك ـ أنا لست على يقين ان هذه اللعبة سوف تمضي الى النهاية ، الفلاحون سيعرفون الحقيقة سيعرفون ان اراضيهم ما زالت ملكا لهم وسوف يطالبون بمحاصيلهم ..

حسين ـ ولكن يا سيدنا البيك ، أنت أيضا عندك سنداتهم ، وهم لم يدفعوا ديونهم بعد ، منذ أن كان والدك المرحوم حيا . وكذلك لن يستطيعوا أن يدفعوا أبدا شيئا ، أنت تعرف هذا الامر .

الشيخ منصور ـ المسألة لا تحتاج الا الى قليل من الرهبة يا سعيد بك .. وحسين قادر على اخضاع كل من سوف يتحدث في هذا الموضوع ..

(سعيد بك يتلفت وهو يأكل نحو الباب والنافذة ، يلاحظ منصور ذلك فيقول)

الشيخ منصور ـ الله يصلح الآنسة نهلة خانم . لقد تعمدت أن تخرج مع الفجر ، مع صلاة الصبح ، حتى يراها الجميع وهي تخرج من بيتي أنا ..

سعيد بك ـ انها تريد ان تتمتع ببرودة الصباح في الريف ...

الشيخ منصور ـ ولكن يا سيدي بهذا العمل لم يبق احد من الفلاحين الا و .. وعلم بالامر ..

سعيد بك ـ (متجاهلا) وأي أمر يا عم منصور ....

حسين (متدخلا) : ليس شيئا يا سعيد بك ، ليس شيئا على الاطلاق ، ولكن العم منصور يخشى من تساؤلات بعض الفضوليين .. وهم عندما سيوضح لهم الامر ، ويبين أن الانسة نهلة ما هي الا خطيبة البيك ، لن يثيروا أي شيء قد يحرج العم منصور . أنت تعرف عاداتنا هنا يا سيدنا البيك . وبهذه المناسبة أريد منك يا سعيد بك أن تقف معنا من أجل أن نتخلص من رأس هذه الكلبة !

سعيد بك ـ أليس من طريقة أخرى ، ألا يمكن ان يتزوجها صديقها ذاك ..

حسين ـ يا سيدنا صديقنا منيب جاء ليلة أمس ، وعرض عليها الزواج حسب علمي .. لكن تصور هذه الكبرياء التي أصبحت لها . فقد رفضت هذا العرض .

الشيخ منصور ـ غريب أمر هذه المرأة ، ماذا فعلت بها المدينة ؟ أتريد اذن أن تذبح ؟ ...

حسين ـ وأنا أقول لكم ، أنني فرحت حقا . فالافضل لمثل هذه المرأة أن تموت ، حتى نربي بها نساء الضيعة كلها .

سعيد بك ـ أنا لا أوافق على قتل خديجة ، لم أر فتاة مثلها ، ان شخصيتها رائعة وقوية وممتازة ...

الشيخ منصور ـ ولهذا يا سيدي أصبحت هذه المرأة مؤاخية للشيطان فينبغي التخلص منها ، انها فقدت كل حياء .. تواضع وخفر ، فماذا بقي لها من الانوثة التي خلقها الله وجعلها تابعة لارادة الرجل ؟..

سعيد بك ـ أنت يا شيخ منصور تبالغ دائما . ان المرأة انسان مثل الرجل سواسية .. فلماذا نجور عليها بمثل هذه الطريقة البدائية ...

الشيخ منصور ـ لا يا سيدي ، لا أريد ان أسمع منك أنت بالذات هذا الكلام ، المرحوم ابوك كان يرعى الاخلاق والعادات والدين في هذا البلد ، وكانت الفضيلة والخيرات تعم جميع النفوس وتخيم على جميع البيوت ..

سعيد بك ـ ولهذا كانت جميع هذه البيوت مرهونة عند أبي ، راعي الاخلاق والعادات رحمه الله ... ولهذا كذلك رحل نصف شباب القرية عنها واشتغلوا حمالين في سوق الهال ...

الشيخ منصور ـ (وقد فغر فاه دهشة وريبة) ماذا أصابك يا سيدنا البيك حتى تتحدث هكذا عن المرحوم والدك طيب الله ثراه ؟

سعيد ـ (ينظر الى الباب) أتريد الصراحة يا شيخ منصور .. ربما اصابني انا الآخر داء التقدمية او المدنية ، فانا لست مرتاحا ابدا لهذه المؤامرة . ومنذ ان عدت من الجامعة في بيروت وأنا أحس بالقلق من هذه العملية .. أعتقد انه ينبغي أن نطلع الفلاحين على حقيقة الامر ونرد لهم سندات اراضيهم .. يكفي ما أخذناه منهم منذ أكثر من عشرين عاما بهذه الحيلة ..

حسين ـ (هلعا) ولكن يا سيدنا البيك ... ؟ ...

سعيد ـ (مقاطعا زاجرا) لا بيك ولا باشا ، أنا اسمي الدكتور سعيد ، اتسمع الدكتور سعيد فقط ..

حسين ـ طيب يا سيدي ، الدكتور سعيد ، يا حضرة الدكتور لمن تريد ان تترك كل هذه الاراضي ، غدا لن يبقى لك مورد تصرف منه ...

سعيد ـ تكفيني قطعة الارض الاصلية ، ثم أني سوف أفتح عيادة طبية وربما فتحتها هنا وداويت اصدقاءنا أهل البلد مجانا ...

العم منصور ـ (مرتبكا متجلدا) الله يديمك يا سعيد بك يا دكتور سعيد .. لكن المشكلة لن تنتهي عند هذا الحد .. اذ عندما يعرف الفلاحون حقيقة الامر ، سوف يتهمونك بالسرقة ، سوف يطالبونك بحقوقهم عن السنوات الماضية التي أعقبت نهاية الديون فماذا ستفعل؟..

(يطرق سعيد مفكرا وكأنه شعر بالحرج فعلا ، يلاحظ منصور عليه ذلك فيتابع خطته بمكر بالغ ..)

منصور ـ ثم ان الامور سوف تتعقد أكثر من ذلك .. هناك أشياء كثيرة قد فعلها حسين يعاقب عليها القانون من أجلك يا سيدنا البيك ...

(يلاحظ منصور ان سعيد لم يقاطعه عند لفظة البيك مصححا ..)

حسين ـ (بخبث) نحن كلنا مشتركون بهذه الاشياء ، أليس كذلك

يا عم منصور .. كلنا .

(ويجول ببصره حول الجميع ليشملهم بكلمته ..)

العم منصور ـ البيك أبوك ، الله يرحمه كان كثيرا ما يحدثني بأمور تشبه هذه التي حدثتنا بها الآن . كان يجود قلبه الكريم بكثير من الاحلام الطيبة هذه . وكنت ألاحظ ان مثل هذه النوبات تنتابه أثر بعض الكؤوس التي يتجرعها مع بعض أصحابه .. كان له ضمير حي يقظ ، طيب الله ثراه ، وها أنت ثانية ترث هذا الضمير يا سيدنا البيك .. الله يرعاك ويحسن اليك على قدر نياتك الطيبة ...

حسين ـ انت ما زلت شابا جديدا .. غيرتك الافكار الجامعية قليلا، أنت لا تعرف حقيقة الارض ، ولا الذين يعملون بالارض ، لو أنك أردت ان ترد اليهم حقوقهم هذه لطالبوك بشيء كثير كثير لا تقدر أبدا عليه .. اتركهم وشأنهم أنهم مسرورون بحالهم .. وكل تغيير سوف يضرك ويضرهم ...

سعيد ـ على كل حال لا بد ان أجد طريقة لانتهي من كل هذه المشكلات دفعة واحدة ، مشكلات لم أسببها ، ولكنني وجدتها مكدسة فوق صدري منذ ان ولدت ...

منصور ـ لا ريب ان الانسة نهلة ، هذه الصبية اللعوب قد أثرت على أفكارك ليلة أمس ..

(ينظر اليه بخبث ، وكأنه يعني أمرا ما حدث في الليلة الماضية في غرفة من غرف بيته ..)

سعيد ـ (يلقي باعتراف دون قصد وكأنه اعتراف لنفسه) الحق أنني أريد أن أتزوجها .. وهي .

حسين ـ وهي لا ترضى ان تتزوج من ملاك .. في الاحوال المدنية ، أصبح الناس يخافون من الملاكين ..

(تتوجه الانظار نحو الباب ، يسمع خطوات في الخارج شبه ضربات الخيل ، يفتح الباب ، تدخل نهلة ويتبعها ابراهيم .. يقوم حسين ومنصور لاستقبال نهلة دون ان يهتما بابراهيم .. الا بنظرات عابرة مستنكرة متسائلة ، بينما يظل سعيد في مجلسه يتأمل الوافدين بغرابة شديدة منقلا بصره بينهما ...)

نهلة ـ (تتحرك برشاقة باحثة عن كرسي ، تجلس ثم تتحدث بطلاقة غريبة) ما أجمل هذا الصباح . قريتكم رائعة يا عم منصور .. هناك برودة تهب علينا من كل جانب كأن رذاذا من الندى يرشنا من مناقير العصافير ...

منصور ـ الله يا ست نهله ، ليلة وصباح يكفيان لجعلك شاعرة هكذا ...

نهلة ـ (متابعة) كنت اتجول في البساتين المجاورة عندما رأيت الاخ ابراهيم ، كان تعيسا جدا وأظن انه أمضى ليلته كلها سارحا في الحقول فدعاني الى التنزه معه وتطوع ان يأتيني بحصان .. وهكذا اكتشفت كل معالم الجمال في هذه الضيعة .. ولكن ابراهيم مسكين ، لم يزل حزينا كما ترونه .. بالله عليكم هلا انتهيتم من محاكم التفتيش هذه هلا انتهيتم من مشكلة اخته ، لقد ذبحتم هذه الفتاة واخاها الف مرة منذ ليلة أمس ...

(تنظر الى سعيد وقد أطرق برأسه ذلا وارتباكا ، ثم تلاحظ تجهم الآخرين من حوله .. فتقف غاضبة والسوط في يدها ... تضرب على كفها تارة وعلى ساقها تارة اخرى)

نهلة ـ ماذا جرى يا دكتور سعيد ، اوه يا سعيد بك ، يا سيدنا البيك . هل ردوك الى أصلك ؟ مختار الضيعة والجابي المخيف .. حضرته . انا آسفة ما كان لاحلامنا ليلة أمس ان يطلع عليها النهار . كنت واثقة منك هذه المرة يا سعيد .. ماذا فعلوا بك ، قل لي ؟.

(ترمي بالسوط وسط المائدة ، ثم تجهش بالبكاء ، وتخرج وهي تعول . اما ابراهيم فقد ظل حتى هذه اللحظة شبه غائب عن الموقف . ولكنه يتنبه فجأة ، ويحاول أن يعدو وراء نهلة ، الا أن صوت حسين القوي يوقفه ...)

حسين ـ الى أين يا ابن العم ، أراك تعدو خلف الانسة ، أين كنا وأين أصبحنا ؟ نريد ان نغسل العار والشنار من اسمنا وجبيننا ، صرنا نعدو وراء نساء الآخرين . عيب والله يا ابراهيم ، ليس الرجال يا ابراهيم هكذا ! .

منصور ـ كل المصائب من وراء هذه الساقطة خديجة .. خديجة أيقظت ضمائر جميع الناس . الخليلة نهلة صارت خطيبته ، ودفعت بالبيك الى ان يتنازل عن حقوقه ، وصار البيك يخجل من اسمه وأملاكه .. الله .. الله .. يا زمان يا مغير الاحوال .. ماذا حدث للناس والخلق يا رباه .. والرجل الذي كان سوف يصون شرف نسائه أصبح هو الآخر عاشقا لخطيبة سيده وولي نعمته ..

ابراهيم ـ (في موقف التحدي) لن أقتل اختي ، ولن أحميها ، سأتركم ، سأتركم جميعا ، انني راحل الى حيث لن يراني احد منكم على الاطلاق .. هل تسمعون ؟

حسين ـ ارحل يا جبان يا قليل الشرف .. عندما يرحل الاخ لا يبقى الا ابن العم .. ثارات الرجال يا عرب للرجال .. ثارات الرجال يا عرب للرجال ...

(يهرول ابراهيم خلف نهلة ثم يسمع بعد لحظات صوت محرك ينطلق بقوة ، سعيد مبهوت في مكانه ، الانتصار يلمع في عين منصور ، يقوم حسين الى الباب ثم يرجع ليقول كلمة ..)

حسين ـ راحوا الكلاب كلهم ابراهيم ونهلة ومنيب بالسيارة التي أتى بها منيب الحقير هذا ، أنا لخديجة ليس غيري .. ثارات الرجال يا عرب للرجال .. الثارات يا عرب للرجال ..

(ينطلق حسين وقد استل خنجره منشدا أهازيج قروية ، يضع سعيد رأسه بين يديه ، يتابع منصور تلمس لحيته ، وعيناه محملقتان الى أمام ، ببريق وحشي) .

ستار الختام

دمشق — **مطاع صفدي**